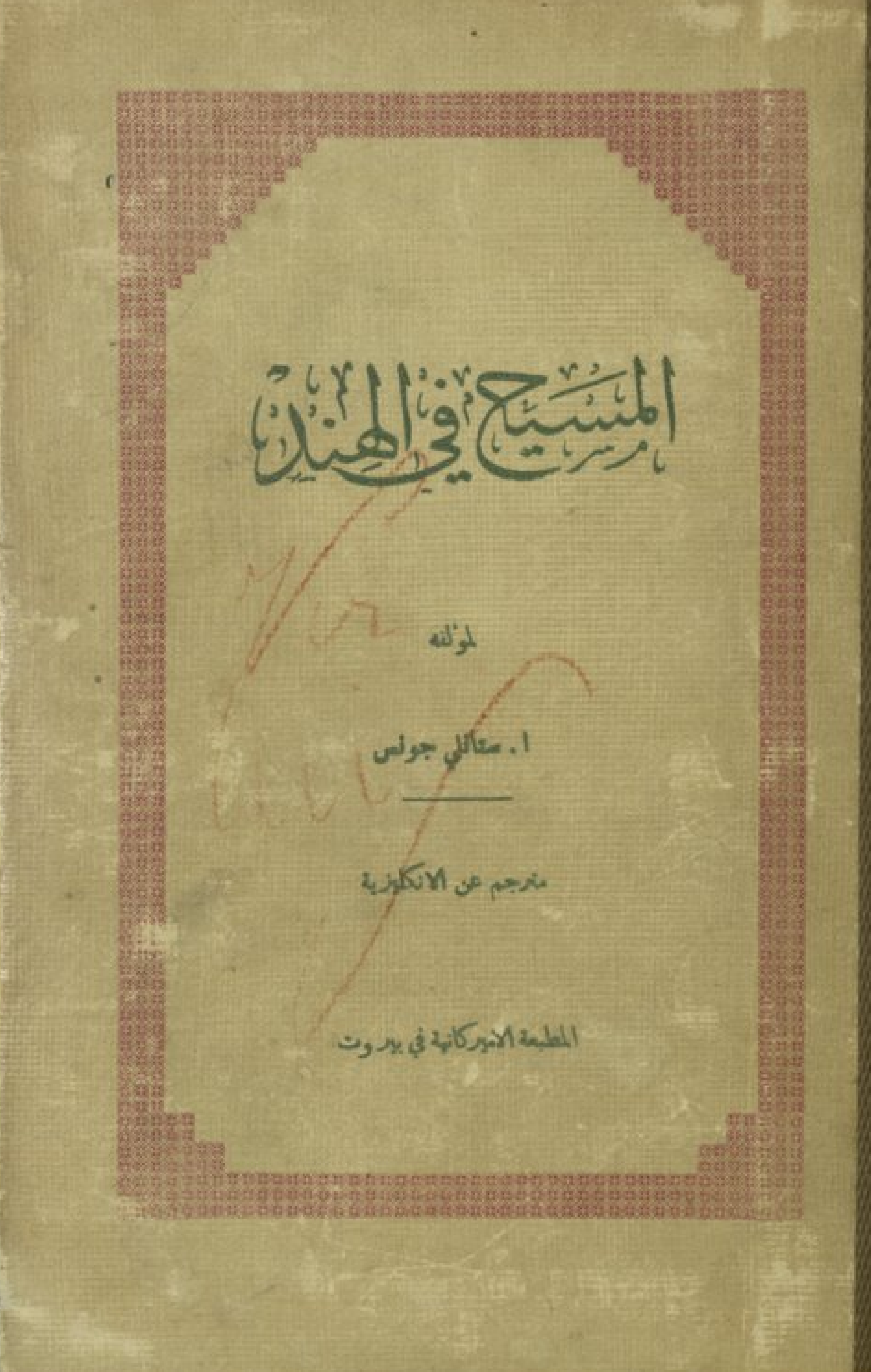
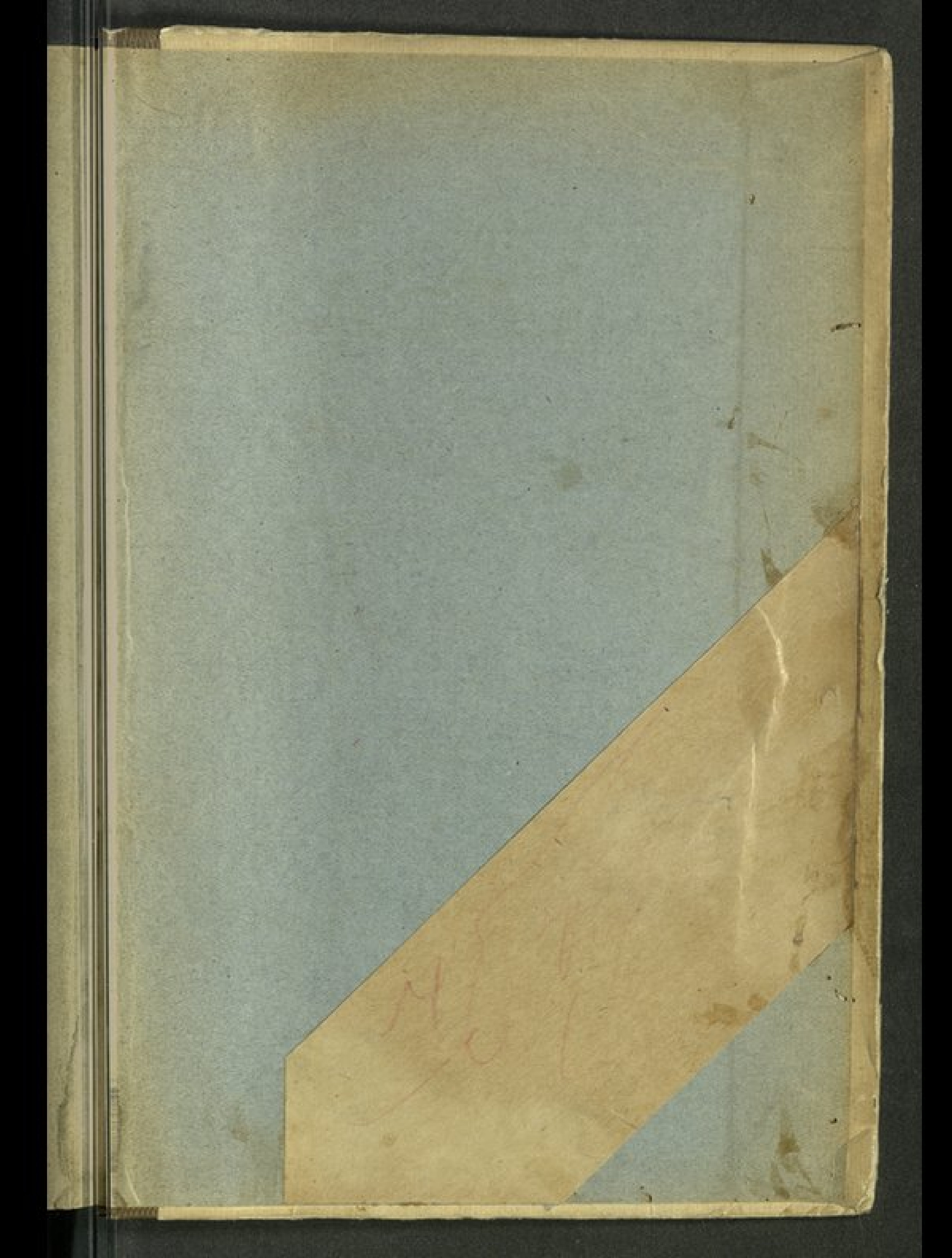


المسيح في الهند
لمؤلفه
ا. ستانلي جونس
مترجم عن الانكليزية
المطبعة الاميركانية في بيروت



اذا كان لك صديق تحبه

فاجعل صدره تحفظه لا في

كتاب تكرهه أ...

صديقك

[illegible]

المسيح في الهند

اَوْ

تطور جديد في عمل المرسليات المسيحية في الهند

لمؤلفه

ا. ستانلي جونس

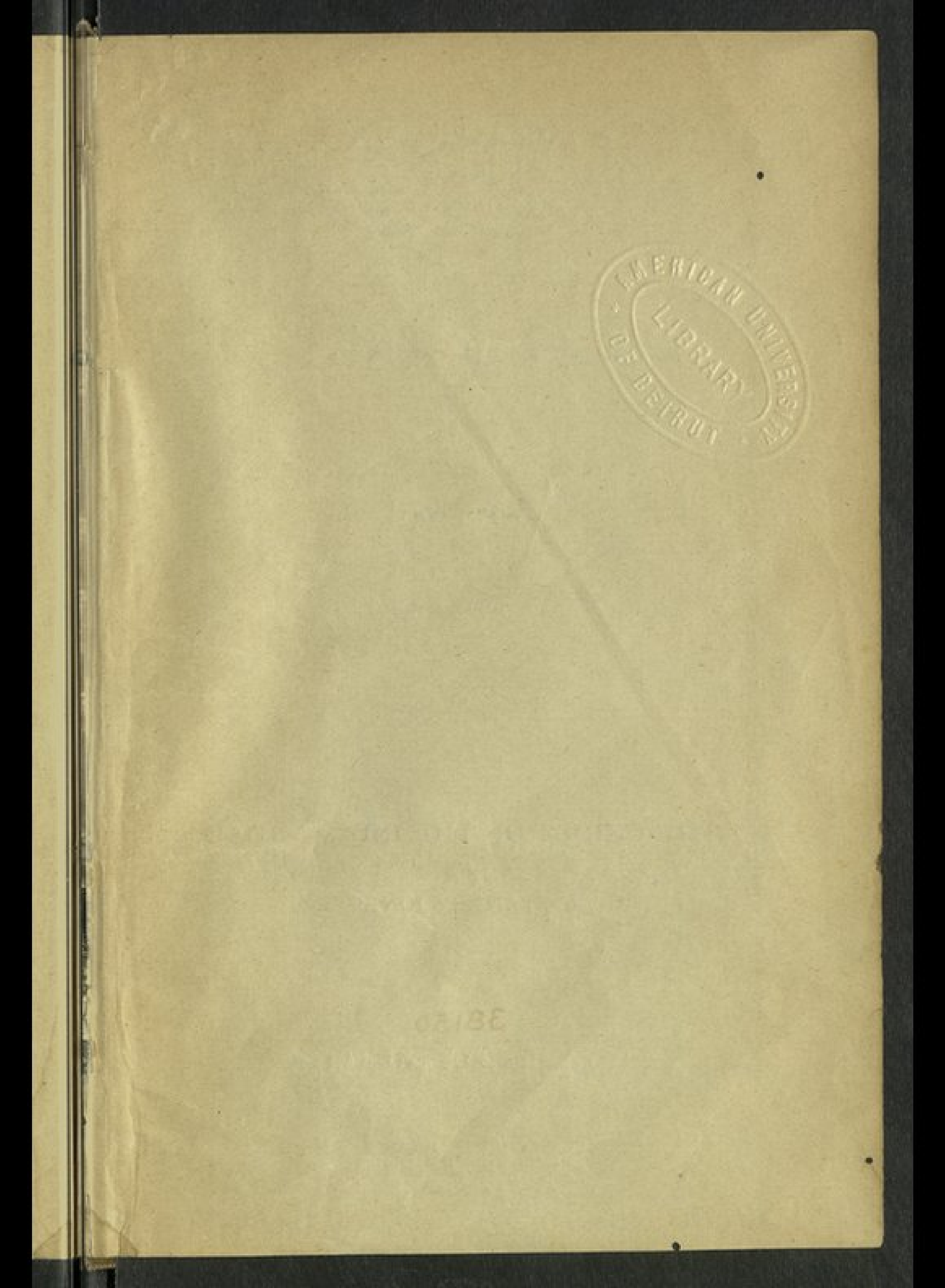
(مترجم عن الانكليزية)

THE CHRIST OF THE INDIAN ROAD

by

E. STANLEY JONES

طبع في المطبعة الاميركانية في بيروت سنة ١٩٢٨


AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT
LIBRARY

فهرس

تمهيد

الدكتور ستانلي جونس مؤلف هذا الكتاب مبشر اميركي قضى في بلاد الهند سبع عشرة سنة دائباً في التبشير والخطابة ولقي عملهُ نجاحاً باهراً بين اهل تلك البلاد وقد توصل بعد خدمتهِ الطويلة واختبارهِ الواسع الى آراء جديدة جديرة بالاعتبار عن موقف الهند تجاه المسيحية فشرح آراءهُ في هذا الكتاب شرحاً يستحق اهتمام العالم المسيحي اجمالاً

والكتاب يرمي بنوع خاص الى انارة اذهان قرائهِ من المسيحيين الاميركيين والانكليز وغيرهم ممن يرسلون بعثات التبشير الى بلاد الهند . ولكنهُ لا يخلو من فوائد جزيلة لغيرهم من المسيحيين من ابناء الشرق وابناء الغرب على حدٍّ سواء

وقد اوضح المؤلف في فاتحة الكتاب ان غرضهُ منهُ ان يبين كيف اخذ المسيح يتجنس بالجنسية الهندية . اي كيف ان الهنود قبلوا تعاليم المسيح وروحها واخذوا يسبكونها في قوالب هندية تنطبق على نفسيتهم وعاداتهم وحياتهم

• وقد حاول المؤلف ان يجتنب الاغراق والمبالغة فيما كتبهُ وفي غالب الاحيان اقتصر على ان يروي عن ألسنة غير المسيحيين خبر الانقلاب الفكري الذي يجري الان في تلك البلاد ولكنهُ حذر قراءهُ من الخطإ في فهم ما يرويهِ لهم عن ألسنة الهنود فلا يقرأُوا في تلك الاقوال كل المعاني التي كانت تنطوي عليها لو كان قائلوها انكليزًا او اميركيين

ومن رأي المؤلف ان المرسليات المسيحية في بلاد الهند قد وصلت الى دور حرج خطير واصبحت امام حالة جديدة عليها ان تواجهها بلا خوف ولا وجل متتبعة خطوات السيد المسيح وسائرة معهُ في طريق لم تطرق من قبل

ولا بد لمن يشاء ان يفهم هذه الحركات الفكرية الحديثة حق الفهم من ان يعرف الماضي وتاريخهُ ولا ينسى الاسس الموضوعة من قبل على المجهودات والتضحيات التي بذلها المرسلون الاجانب والمسيحيون الوطنيون منذ اجيال · ومع ان هذا الكتاب لا يرمي الى سرد تلك الاعمال الجليلة فان مؤلفهُ يعترف بفضل اولئك الافاضل الذين جدُّوا وكدوا في الماضي على امل الوصول الى مثل هذا اليوم الذي يتسع فيهِ مجال العمل · وعلى كل فان المرسليات المسيحية في الهند لا تزال في بدء عملها واذا هي عدَّلت موقفها وروحها فسيظل

الشرق في حاجة اليها اجيالاً عديدة في المستقبل

وقال المؤلف في فاتحة احدى الطبعات الجديدة[1] لكتابهِ ما يأتي :—

ان بعض قراء الكتاب لاحظوا اني اغفلت ذكر امور كثيرة مما يرد ذكرهُ عادة في الكتب التي تروي تاريخ المبشرين واعمال التبشير والمرسليات وسألوني لماذا لم اذكر شيئاً عن ارامل الهند الفتيات (اللواتي تقضي عليهنَّ تقاليد الديانة البرهمية بان يقضينَ عمرهنَّ في حالة الموت اشهى منها) ولا عن نظام الطبقات الاجتماعية الذي ترزح تحتهُ تلك البلاد وقد شل حياتها. ولا عن ستة الملايين من «الزهاد» الذين يجوبون طول البلاد وعرضها لا يعملون عملاً مفيداً لهم ولا لغيرهم وقد سألوني ايضاً هل الهندوسية في الحقيقة ليست الا نظاماً فلسفياً. اولا يعتقد عامة اتباعها بان عدد الآلهة والالاهات يبلغ ٣٣٠ مليوناً اولا تفرض ديانة الهنود الحج الى مزارات عديدة أوليس كهنتها طماعين جشعين يبتزون اموال الشعب الساذج ؟ او لا يعبد الهنود شياطين وآلهة ينسبون اليها اسفل الاخلاق واحطها؟ وهل زالت الامية من

(١) صدرت الطبعة الاولى من هذا الكتاب في اميركا في ايلول (سبتمبر) سنة ١٩٢٥ فراج رواجاً عظيماً حتى اضطر ناشروهُ الى اصدار طبعة جديدة منهُ في كل شهر بعد صدور الطبعة الاولى

بلاد الهند ام لا يزال نحو ٩٣ في المئة من اهاليها أميين لا يعرفون القراءة ولا الكتابة ؟ هل زالت جميع هذه الوجوه المظلمة من صورة الهند ولم يبقَ سوى الوجه المنير الشهي ؟

والجواب يتلخص فيما يلي :

ان هذه الامور لم تزل باقية في بلاد الهند ولكني لم اشأ الافاضة في الكلام عنها لثلاثة اسباب :

اولها ان بلاد الهند تستاء — ويحق لها ان تستاء — لان المرسلين لشدة رغبتهم في انهاض هم اخوانهم في الغرب الى معاضدة عمل التبشير يبالغون في وصف الجانب المظلم

نعم ان ما يذكرهُ اولئك المرسلون صحيح ولكن مجموع الصورة التي يرسمونها ليس بصحيح . ثم ان تطرفهم في تصوير الجزء المظلم من تلك الصورة لا يثير في اذهان سامعيهم من ابناء قومهم الا عاطفتي الشفقة والاحتقار وكلتا هاتين العاطفتين تولد في نفس صاحبها روح الكبرياء او الترفع عن الغير وهذا الروح ليس بالروح الذي يليق ان يكون باعثاً على اعمال التبشير المسيحي

وفضلاً عن ذلك فان في استطاعة الشرقيين الذين يزورون بلدان الغرب ان ينتقوا من احوال مدنيتها ما يمكنهم من تصويرها باقتم الالوان وقد فعل ذلك بالفعل كثيرون منهم فاستاء منهم الغربيون

وعدوا ما كتبوهُ تحاملاً ووصفاً ناقصاً او غير صحيح لمدنية الغرب فاذاً يجب علينا كمسيحيين ان لا نفعل بالآخرين الا كما نريد نحن ان يفعلوا هم بنا طبقاً لقول المسيح

والسبب الثاني ان الهنود انفسهم قد انتبهوا الى هذه المعايب والمفاسد في بلادهم وقاموا يكافحونها— ولا ريب في ان اشراق انوار المبادىء المسيحية على حياة شعوب الهند الاجتماعية كان السبب الذي نبه وجدانهم الى ما فيها من العيوب . ولذلك فالخطة المثلى هي ان نترك للهند امر مكافحة هذه العيوب واصلاحها كما شرعت هي في ذلك فعلاً وبالنظر لحالة الشعور القومي السائد في الهند يرجح انها اذا تركت لذاتها لتبدأ عمل الاصلاح من داخلها تنهج نهجاً اوفر كفاءة وسرعة مما لو أُقحم هذا الاصلاح فيها من الخارج او كان الاجانب هم الذين يحثونها على السير فيهِ . قال احد المحامين الاتراك عن الاصلاحات الحديثة التي تمت في تركيا «ان ما قمنا بهِ من الاصلاح في اربع سنوات لم يكن ليتسنى لاية دولة او حكومة اجنبية ان تحملنا على القيام بهِ واننا نحن انفسنا مندهشون منهُ» والسر في ذلك انهم قاموا بهِ من تلقاء ذواتهم

وثالث الاسباب اني حاولت ان اضع للمرسليات المسيحية أُسساً لدعوتها اعمق مما لو جعل الاساس ازالة الشرور او العيوب المختصة بجنس ما من الناس فان الانظمة الوثنية واصحابها سواء أَكانوا

في الشرق ام في الغرب وسواء اظهروا بافضل مظاهرهم ام باحطها لهي وهم جميعاً في حاجة الى المسيح . ولهذا تقدمت الى الهند بالقول : « اني لم اخصص بكم مجهوداتي في التبشير لاني رأيتكم اشد شعوب الجنس البشري احتياجاً الى التبشير بل لانكم احد تلك الشعوب ولاني موقن انهُ لا قيمة للعالم ولا للحياة ان لم تكن مطابقة لفكر المسيح وروحهِ ولهذا انا قائم بهذا العمل في دعوة العالم كما هو على امل ان يصل الى الحالة التي يجب ان يكون عليها . وبما انكم جزء من العالم جئت اليكم بهذه الدعوة . ولكني ما كنت لامكث هنا دقيقة واحدة لو لم اكن عالماً ان في بلادي كثيرين غيري يعملون فيها العمل الذي احاول ان اقوم بهِ في بلادكم . انا جميعاً نشعر بحاجة واحدة وانا موقن ان المسيح هو الذي يسد هذه الحاجة »

ثم اني لم أُفض في الكلام عن النهضة الدينية بين جماهير العامة او بين الطبقات السفلى من طبقات الهيئة الاجتماعية الهندية وذلك لان هذا الكتاب رواية ما جرى ضمن دائرة عملي الخاص . وقد كانت اعمالي اوثق اتصالاً بالحركة الفكرية بين ابناء الطبقات العليا منها باعمال التبشير بين الطبقات السفلى ولكني اشكر الله وابتهج لان هذه الملايين الصامتة الوضيعة اخذت تلتفت الى المسيح ولان نهضتها سائرة الى الامام لا يعروها وهن ولا فتور — فقد اراني اصدقائي بعد

رجوعي الى الهند عريضة موقعاً عليها ببصمات اصابع ثمانية عشر الفاً من هؤلاء القوم يعربون فيها عن رغبتهم في الانضمام الى الكنيسة . ولكني لم اشأ الافاضة في الكلام عن هذه الوجهة بل اقتصرت على رواية ما عرفتهُ من اختباري الشخصي

وازيد على ما تقدم اني لدى رجوعي الى الهند بعد ان غبت عنها نحو سنتين وجدتها ارحب صدراً واسرع تلبية للدعوة مما كانت حين غادرتها ولا تزال الحركة الفكرية سائرة فيها سيراً صامتاً لا يعتريهِ فتور ولا ضعف . وكما ان الجو الطبيعي اذا اشبع من الرطوبة لا يلبث طويلاً حتى تنسكب منهُ الامطار فكذلك الجو الروحي في الهند قد اصبح مشبعاً بافكار المسيح ومبادئهِ وعلى وشك ان تنسكب منهُ غيوث النعمة في شكل مسيحي . اما اذا سئلت متى يتم ذلك فاقول ان الوقت يتوقف على درجة تشبهنا بالمسيح واقتدائنا بهِ في معالجتنا هذه الحالة او كما قال لي احد زعماء المفكرين الهنود «ان كل شيء يتوقف على الكنيسة المسيحية»

المقدمة

ازالة الابهام عن موضوع القضية

لما ارسل المسيح المبشرين الاولين ليذيعوا في العالم بشرى مجيئه عادوا اليهِ « واخبروه بكل شيء كل ما فعلوا وكل ما علموا » . اما مؤلف هذا الكتاب فانهُ كمبشر يرى من واجبه ان لا يقتصر على ذكر ما فعلهُ وما علمهُ بل ان يزيد على ذلك ذكر ما تعلمهُ هو ولهذا يكون الكتاب لا بياناً عما تمّ على يدهِ من الاعمال بل عن العمل العظيم الذي تمّ في نفسهِ

ومن يتصفح هذا الكتاب يرى خلال سطورهِ شهادة غير مقصودة تبين كيف اني أُرشدت وانا اكرز للهنود الى توخي البساطة في عملي وفي رسالتي وفي ايماني وكما ارجو في حياتي ايضاً

قال احد اصدقائي عني بعد ان سمع خطبة القيتها من عهد قريب ما يأتي :

« ارجح انهُ (اي انا) قد افاد الهند بعض الفائدة ولكن ما لا ريب فيهِ عندي هو ان الهند قد افادتهُ فائدة عظيمة »

وهذا القول صادق فان خدمتي في الهند قد عادت على نفسي بمنفعة جزيلة فاني لما اردت ان اشاطر تلك البلاد ما وهبني اياهُ الله من نعم وجدت ان ما لدي اقل مما كنت احسبهُ وانهُ في الوقت نفسهِ – ومن وجهة نظر اخرى – اكثر مما كنت اظنهُ

كنت احسب مهمتي اكثر تعقداً مما اراها الان . لا اقول اني اراها الان اقل صعوبة ولكني اراها اقل تعقداً . لما ذهبت الى الهند لاول مرة كنت كالجندي الذي يحاول الدفاع عن خط قتال طويل فكان خط دفاعي يمتد من التكوين الى الرؤيا ثم الى المدنية الغربية فالكنيسة المسيحية الغربية . اي اني حسبت من واجبي ان ادافع عن هذه كلها فكنت ارى ذاتي متنقلاً من نقطة الى اخرى على هذا الخط الطويل احياناً اناوش من وراء موسى وداود واحياناً من وراء يسوع او بولس واحياناً وراء المدنية الغربية والكنيسة المسيحية . فساورتني لذلك الهموم اذ لم يكن امامي نقطة صريحة واضحة ادافع عنها . ووجدت ان النضال في الغالب كان ينحصر في احدى هذه الساحات الثلاث وهي العهد القديم والمدنية الغربية والكنيسة المسيحية . وكنت احس لشعور غريزي غير جلي ان الساحة الرئيسية ليست هنالك وان جوهر القضية لم يتناولهُ الدفاع

ثم رايت ان في مستطاعي ومن واجبي تقصير خط القتال وانهُ

يجب عليَّ ان اقف بجانب المسيح لا غير واواجه ذلك العالم غير المسيحي معلناً لهم عزمي ان لا اعرف بينهم شيئاً الا يسوع المسيح واياهُ مصلوباً وهكذا كان اشتداد العاصفة واحتدام العراك سبباً دفعني الى الالتجاء الى معقل استطيع الاحتفاظ بهِ فرايت ان الانجيل يستقر على شخصية يسوع بل ان يسوع ذاتهُ هو الانجيل او البشارة او الخبر المفرح وان مهمتي الوحيدة تنحصر في ان احيا حياتهُ وان أُظهرهُ للعالم . وبهذا اصبحت مهمتي في منتهى البساطة

ولم يقتصر الامر على ذلك بل رايت ان مهمتي اصبحت حيوية اكثر من ذي قبل . وانني ما دمت في ساحة المسيح فانا دائماً في ساحة الحرب الحيوية (اي التي يتوقف على الفوز فيها الانتصار النهائي الفاصل في الحرب) وان هنالك في تلك الساحة تبت جميع المسائل مما في السماء وما في الارض . وان المسيح هو القضية التي تحل كل القضايا وتبتُّ في امرها . ظللت اعتقد بالعهد القديم انهُ اسمى اعلان عن الله تعالى للعالم قبل المسيح وظللت استمد منهُ قوتاً داخلياً لنفسي كما كان يسوع يفعل ولكني ايقنت ان القضية الحيوية ليست فيهِ بل قدامهُ

وقف يوماً في احد اجتماعاتي محامٍ هندي من الطائفة الجاينية (وهي طائفة متوسطة في عقائدها بين البوذية والبرهمية) والقى عليَّ عدداً كبيراً من الاسئلة عن امور واردة في العهد القديم . وكان هذا

المحامي من اعداء المسيحية وقد كتب كتابات عديدة ضدها · فاجبتهُ « يا اخي اني استطيع اجابة اسئلتك جميعها ولكني لا ارى نفسي مضطراً الى ذلك فاني اوضحت ان المسيحية هي المسيح ذاته فان كان لديك اعتراضات عليهِ فهاتها لاجيبك عنها » — قال « ومن اعطاك هذه السلطة لان تجعل هذه التمييز ؟ اي مجلس كنسي فوّض اليك هذه السلطة ؟ » فاجبتهُ « ان سيدي هو الذي منحني هذه السلطة واني لا اتبع مجلساً كنسياً بل احاول ان اسير في خطوات المسيح الذي قال ‹سمعتم ما قيل للقدماء ... ولكني اقول لكم› وانا احذو حذوهُ في اعتبار كلمتهِ فوق كل شيء حتى فوق الاسفار المقدسة » وبهذا القول حولت ساحة النضال بيني وبين الوثنية من الوحي غير الكامل الى الوحي التام النهائي اي الى يسوع · فقد كان الوحي تدريجياً يتقدم من درجة الى اعلى منها حتى بلغ أعلى درجاتهِ في المسيح · فلماذا احاول انا ان اعود القهقرى او اضيع المجهودات عبثاً في الدفاع عما هو ناقص بينما التام والكامل موجود هنا في شخصية المسيح ؟

وقد راى صديقي المحامي حينئذٍ ـ والغمّ ملء فوادهِ ـ ان هـذا التحديد الذي حددت بهِ جوهر القضية قد جعل كثيراً من الكتب التي ألفها ضد المسيحية عقيماً وتافهاً ولا ينطبق على موضوع القضية

لكن لم يكن اللوم كلهُ على هذا المحامي في الخروج عن الموضوع . لاننا نحن المسيحيين في كثير من كتاباتنا ومواقفنا قد جعلناهُ يعتقد ان مدار البحث حيث ظنهُ هو

وخطأُنا في هذا الامر قد سبقهُ خطأُ الرسول بطرس فيما طلبهُ على طور التجلي . فانهُ لما ظهر هنالك موسى ممثل الناموس وايليا ممثل الانبياء وكانا يتكلمان مع يسوع ' اعلان الله الجديد ' اراد بطرس مندفعاً بعواطف قلبهِ اليهودي الاحتفاظ بالثلاثة معاً ووضعهم على مستوى واحد اذ قال ليسوع « لنبنِ ثلاث مظال لك واحدة ولموسى واحدة ولايليا واحدة » فسمع صوتاً من السحاب يقول « هذا هو ابني الحبيب لهُ اسمعوا » اي ان الناموس والانبياء قد تما فيهِ فاسمعوهُ . ولما رفع التلاميذ ابصارهم لم يروا احداً الا يسوع وحدهُ فكان هو وحدهُ مالئاً لافقهم . كذلك يجب ان يملأَ يسوع افقنا فلا نرى سواهُ

ثم اننا في الماضي كثيراً ما حملنا الهند وغيرها من بلدان العالم غير المسيحي على الاعتقاد بان ما نبتغيهِ في تبشيرنا هو نشر المدنية الغربية وكنا قبيل الحرب العظمى كثيراً ما نورد عظمة دول الغرب حجة لاقناع الشرق بوجوب اعتناق الدين المسيحي . لقد كان هذا الاستدلال خطأً واوصلنا الى مشاكل متعددة ادّت الى ما لا نهاية لهُ من الجدال والايضاح والاعتذار

فلا عجب اذا ترددت الهند وتلكأت عن قبول مدنيتنا بما فيها من العظمة والجمال من بعض الوجوه ومن الضعف والقبح من وجوه اخرى

لقد كان اتصال الغرب بالشرق في بعض الاحيان عن طريق اعمال البرّ والتضحية والخدمة المقترنة بالمحبة · ولكن هذا الاتصال كان احياناً اخرى عن طرقٍ شنيعة غير مسيحية

واذا شئنا ان نفهم سبب ما يعتري مسيحيتنا في الغرب من النقص والشوائب فما علينا الا ان نذكر الكيفية التي انتشرت بها الديانة المسيحية في اوربا · فان كثيراً من الشرور التي تئن منها بلدان الغرب الآن جاءها مع دخول المسيحية اليها · لا ينكر ان كثيرين من المرسلين الاولين الذي بشروا قبائل اوروبا كانوا رجالاً ممتازين بطهارة حياتهم وتضحيتهم لكن انتشار المسيحية لم يكن دائماً على ايدي افراد متصفين بالقداسة ولا بانكار الذات

وها انا مورد امثلة ثلاثة لايضاح العوامل الثلاثة غير المسيحية التي دخلت مع المسيحية وظلت منذ البدء شوائب للمدنية الغربية

المثال الاول · تنصرت روسيا باسرها بتنصر امبراطورها فلاديمير · رغب هذا العاهل في اعتناق الدين المسيحي لكنهُ تردد في الامر لزعمهِ ان كرامتهُ لا تسمح لهُ بان يقبل المعمودية عن يد احد كهنة بلادهِ

· فاراد ان يقوم بطريرك القسطنطينية نفسهُ بهذا الرسم · لكنهُ لم يشأ ان يدعو البطريرك الى روسيا لتعميدهِ لئلا يعد ذلك بمثابة قبولهِ منة من شخص اخر فراى ان لا سبيل يتفق مع كرامتهِ وعزة نفسهِ الا افتتاح القسطنطينية وارغام بطريركها على تعميده فيقف اذ ذاك موقف الآمر لا موقف المتوسل · وهكذا كان انهُ دخل القسطنطينية عنوة واكره البطريرك على تعميده · وبهذه الكيفية تنصرت روسيا! أفمن العجب اذاً ان روح الغطرسة والتسلط لا يزال متأصلاً في بلدان الغرب بالرغم من وجود المسيحية فيها ؟ لا عجب لانهُ دخل اليها مع دخول المسيحية

المثال الثاني · كان السكسون قبيلة من قبائل اوروبا الحربية فاكرههم شارلمان على اعتناق النصرانية فرضوا ولكنهم اشترطوا شرطاً واحداً ابوا ان يصرحوا بهِ الا حين تعميدهم · ولما غُطِّس اولئك المحاربون في الماء رمزاً الى ان حياتهم القديمة قد ماتت ابوا تغطيس اذرعهم اليمنى فرفعوها فوق رؤوسهم لانهم لم يرتضوا ان تشمل معموديتهم وما ترمز اليهِ من مسيحيتهم اذرعهم التي يقاتلون بها ولهذا كانت مسيحيتهم ناقصة فلا عجب ان تظل روح الحرب سائدة في اوروبا على رغم المسيحية · لانها دخلت معها

المثال الثالث · في سنة ١٦٢٠ وصلت الى شواطىء اميركا

الشمالية سفينة «ذي ما يفلاور» تقل عدداً من المهاجرين الانكليز الانجيليين ممن لم يوافقوا الكنيسة الانجيلكانية على بعض تعاليمها واضطرهم الاضطهاد في بلادهم الى هجرها الى بلاد جديدة يستطيعون فيها ان يعبدوا الله حسب الهام ضمائرهم · ولم يزل اسم تلك السفينة مقترناً بهذه الهجرة الدينية الشهيرة و باولئك المهاجرين المعروفين باسم "الاباء الحجاج" ويكاد اسمها يعتبر رمزاً الى الحرية · ومما يؤسف لهُ (وقل من يعرفهُ) ان تلك السفينة بعد ان اوصلت طلاب الحرية الى وطنهم الجديد اقلعت الى افريقيا لتعود منها مشحونة رقيقاً · ومما يذكر بالاسف ان احدى السفن التي كانت مستخدمة في تجارة الرقيق بين افريقيا والولايات المتحدة كانت سفينة اسمها (يسوع) أفمن العجب بعد هذا ان يكون التعصب الجنسي والقومي لا يزال موجوداً في بلدان الغرب على رغم المسيحية ؟ وكيف نتعجب وهو قد دخل معها

ان الشرق يشعر بوجود هذه الشوائب في مدنية الغرب ولكن الهند قد شاهدت في وسط ظلال المدنية الغربية شكلاً رائعاً اعجبها وجذب فؤادها · وهي تتردد في تقديم ولائها لهُ لانها تزعم انها اذا قبلتهُ تضطر الى قبول الاثنين معاً اي المسيح والمدنية الغربية لاعتقادها انهما متلازمان لا يفترق احدهما عن الاخر ولكن الهند بدأت

الان ترى انها تستطيع قبول احد الاثنين دون الاخر — اي ان تقبل المسيح دون ان تقبل المدنية الغربية — وان انبثاق فجر هذه الفكرة امر عظيم الاهمية لهم ولنا

قال احد المحامين الهنود في احد اجتماعاتي منذ سبع سنوات « هل تريد ان تقول لي انكم لم تأتوا الى بلادنا لكي تمحوا مدنيتنا وتقيموا مدنيتكم بدلاً منها وهل تعني ان موضوع كرازتك هو المسيح فقط دون ان يستلزم قبولنا اياهُ قبول المدنية الغربية ؟ لقد كنت ولا ازال اكره المسيحية ولكن ان كانت المسيحية هي المسيح نفسهُ فلا اجد سبباً البتة يحملنا نحن الهنود على بغضها »

فاكدت لهُ ان تلك هي رسالتي ولا سواها · كان هذا منذ سبع سنوات ومنذ ذلك الحين اخذت الامور تزداد وضوحاً وجلاءً حتى اتضح الان للقوم هناك ان غرضنا من الذهاب الى الهند ليس غرس المدنية الغربية

لهم ان يقتبسوا من مدنية الغرب ما يشاؤون كثيراً كان ام قليلاً ولكننا لا نجعلها بيت القصيد · وهذا لا ينفي اعتقادنا ان فيها ما هو عظيم المنفعة ويجدر باهالي الهند اقتباسهُ ولكن المرجح انهم يكونون اشد ميلاً الى اقتباسهِ اذا نحن لم نجعلهُ من جوهر القضية

نظر الهنود بحدة ذهنهم الى ما هو ابعد مرمى من ذلك وتوصلوا

الى اكتشاف حقيقة مدهشة جديرة بالاعتبار وهي ان النصرانية والمسيح ليسا واحداً. اي انهُ يمكنهم ان يقبلوا يسوع دون ان يقبلوا النظام الكنسي والمدني الذي نشأ حول اسمهِ في بلدان الغرب

قال احد مشاهير الخطباء بعد ان عاد اخيراً من الهند « ان اكتشاف الهند لهذا التمييز بين النصرانية ويسوع لهو اكتشاف في الدرجة الاولى من الاهمية » ومع ان هذه الفكرة ليست جديدة ولا مبتكرة اذ سبق ان أُبديت من قبل فالجديد فيها هو ان يتضح هذا الفرق لشعب لم يعتنق الديانة المسيحية بعد فيظهر ميلاً الى العمل بوجبهِ. ومما هو من الخطورة على جانب كبير ويتوقع منهُ نتائج عظيمة لبلاد الهند ذاتها وللعالم اجمع ان يتمكن الشعب الهندي ذو المواهب الروحية المدهشة من ان يرى بثاقب فكره ان جوهر الديانة المسيحية هو المسيح نفسهُ وان التسليم التام لهُ واقتباس فكرهِ وروحهِ والحياة طبقاً لحياتهِ هذه الامور هي التي تجعل الانسان مسيحياً. وان تحقيق هذه الفكرة مفعم بنتائج عظيمة يحتمل ان تطرأ على مستقبل تاريخ الشعوب الهندية الديني

اتساءل احياناً حين انظر الى هذا الامر نظراً اجمالياً أليس هنالك عناية الهية حالت دون قبول الهند ككتلة واحدة للديانة المسيحية قبل ان تثبت في ذهنها هذه الحقيقة التي اشرت الى اكتشافها

اياها ؟ فلو قبلت المسيحية قبل ان تجلى لها هذه الحقيقة لما كانت مسيحيتها الا نسخة باهتة عن مسيحيتنا تشاطرها ضعفاتها لا قوتها . الا انها لما توصلت الى هذه الحقيقة قبل قبولها للدين المسيحي فلا يبعد ان شعبها المستعد بفطرتهِ لبلوغ اسمى المواهب الروحية يقبل المسيح وحدهُ كجوهر المسيحية ويعيد الى العالم بايمانهِ بهاء العصر المسيحي الاول الذي كان المسيح فيهِ الكل وفي الكل عند تابعيهِ . ويكون لنا من ذلك نهضة روحية جديدة . فقد كانت النهضات الروحية في كل تاريخ المسيحية نتيجة توجه الافكار عن جديد الى شخصية يسوع . قال بوسييه « لم تطرق المسيحية طريقاً جديداً في سيرها الا وكان الباعث الى ذلك ان شخصية المسيح تجلت عن جديد كشخصية حية في قلوب الناس وانبعث من ذاتيتهِ شعاع نور جديد فانار العالم»

صدر الانجيل في اول عهده عن شعب كان خاضعاً لغيره ويحتمل ان تأتي تجليتهُ وتجديد حياتهِ عن يد شعب اخر خاضع ويعتقد البعض منا ان تيار التأثير الروحي العظيم الذي سوف تشعر بهِ نفس الجنس البشري في المستقبل سيجيء عن طريق الهند

الفصل الاول

المرسل ورسالته

طلب اليَّ ان اروي في هذا الكتاب ما اختبرته في تبشيري في الشرق . وتمهيداً لذلك اقول اني وجدت ان كل عمل تبشيري حقيقي يبتدىء في المبشر نفسه والمعضلة الكبرى في سبيل العمل المسيحي هي معضلة العامل المسيحي . وكما ان التربية العائلية لا يمكن ان تكون ارقى من الاخلاق العائلية اي اخلاق الوالدين فكذلك لا يمكن ان تكون الخدمة المسيحية ارقى من الخادم المسيحي

ولذلك لا استطيع ان اجد طريقة ابدأ بها الكلام في هذا الموضوع افضل من ان اروي شيئاً من اختباري الشخصي الذي لولاه لما كنت اجترىء على طرق هذا الباب

بعد ان قضيت مدة تنيف على ست سنوات في الهند اتعاطى ضروباً مختلفة من اعمال التبشير — راعياً لكنيسة انكليزية ثم رئيساً لادارة جمعية للطبع والنشر ثم مرسلاً للقرى ثم مشاركاً لاعمال التبشير في انحاء متسعة الاطراف — شعرت اخيراً بميل قوي الى العمل بين

الطبقات الاجتماعية العليا وطبقات المهذبين · ولم نكن نعمل بين ابناء هذه الطبقة من اعمال التبشير الا ما لا يكاد يذكر لاننا اخترنا اسهل الطرق وحصرنا كل مجهوداتنا تقريباً بين الطبقات الدنيا وكنت مع عملي القانوني قد انشأت صفاً لدرس الكتاب المقدس وحلقة صغيرة للدرس في نادٍ هندي يجتمع فيهِ عدد من الزعماء الهندوس والمسلمين· وكنا في المساء بعد لعب التنس نجتمع معاً ونظل مجتمعين حتى الغسق فندرس العهد الجديد ونتناقش في مواضيع روحية· ففي ذات يوم سألني احد كبار موظفي الحكومة وهو من الهندوس « منذ متى انشئت هذه المرسلية في هذه المدينة ؟» اجبتهُ :« منذ خمسين سنة» قال « ولماذا اذاً لم تذهبوا الا الى الطبقات الحقيرة لماذا لم تأتوا الينا ؟ » فاجبتهُ « لاننا ظننا انكم لا تقبلوننا» · قال : « هذا خطأ · اننا نقبلكم اذا جئتمونا بالطريقة الصحيحة» ومن ذلك الحين حتى الان لم تزل تتردد عبارتهُ في ذهني « اذا جئتمونا بالطريقة الصحيحة» وانا اتساءل ما هي الطريقة الصحيحة يا ترى ؟ وقد توصلت اخيراً الى هذه النتيجة وهي ان الطريقة الصحيحة هي ان يكون المرسل مسيحياً بكل ما يتضمنهُ معنى تلك الكلمة

∴

ولكن من منا كفوء لمثل هذا ؟ من منا يستطيع ان يقف في وسط التيارات الفكرية والحركات الوطنية التي تكتسح الهند ويفسر

المسيح لشعبها تفسيراً ينطبق على حالتهِ وحاجتهِ ؟ سألت ذاتي هذا السؤال فشعرت شعوراً مؤلماً باني لست حائزاً لتلك الكفاءة من الوجهة العقلية او العلمية . ثم اني شعرت ايضاً ان ايماني المسيحي ليس قوياً الى حدٍ يمكنني من القيام بعمل ما تدعو اليهِ الحالة وفوق ذلك كلهِ فان صحتي كانت منحطة انحطاطاً تاماً فقد نتج عن اجهادي ذاتي في العمل مدة ثماني سنوات متواصلة ان أُنهكت قواي العصبية وتعب دماغي وأُصبت مراراً عديدة بنوب اغماء . فذهبت باجازة الى اميركا طلباً للراحة وتجديد القوى وحدث ان اصابتني احدى تلك النوب وانا اقوم بالخدمة الدينية صباح يوم من ايام الاحد على ظهر الباخرة . فقضيت سنة كاملة في اميركا وفي طريقي وانا راجع الى الهند عقدت اجتماعات في مانيلا لتبشير تلامذة جامعة الفيلبين فاعترف كثيرون من الطلبة بتجددهم . ولكني فيما كنت في وسط معمعة هذه الاجتماعات عاودني مرضي القديم واصبت مراراً بالاغماء وهكذا عدت الى الهند وفوقي سحابة قاتمة تهدد صحتي واستأنفت عملي في ذلك الاقليم المضني وانا متثلم الصحة . فذهبت تواً الى البلاد الجبلية حيث استرحت راحة تامة بضعة اشهر ثم نزلت الى السهول وحاولت الشروع في العمل فوجدت اني لم ازل كما كنت اولاً فعدت الى الجبال ولما رجعت ثانية الى السهول رايت اني لا استطيع

الاستمرار في عملي لانحطاط صحتي . وكيف اواجه هذا العمل وانا غير مستعد لهُ البتة وان لم تأتني معونة من مصدر ما فساضطر الى هجر عملي كمرسل والرجوع الى اميركا والذهاب الى احدى المزارع حيث اعمل اعمالاً يدوية لعل صحتي تعود اليّ . كانت الساعة التي تجلت لي فيها هذه الحقيقة من اقتم الساعات ظلمة في عيني . وكنت وقتئذٍ حاضراً في اجتماع ديني في لكنو وفيما انا اصلي غير مفتكر بنفسي شعرت كانني سمعت هاتفاً يقول لي « وهل انت مستعد للعمل الذي دعوتك اليهِ ؟» فاجبت « كلا يارب انني مضنى وقد بلغت جهد طاقتي » فاجابني الصوت « ان تركت ذلك لي ولم تقلق بسببهِ فاني انا اهتم بالامر » فاجبت « اني راضٍ يا رب ان أكل اليك كل امري » وعندئذٍ حل في قلبي سلام عظيم شملني وعلمت ان الامر قد تمّ وان الحياة — الحياة الغزيرة — قد استولت عليّ . ولما عدت الى منزلي تلك الليلة كنت كاني اسير في الهواء وكأن قدميّ لا تمسان الارض وظللت اياماً بعد ذلك وانا في حال من السرور انساني ان لي جسماً مادياً . ومرت بي الايام وانا ادأب في العمل طول النهار والى ساعة متأخرة من الليل . ثم حينما يأتي وقت النوم لا اشعر بحاجة اليهِ لانني لم اكن اشعر باقل تعب . وظهر لي كان قد استولت عليّ الحياة والسلام والراحة . بل المسيح نفسهُ

ثم عرضت لي مسألة وهي هل يسوغ لي ان اخبر الناس عما جرى لي . فكنت لاول وهلة اشمئز من ذلك لئلا يحمل محمل المباهاة والافتخار ولكني اخيراً رأيت من واجبي ان ابوح بهِ ففعلت وشعرت عندئذٍ انهُ لم يعد ممكناً لي النكوص عما سرت فيهِ بعد اعلانهِ فاما ان اغرق واما ان اعوم على مشهد من جميع الناس . وها قد مضت الان تسع سنوات كلها جهاد في العمل ومع ذلك لم يعاودني مرضي الاول وتمتعت في هذه السنوات كلها بصحة لم اتمتع بمثلها في كل ما مضى من حياتي . وشعرت ان هذه الصحة ليست امراً جسمياً فقط بل اني صرت استمد حياة جديدة لجسمي وعقلي وروحي وان حياتي اصبحت على مستوى ارفع من ذي قبل مع اني لم افعل شيئاً لادرك هذه النعم الا مجرد قبولي لها

اظن ان اختباري هذا يمكن تحليلهُ وتفسيرهُ بسيكولوجياً ولكن ذلك لا يهم . فالحياة اعظم اهمية من الاساليب والطرق وقد صرت استطيع ان اقول ما قالهُ بولس الرسول : ان الحياة لي هي المسيح

ولولا هذه اللمسة التي شفتني من مرضي فما اظن اني كنت اجرؤ على اجابة الدعوة الى العمل بين قادة الافكار في الهند لان ذلك العمل اعظم واصعب من ان استطيعهُ بذاتي ولكني رايت مصادر القوة فاستمددتها منها ولم تنضب

والان يجدر بي ان اقول كلمة عن الطريقة المثلى التي يجب اتخاذها في دعوة الناس الى المسيح · فالطرق المألوفة اثنتان او ثلاث · اولاها الطريقة القديمة وهي الطعن بالاديان الاخرى ثم التوصل من ذلك الى اقامة دياتنا على انقاضها · والثانية طريقة الدكتور فاركهار وهي ان نظهر كيف ان المسيحية تتمم مطاليب الاديان القديمة وهي طريقة تفضل الاولى كثيراً · والثالثة ان نبتدىء بموضوع عام يهم الجميع ثم نتدرج منهُ الى اختتام الكلام بالتعليم والارشاد المسيحي

وقد شعرت شعوراً غريزياً انهُ لا بد من ان يكون هنالك طريقة افضل من هذه الثلاث وارى الان اني كنت وقتئذٍ اتلمسها · فامامي مذكرة كتبتها منذ ثماني سنوات وضمنتها بعض المبادىء التي يجب علينا اتباعها وهي :

(١) كن صريحاً لدرجة متناهية · يجب ان لا يكون هناك تستر او تكتم ولا ان نخفي مقصدنا الحقيقي او مغزى كلامنا تحت ستار مواضيع تحتمل التأويل على اوجه متعددة بل يجب ان يدل الموضوع على حقيقة الكلام الذي تقصدهُ فان جمهور السامعين لهم الحق ان يعرفوا ما هو الذي اتوا لكي يسمعوهُ

(٢) اعلن قبل الكلام انك لا تنوي القدح في دين احد وان كان هنالك شيءٌ ضد دين ما فلا يكون مقصوداً بالذات بل نتيجة

اظهار المسيح وتعاليمهِ بصورة ايجابية · فيكون المسيح ذاتهُ اذ ذاك هو الذي يطعن او ينتقد · واظهر ان هذا الطعن يمكن ان يتجه اما عليهم او علينا اي اننا نجعل المسيح حكماً بين الفريقين وبهذا لا يتولد فينا شعور التفوق على من نخاطبهم ولا نتخذ موقف من هو ارفع منهم

(٣) اسمح لهم ان يسألوا اسئلة بعد ختام الخطبة · واجه كل شيء ولا ترغ من امام اية صعوبة

(٤) اطلب من بعض الوجهاء غير المسيحيين في المدينة التي تعقد فيها الاجتماعات بان يتراسوها

(٥) يجب تعريف المسيحية بانها المسيح — لا العهد القديم ولا المدنية الغربية حتى ولا النظام الذي شيد حول المسيح في بلدان الغرب — بل المسيح وحدهُ · وان صيرورة الانسان مسيحياً معناها اتباع المسيح

(٦) يجب تفسير المسيح — اي حياتهُ وتعاليمهُ — في قالب الاخبار المسيحي بدلاً من قالب الجدال

كتبت هذا منذ ثماني سنوات والان حين اعيد نظراً على الماضي اجد اني قد أُرشدت الى التقدم خطوتين عظيمتي الاهمية : اولاهما اني اغفلت ذكر لفظة « المسيحية » في الاعلانات عن خطبي (أليست تلك اللفظة غير موجودة في الكتاب المقدس؟) وذلك لانها

اصبحت مقترنة ببعض المعاني التي تسبب ارتباكاً وقد استعملت بدلاً منها اسم المسيح في مواضيعي التي اعلنها وفي الخطب ذاتها

الثانية يجب ان يظهر المسيح في مصوغ هندي اي ان يظهر كمسيح الطريق الهندية · فقد رأيت انهُ لا يمكن لاية دعوة ان تنجح في الهند ان كانت تجرح العاطفة الوطنية التي تزداد انتشاراً من حين الى حين · وان الديانة المسيحية حسب الظاهر تجرح هذا الشعور ولهذا كان انتشار المسيحية على اقلهِ بين الطبقات التي يختلج في صدورها ذلك الشعور القومي · قال لي احد زعماء الوطنيين «اني لا اخاف من المسيحية بحد ذاتها ولكني اخاف مما هو جارٍ فان كل من يصير مسيحياً نخسرهُ من جانب قضيتنا الوطنية»

ولا عجب اذا دخلهُ مثل هذا الريب لان المسيحية لكي تنجح يجب ان لا تنحاز الى قيصر ولا تعتمد على عضد الحكومة وموآزرتها بل يجب ان تقف في جانب الشعب · ويجب ان تعمل مع تيار الشعور الوطني لا ضدَّهُ ويجب ان يظهر لهم المسيح لا كغربي ينتصر لسيادة الجنس الابيض بل كاخ للناس اجمع

واننا نرحب بالمتطرف في الحماسة الوطنية ونقبلهُ في شركتنا كما فعل سيدنا نفسهُ

اما من جهة الكيفية والروح اللذين يجب ان تعرض بهما تلك

الرسالة فيجدر بنا ان نضع نصب عيوننا ما قالهُ تاغور لمواطنيهِ وهو :
« حينما ياتي المرسلون بالحق الذي ينادون بهِ الى بلاد غريبة يجب ان يقدموهُ بروح الاحترام لشعور شعب تلك البلاد والا فلا يُقبل ويجب ان لا يُقبل فان طريقة عرضهِ لكم يجب ان لا تكون مناقضة لفكرتكم الوطنية ولا لكرامة نفوسكم »

ويتراءى لي اننا نحن الذين ناتي من بلاد اجنبية يجب ان يكون فينا الشعور الداخلي (ولو لم يكن ذلك مقترناً بعلامة خارجية كتغيير التابعية او الازياء) باننا اصبحنا ابناء للهند بالتبني ويجب علينا ان نقدم رسالتنا كعربون احترام لوطننا المكتسب ويجب ان يشمل الاحترام كل موقف من مواقفنا وان تصبح الهند وطننا مستقبلها مستقبلنا ونحن ذواتنا خدمها لاجل المسيح

وعليهِ قد تقدمنا في تطورنا الفكري الى هذا الحد : ان موضوع رسالتنا الى الهند يجب ان يكون 'مسيح طريق الهند' بكل ما تتضمنهُ هذه الالفاظ من معنى

وقد أيد هذه الفكرة الدكتور جلكي الذي قصد الى بلاد الهند موءخراً ليلقي سلسلة محاضرات فيها . وبعد اخذ اراء كثيرين كان لي الشرف بان اكون احدهم اختار موضوعاً لمحاضراتهِ « شخصية يسوع » وقد كان اختيار هذا الموضوع مغامرة عظيمة في حدّ ذاتهِ ولكن الاقبال

عليها كان عظيماً · قال رئيس احدى الكليات المسيحية في الهند للدكتور جلكي بعد ان شاهد ما لقيت محاضراته من اقبال القوم عليها « لو انك اخترت هذا الموضوع منذ ثلاث سنوات لما كنت وجدت من يسمع لك · انني مندهش كما انت مندهش من مظاهر الاهتمام العظيم هذه ومن هذه الجماهير الغفيرة »

وقال زعيم المفكرين الاجتماعيين في الهند في مقالة نشرها في جريدته · « ان الخطيب (اي الدكتور جلكي) لم يكن في وسعه ان يختار موضوعاً اعظم اهمية حيوية للهند من موضوعه شخصية يسوع » · وقد ارتاحت نفسي كثيراً اذ وجدت ان اختبار الآخرين جاء مؤيداً لاختباري

كان من الصعب قبل الآن حمل غير المسيحيين على حضور محاضرة مسيحية مهما كانت الا انه في مدينة · · · كان بين الذين ذيلوا بامضاآتهم اعلانات الدعوة الى الاجتماعات اكبر وجيه بين الهندوس وقاضٍ مسلم ومرسل مسيحي · وكان ذلك وقتئذٍ اختباراً لم يسبق لي مثله وقد قال لي احد المرسلين الواسعي الاختبار بعد احد هذه الاجتماعات « لو قلت لي منذ اسبوع ان وجهاء هذه المدينة سيجلسون ليلة بعد ليلة ليسمعوا وعظاً انجيلياً صريحاً صراحة تامة ويطلبون المزيد لما كنت صدقت قولك ولكن هذا ما فعلوه »

اني وجدت بالاختبار انهم يصغون اذا كان موضوع البشارة المسيح وانهُ اذا رفع المسيح امامهم ينجذبون اليهِ

ومن المحتمل اننا سنجد افضل طريقة لبث الدعوة المسيحية هي طريقة المناداة بيسوع بكيفية صريحة مباشرة

كان الرسول بولس يرى ذلك لانهُ قال « قد رفضنا خفايا الخزي غير سالكين في مكر ولا غاشين كلمة الله بل باظهار الحق مادحين انفسنا لدى ضمير كل انسان قدام الله . . . فاننا لسنا نكرز بانفسنا بل بالمسيح يسوع رباً » (٢ كو ٤: ٢و٥) اي وضع المسيح ذاتهُ امام ضمير كل انسان لعلمهِ ان المسيح يؤثر في النفس ما يؤثرهُ النور في العين والحقيقة في الضمير والجمال في الذوق العقلي . لان المسيح والنفس قد وجد الواحد منهما للآخر . ومتى اجتمعا حصل الشعور المتبادل والتقارب بينهما

ومما يدل على ان هذه الطريقة طريقة صحيحة في مخاطبة العالم غير المسيحي ان رجلاً غير مسيحي كان مترئساً لاحد الاجتماعات أنب احد الخطباء المسيحيين لانهُ لم يصل الى الكلام عن المسيح الا بالتدريج فقال لهُ « اننا نستطيع نحن ان نتكلم عن الله اما الذي ننتظر سماعهُ منك فهو عن المسيح »

كثيراً ما نشير الى خطبة بولس في اثينا ونوردها كانموذج

للاسلوب التبشيري ولكنها بالرغم من ذلك كانت فشلاً عظيماً لبولس لانهُ لم يفلح في تأسيس كنيسة هناك. علل احد الكتاب اللاهوتيين هذا الفشل بقولهِ «ان الدعوة المسيحية كانت تفشل او تنجح على نسبة درجة اخفاء او اظهار حقائق الدين الجديدة التي اعلنها المسيح خذ خطاب بولس في اثينا فقد ذكر فيهِ بعض الحقائق الجميلة كروحانية الله وكونهِ غير بعيد عنا وانهُ هو الذي نحيا فيهِ ونتحرك وانهُ هو الذي خلق الدنيا من العدم واشار الى عناية الله وان الامور لا تحدث صدفة واتفاقاً. والى ان الناس من دم واحد فلا فرق بين اليوناني والبربري ولكنهُ لم ينادِ في خطبتهِ برسالة مسيحية صريحة وفي اغفالهِ لذكر الصليب اغفالاً مقصوداً كان سر فشلهِ في اثينا ولهذا غير لهجتهُ لما ذهب الى كورنثوس فانهُ كتب اليهم بلهجة النادم يقول 'عزمت ان لا اعرف بينكم شيئاً الا يسوع المسيح واياهُ مصلوباً' وذلك لانهُ وجد ان الانجيل فقد طعمهُ وقوتهُ لما امتزج بالحقائق اليهودية المبتذلة»

اما الهندي فيلح و بحق يلح طالباً ان لا يكون المسيح مغطى بقشرة كما قال احد ممثلي الطلبة في اجتماع مؤتمر الطلبة العالمي في باكين. يجب ان لا يكون المسيح ملفوفاً باكفان المجادلات الدينية المدفونة منذ القديم بل مسيحاً جديداً حياً خالياً من العوائق والعراقيل

كما كان حين حيتهُ مريم امام القبر المفتوح في صباح قيامتهِ المجيدة

وقد عبر احد الهنود عن هذا المعنى بالقالب الاتي : « اننا في الماضي لم نكن نريد ان نقبل المسيح في قلوبنا ولكن اللوم في ذلك ليس علينا وحدنا . فان المرسلين المسيحيين اظهروا امامنا مسيحاً مغطى تغطية تامة بحجب من مسيحيتهم . وقد كانت مساعيهم حتى الان ترمي الى هزيمة تعاليمنا الدينية ولذلك كنا ابداً مستعدين للنضال دفاعاً عن ذواتنا . والمرء لا يستطيع ان يحكم حكماً عادلاً متى كان في حالة حرب . وفي تهيجنا الناشيء عن هذه الحالة لما قصدنا ان نوجه ضربتنا على المسيحيين وقعت على المسيح خطأ »

وعلينا نحن المسيحيين ان نعترف ايضاً بنصيبنا من الخطإ وان نتخذ الاحتياط اللازم لكي تستطيع الهند في المستقبل ان تلبي نداء المسيح غير المقيد بعراقيل

كان احد اصدقائي يخاطب برهمياً فالتفت اليهِ البرهمي وقال « اني لا احب مسيح قانون ايمانكم ولا مسيح كنائسكم » فسالهُ صديقي « ماذا تقول اذاً بمسيح الطريق الهندية ؟ » اطرق البرهمي برهة وهو يفكر وتصور في ذهنهِ المسيح سائراً على احدى طرق الهند . راهُ مرتدياً ملابس زهاد الهنود راهُ جالساً على جانب الطريق والجماهير حولهُ يفتح عيون العمي الذين يتلمسون طريقهم اليهِ ويضع يديهِ على رؤوس النجسين

المساكين الذين يخرون ساجدين امام قدميهِ و يعلن بشرى الملكوت للمصابين وراءهُ يرتقي متثاقلاً جبلاً منفرداً كسير القلب ثم يموت على صليب مرفوع على قارعة الطريق فدى عن الناس ولكنهُ يقوم منتصراً ويعود فيمشي على تلك الطريق ثانية · رأى ذلك البرهمي في عين مخيلته هذه المشاهد فالتفت الى صديقي وقال لهُ « اني استطيع ان احب وان اتبع مسيح طريق الهند » · وهل هنالك من فرق بين مسيح طريق الهند ومسيح طريق الجليل ؟ كلا ليس ثمت من فرق البتة

لقد انتشرت معرفة المسيح في بلاد الهند حتى انهُ يحق لنا ان نقول على سبيل المجاز انهُ اصبح شخصية مالوفة بين الجماهير التي تروح وتجيء على طرق تلك البلاد بل نستطيع ان نقول فوق ذلك انهُ لم يعد غريباً عن تلك البلاد بل اخذ يتجنس بجنسيتها

فان قبول اهاليها لتعاليمهِ ومبادئهِ جعلهم ينظرون اليهِ كأنهُ واحد منهم · وبهذا المعنى المجازي نستطيع القول ايضاً اننا نقابلهُ مرة بعد اخرى اذا سرنا في ~~افكار~~ طريق الهند وفي طرق عواطفها نشعر بحضوره اللطيف وفي طرق احكامها العقلية واعمالها نجد انهُ يزداد تسلطاً وسيادة يوماً بعد يوم · فكأن لسان حال الهند ينشد مع الشاعر الاميركي هويتير

«اننا نشعر بجانب اسرة آلامنا بقوة الشفاء الصادرة عن ذلك الثوب البسيط . نمد ايدينا فنلمس شخصهُ القدوس في ازدحام الجموع في هذه الحياة فنبرأ من اسقامنا»

الفصل الثاني

بواعث المرسليات المسيحية وغرضها

لقد نشأ كثير من سوء الفهم حول الاسباب التي حدت بنا الى الشروع في المرسليات المسيحية وحول حقيقة ما نحاول ادراكهُ بواسطتها . وقد لقيت مسألة هذه المرسليات انتقاداً شديداً من مصادر ووجهات نظر مختلفة . وانني شخصياً ارحب بهذا الانتقاد لانهُ لا يودي الا الى جلاء الحقيقة . فان كان ما نعملهُ صحيحاً فسوف يزداد ظهوراً ولمعاناً وان لم يكن صحيحاً فكلما عجلنا في معرفة الحقيقة كان الافضل لنا . فقد قيل عنا اننا نتعرض لشؤون دولية لا تعنينا واننا نتاجر بالمعتقدات في بلدان الشرق واننا اكليريكيون متحمسون نجوب البر والبحر لنكسب دخيلاً واحداً . اما الانتقاد الموجه علينا من الجهة الاخرى فهو اننا اذا اندفعنا للقيام بخدمة نافعة للامم الاخرى فانما نفعل ذلك اشباعاً لنعرتنا الجنسية . واننا لسنا الا الجانب اللطيف من الاميريالزم واننا نتقدم كطليعة لها بالمدارس والمستشفيات واعمال البر والانسانية . ثم تأتي بعدئذٍ الاميريالزم فتجني نتيجة هذه المساعي باسم السيادة الامبراطورية . وان اصحاب الاموال يمدون

ايديهم لاستغلال الامم حالما يفتح المرسلون لهم طريقاً اليها · وقد قيل ايضاً ان ذهابنا لتبشير امة تستطيع إنجاب افراد مثل غاندي وتاغور لهو ضرب من الوقاحة· وآخر ما يقال من ابواب الانتقاد ان الحركة المرسلية خطا بخطإٍ لان النقاد غير المسيحيين يقولون ان وصية المسيح الاخيرة لتلاميذه التي امرهم بها ان يذهبوا الى جميع الامم ويكرزوا بالانجيل لم تكن الا تحشية اقحمها النساخ في نص الاناجيل وعليهِ تكون الفكرة من بابها خطأً بخطإٍ

ان هذه الانتقادات لخطيرة ويجب ان نواجهها بصراحة وانصاف لانهُ اذا شئنا ان يكون للمرسليات مركز ثابت في عواطف الكنيسة في المستقبل فعلينا ان نتأكد من انها مما تقبلهُ عقولنا وتصادق عليهِ · لان ما لا يقبلهُ العقل لا يلبث ان يفقد منزلتهُ في القلب ايضاً· وفضلاً ذلك فان كانت المسيحية بضاعة لا تستحق التصدير الى خارج بلادنا فهي لا تستحق ان نحتفظ بها نحن · اي ان كنا لا نستطيع مشاركة الغير بها فلا نستطيع الاحتفاظ بها نحن ايضاً

ان بعض البواعث التي كان ينظر اليها قبلاً انها هي البواعث الحقيقية الصحيحة لعمل التبشير لم يعد المسيحيون يتمسكون بها اليوم· فحين تطوعت للانخراط في سلك خدمة التبشير كانت الفكرة السائدة وقتئذٍ هي ان هنالك تياراً من النفوس البشرية المندفعة الى

هوة الهلاك وعلينا ان ننقذ منها اعظم عدد نستطيعهُ . اما الان فلم تعد هذه الفكرة تعتبر الباعث الصحيح للمرسليات الى البلدان الاجنبية . وسواءٌ كان هذا التغير صواباً ام خطأً فهذا امر لا يتناولهُ بحثنا الان

ثم انهُ عند نهاية الحرب العظمى كان الشعور السائد ان الديمقراطية هي الدواء الشامل الشافي لجميع ادواء البشرية وان اميركا التي تجسم فيها المثال الديموقراطي الاكمل يجب ان تعمّم الديمقراطية المشربة بروح المسيحية في العالم . اما الان فاننا نرى ان الديمقراطية على رغم جمالها ليست دواءً عاماً لامراض العالم . وانهُ من الممكن ان تتولد تحت نظامها كما تتولد تحت الارستوقراطية شرور ومفاسد تشل حياة الامم . قال احد مفكري الهنود بعد ان اطلع على كتاب لاحد مشاهير ساسة الانكليز (اللورد بريس) عنوانهُ « الديمقراطية الحديثة » ما يأتي : « ليست الديموقراطية سوى فكرة خيالية او مثال سامٍ لا يصير حقيقة الا حين يأتي ملكوت الله على الارض كما هو في السماء » . اذن يجب ان نتوخى في مساعينا ما هو اشد رسوخاً من الديمقراطية

اتى زمن كنا فيهِ نظن اننا ذهبنا الى بلدان الشرق لنلبسها ثوب المدنية الغربية واتذكر خطاباً القاهُ احد كبار الصحافيين المسيحيين منذ عشرين سنة جعل محور كلامهِ فيهِ على ابيات شعرية هذا معناها:

« من ظلام الليل يتدرج العالم الى النور وقد انبثق فجر النهار في كل مكان » وكان جل ما تضمنهُ خطابهُ تعداد ما راهُ من آثار المدنية الغربية في بلدان الشرق — الترمواي الكهربائي في بومباي والمحاريث الاميركية في افريقيا وبدلات السهرة الرسمية في اليابان -- فاتخذ هذه المذكورات دليلاً على « انبثاق فجر النهار في كل مكان » . اقول بكل حرية ضمير اني لا اريد ان احرك ساكناً البتة في سبيل الباس الشرق مدنية الغرب ولكني اعتقد اني مستعد لان اقدّم حياتي عن طيبة خاطر في سبيل الباسهِ ثوب المسيحية الحقيقية

وهنا يجب التصريح بمنتهى الوضوح ان المدنية الغربية والمسيحية ليستا لفظتين مترادفتين فقد راينا في الحرب ان جانباً كبيراً من مدنيتنا لا يزال خاضعاً لسلطة مبادئ وثنية . وكأنَّ هذه الحرب مكنتنا من مشاهدة العالم « بعد رفع غطائهِ عنهُ » — كما قال احد شعراء الانكليز . فوجدنا في قعرهِ شبح الوثنية القديمة المخيف لا يزال ينظر الينا شزراً ولا يزال ذلك الماضي الوثني صاحب الصولة الفعلية على ما استتر من حياة مدنيتنا اللامعــة الظاهر ولو كنا نرى مدننا الحديثة بعد رفع الغطاء عنها لزال منا كل تفاؤل بالخير من جهة المستقبل . وخلاصة القول ان الوثنية ليست شيئاً نستطيع الاشارة اليهِ على الخارطة ونقول هي هنا او هي هناك . فهي ليست شيئاً جغرافياً بل هي امر روحي وهنالك

متسعات من الفكر والنيات والروح لا تزال وثنية في شطري العالم الشرقي والغربي . فالوثنية قد تكون وثنية شرقية وقد تكون وثنية غربية

ولا يوجد حتى الان امة يحق تسميتها امة مسيحية . ان هنالك بعض الافراد وبعض الجماعات ممن تخلقوا بالمسيحية ولكن ليس هنالك مجموعة حياة شعب باسره موسسة على قاعدة نظرية المسيح . اننا لسنا الا متنصرين تنصراً جزئياً . ولا اعني بهذا اننا لا نقدر ما تم من انتشار المسيحية حق قدره بل نشكر الله عليهِ . ولا نحن نغمض اعيننا عن الحقيقة الناصعة وهي ان مدنيتنا افضل مدنية توصل اليها الجنس البشري ولكننا لا نقيس ذواتنا بذواتنا بل في نور شخصية المسيح الباهر

اننا نود ان يحتفظ الشرق بنفسيتهِ وبغير ذلك لا يمكن ان يأتي بشيء جديد . لم نذهب الى الشرق لنطليهُ من الخارج بطلاء المدنية الغربية او لنجعل منهُ نسخة باهتة عنا . كلا بل يجب ان نتوخى ما هو ابعد غوراً من ذلك

وكذلك لم نذهب الى الشرق لنعطي شعوبهُ نظاماً اكليريكياً او لاهوتياً مسبوكاً في قالب جامد لا يقبل التكييف ونقول لهم خذوهُ بكاملهِ او لا تأخذوا شيئاً منهُ بل ذهبنا لنهديهم الى يسوع . لان يسوع

هو الانجيل وهو ذاتهُ البشارة الطيبة · في اول عهد المسيحية كان دعاتها يكرزون بيسوع وقيامتهِ · الا انهُ كما ان النهر في مسيلهِ يتلون بلون التربة التي يسيل فيها كذلك المسيحية خلال جريانها في تربات الجنسيات والامم المختلفة تلونت بالوان عقليات تلك الامم · وقد زدنا اموراً عديدة على جوهر الرسالة الاصلية الذي هو يسوع · بعض هذه الامور مما يستحق ان يعيش لانهُ صادر عن الحقيقة وبعضها لا يحتمل صدمة نقلهِ الى تربة غريبة — شأن كل الاحياء التي تصاب بصدمة اذا نقلت من تربة الى تربة او من اقليم الى آخر

مثال ذلك اني سمعت بعض مشاهير الواعظين الغربيين ممن زاروا الشرق والقوا فيهِ خطباً كانت تترجم الى لغة السامعين وكانت النتيجة في الغالب سيئة للغاية لانهُ بعد ان نزعت من تلك الخطب الزخارف اللفظية والبيانية لعدم امكان ترجمتها من لغة الى اخرى لم يبقَ فيها بقية كافية من الافكار القيمة يستطاع نقلها الى اللغة الاخرى

وبعض انظمتنا الكنسيــة التي شيدت على اساس جدلي تفقد معناها اذا نقلت الى بيئة تختلف اختلافاً تاماً عن البيئة التي نشأت فيها · اما يسوع فهو عام شامل يستطيع ان يتحمل صدمة النقل الى تربة غريبة لانهُ يضرب على اوتار قلب البشرية عامة

لنا ان نعرض مدنيتنا وانظمتنا الكنسية على الهند لتأخذ منها ما

يوافق غرضها ولكنا لا نصر على هذه · الا اننا نعرض لديهم المسيح ونحثهم على قبولهِ وتفسيرهِ بواسطة عقليتهم وحياتهم وعندئذٍ يكون تفسيرهم لهُ تفسيراً مباشراً حيوياً

وان كانت وجهة النظر هذه تمس شعورنا الطائفي او تجرح كبرياءنا فانها تقوي مسيحيتنا

ان لم يكن هذا غرضنا من الذهاب الى الهند فما غرضنا اذاً ؟ اننا نعتقد ان هنالك ثلاث حاجات جوهرية يحتاج اليها الشرق والغرب على السواء : اولها مثال اعلى نترقى اليهِ الاخلاق والسجايا وثانيها حياة حرة تامة وثالثها الله سبحانهُ وتعالى واننا نعتقد ان يسوع يسد هذه الحاجات الثلاث

يُحكم على كل نظام من نتائجهِ او ثمارهِ فالنتيجة هي المحك · فما هو الامر الذي نريد ان ينتج عن اعمال مرسلياتنا ؟ يمكننا تلخيص النتائج التي كانت ترمي اليها الانظمة الفلسفية والمعتقدات المختلفة في ما يلي : قالت اغريقية « كن معتدلاً واعرف ذاتك » وقالت رومية « كن قوياً واحكم ذاتك » وقالت الكنفوشية « كن فائقاً وصلح ذاتك » · وقالت الشنتوية ديانة اليابان « كن اميناً واكبح ذاتك » وقالت البوذية « ازل الاوهام عن ذهنك ولاشِ ذاتك » وقالت الهندوسية « اعتزل واغرق ذاتك في اللانهاية » وقالت الاسلامية « كن خاضعاً

واثبت ذاتك» وقالت اليهودية « كن قدوساً و كيّف ذاتك » وقالت المادّية الحديثة « كن مجتهداً ومتع ذاتك بما تطلب » . وقال المولعون بالفنون الجميلة من ابناء العصر الحديث « كن واسع الفكر وهذب ذاتك» . اما المسيحية فتقول « تشبه بالمسيح وابذل ذاتك » . فان كان غرض المسيحية وباعثها وبالتالي غرض المرسليات المسيحية وباعثها انتاج سجايا شبيهة بسجايا المسيح فليس لي ما اعتذر بهِ عن وجودي كمرسل مسيحي لاني اعرف ان لا شيء اسمى واجدر بالله وبالانسان من مشابهة المسيح

اقول "لله" . لاني اعتقد انه ان كان الله مثل المسيح فهو اله صالح يمكن الاتكال عليهِ والثقة بهِ وان شكوك العالم ليست عن المسيح بل هي عن الله . فان الناس حين يرون الزلازل تبيد الابرار والاثمة على السواء ويرون الاطفال الابرياء يقاسون العذاب صنوفاً من امراض قبيحة لم يجلبوها هم على انفسهم يتحيرون ويتساءلون أيوجد اله صالح فوق هذا الكون ؟ . ولكن الفكر المضعضع المرتاب يلتفت الى يسوع بطمانينة ويقول « ان كان الله مثل هذا فهو اله حق » ونحن كمسيحيين نقول ان الله لكذلك وانهُ كالمسيح في سجيتهِ . نقولهُ دون تردد ولا تاويل ولا تلعثم في اللسان . نعتقد ان الله هو يسوع في كل مكان وان يسوع هو الله هنا — انهُ حياة الله البشرية

ان كان الله يعطف على الاطفال كما كان يسوع يعطف عليهم ويهتم اهتمامهُ بالابرص والمنبوذ والاعمى وان كان قلبهُ يشبهُ ذلك القلب الذي انكسر على الصليب فاني لا احجم عن ان اقدّم لهُ قلبي بلا تحفظ ولا تردد

لو اجتمع اكبر اصحاب العقول والنفوس بين الناس واخذوا يشحذون قرائحهم ليتوصلوا الى معرفة صفات الاله الذي يودون ان تكون لهُ سيادة الكون لوجدوا ان صفاتهِ الادبية والروحية تتخذ صورة شبيهة بصورة ابن الانسان · وان اعظم بشارة أُعلنت للجنس البشري هي البشارة بان الله شبيه بالمسيح · ان اعظم خبر نستطيع اذاعتهُ على العالم غير المسيحي هو هذا لا سواهُ : «ان الله الذي تعرفون عنهُ شيئاً غير جليّ ولم تعرفوا حقيقة صفاتهِ لهو مثل المسيح» · ولقد شاهدت مراراً امارات الدهشة وعدم التصديق تعلو وجوه الناس في الهند حين يصارَحون بهذه الحقيقة ولكن عدم التصديق يزول حين يفكرون ان الله يجب ان يكون كذلك ثم يتدرجون الى الفكرة الاخرى وهي انهُ كذلك في الحقيقة

قال احد نوابغ الهندوس : «اني قد طرحت جانباً كل ما كنت اعتقده عن الحياة المستقبلة ما عدا الخلود وتناسب صفات الله بعضها مع بعض» اما هذا التناسب فقد اثبتهُ لهُ يسوع اذ قال لي مرة عنهُ « ان

يسوع هو اسمى تعبير عن الله رايناه ُ » وان ذلك التناسب التام في صفات الله يظل امراً وهمياً غير ملموس حتى يقرره ُ المسيح في النفس فلا يزول منها

ثم اني لا اعرف للانسان درجة يستطيع بلوغها اسمى من كونهِ شبيهاً بالمسيح ولا نعتاً للاخلاق في اية لغة اشرف من « شبيه بالمسيح » ولا يمكن ان تمدح الطبيعة البشرية بمدح ابلغ من ان يقال عنها انها شبيهة بالمسيح . حتى ان الهند ، وهي بلاد غير مسيحية ، لما شاءت ان تطرىء افضل ابنائها وهو غاندي لم تجد نعتاً تنعته ُ بهِ اسمى من ان تنعته ُ بقولها انه ُ شبيه بالمسيح

واننا بملء التروي نعرض هذا المثال الاعلى امام فلاسفة العالم ورجال السياسة وعلماء الاخلاق والمعلمين ورجال الدين المفكرين ونقول لهم : « ايها الاناس الاخوة . ان هذا هو ما نريد التوصل اليهِ اننا نعتقد انه ُ جدير بجهوداتنا ان تثمر اخلاقاً شبيهة بالمسيح هل تعرفون شيئاً اشرف او افضل ؟ هل تعرفون مرمى اسمى من هذا ؟ هل تصورتم انموذجاً لتطبيق الحياة عليهِ يفوق هذا الانموذج؟ ان كنتم توصلتم الى شيء كهذا فارونا اياه ُ واننا نشهد الله علينا اننا نترك هذا ونتبع الآخر» . اعتقد ان شفاه العالم تخرس وتصمت امام مسئلة وجود مثال افضل من المسيح في ميدان الاخلاق ليس من يقف

الا يسوع وحده وفي ساحة تنازع البقاء بين المثل العليا والمبادىء السامية التي يصح ان تسود النفس لا يفوز الامثال المسيح ومبادئه لانها الافضل والانسب للبقاء — ان الناس في حاجة الى هدف تصوّب اليهِ الاخلاق ويسوع هو ذلك الهدف

الا ان الناس في حاجة الى شيء آخر سوى الهدف فهم يحتاجون الى حياة حرة مفعمة بالقوة لان حياتنا هذه هي حياة ذميمة كسيحة مشوهة · قالت سيدة يهودية في الهند لمولف هذا الكتاب « انك تخاطب هولاء القوم عن الديانة وما يحتاجون اليهِ هو الخبز · انظر كيف ان دلائل الجوع والضنك بادية عليهم · لماذا لا تعطونهم خبزاً ؟ » نعم ان الهند تحتاج الى الخبز وتحتاج اليهِ حاجة شديدة · ولا يستطيع احد ان يقف في وسط فقر الهند الهائل — حيث لا يزيد متوسط دخل الفرد في تلك البلاد عن خمس سنتات (اي غرش صاغ) يومياً وحيث يوجد اربعون مليوناً من الخلق لم يعرفوا معنى الشبع ولا يعرفونهُ من مهدهم الى لحدهم — دون ان يشعر بالحاجة الشديدة الماسة الى مساعدة الهند في الحصول على الخبز وعلى كثير منهُ وباسرع ما يمكن · ان مدارسنا الصناعية وحقول التجارب الزراعية وبنوك التعاون والمشاريع الاخرى العديدة التي ترمي الى تحسين الحالة الاقتصادية كلها تدل على اننا شاعرون بالحاجة الى اعانة الهند على

تحصيل قوتها

ولكن عالماً اقتصادياً خالي الغرض قد توصل بعد درس احوال الهند الى نتيجة اعرب عنها بقولهِ «ان كل بلية اقتصادية في الهند يكون مصدرها في الغالب عادة دينية او اجتماعية». وفي كل مرة تحاول ان تنهض بالهند اقتصادياً تعترضك احدى عاداتهم القومية فتخيب مسعاك . ولهذا فمع اني اشكر لله كل مسعى غرضهُ مساعدة الهند في سبيل زيادة الاقوات فيها فاني اعتقد ان افضل طريقة نستطيع بها اعطاء الهند حاجتها من الاطعمة هي ان نعطيها المسيح

وفضلاً عن ذلك فاني اود ان ارى الهند متمتعة بالحرية السياسية وهذا لا يعني انها تنفصل عن الامبراطورية البريطانية بل بعكس ذلك اني شخصياً اتمنى ان تبقى ضمنها . غير ان الهند ان لم تكن بذاتها متولية تقرير امورها فلا تستطيع ان تقوم بقسطها الحقيقي من خدمة العالم . ولقد اصاب سيلي في قولهِ انهُ لا بد من ان ينشأ الانحطاط الادبي في كل شعب يخضع لغيره . ومع اني اعتقد ان انكلترا قد اعطت الهند افضل حكم يمكن لامة ان تعطيهُ لامة اخرى فاني على رغم ذلك اوافق الوطنيين في ما يعتقدونهُ اي ان «الحكم الجيد لا يغني عن الحكم الذاتي». اني اود ان ارى الهند واقفة على قدميها لذاتها . ولكن القيود الحقيقية التي تغل الهند هي من الداخل لا من الخارج واذا

تخلصت من تلك القيود فحريتها من الخارج تصبح مضمونة في الحال

سألت ماهاتما غاندي على اثر الافراج عنهُ من السجن ماذا كان في رايهِ سبب فشل حركتهِ حين وجوده في السجن فاجاب برد السوال عليّ وسألني ماذا اظن انا انهُ كان السبب · قلت ان السبب يرجع الى عقلية الشعب او فكره · فعقل المسلم قد استولت عليهِ فكرة « القضاء والقدر » وان كل امر مقدر بسابق ارادة الله · فاذا عرضت لهُ صعوبة قرع جبينهُ وقال « ماذا اعمل هذه قسمتي » او « بختي سيء » ومن الجهة الاخرى تجد ان في اعماق ذهن الهند فكرة « الكارما » اي التكفير بالعمل عن ذنب سابق فهم يعتقدون ان الحياة التي نحياها الان انما هي نتيجة اعمال سابقة صدرت منا في طور تقمصنا السابق · فاذا عرضت للهندوسي مشكلة يقول « ما العمل اني اقاسي نتائج وجود سابق » ؟ وعليهِ فافكار شعب الهند مؤسسة على الاعتقاد بالقضاء والقدر فافكاره هي التي تشل حركتهُ · وقد اعربت لغاندي عن رايي ان ابناء قومهِ لما كانوا تحت تأثير شخصيتهِ كانوا كمن استولت عليهم قوة ساحرة ازالت من اذهانهم فكرة القدَر والكارما واصبحوا يستطيعون الابتكار وتطهرت حياتهم القومية فاستطاعوا عمل المستحيل · ولكن لما أُخذ من وسطهم عادت اليهم افكارهم الاولى الكامنة في نفوسهم فقعدوا عن الحركة تجاه ما لقوه من الصعوبات ولهذا فشلت الحركة · ثم قلت لهُ

ان هنالك مبدأ ثالثاً للحياة يعرفهُ هو وقد مارسهُ بكيفية مدهشة الا وهو الصليب . فالصليب لا يعرف معنى الانغلاب لانهُ هو انغلاب ولا يستطيع احد ان يغلب الانغلاب كما انك لا تستطيع ان تكسر ما هو مكسور فالصليب يبدأ بالانغلاب ويتخذه طريقاً للحياة ولكنهُ في موقفهِ هذا يحرز الانتصار . وهو لا يسلم انهُ فشل لانهُ يحول كل عائق الى اداة ويجعل من كل صعوبة باباً ومن كل صليب وسيلة للفدى . وكذلك كل شعب يجعل الصليب محوراً لافكاره وحياتهِ لا ينغلب بل يبقى لهُ نور ذلك الامل الذي لا ينطفئ بان صباح القيامة يتلو كل جلجثة . ولهذا قلت لغاندي اني اعتقد بعد التروي واعمال الفكر ان الهند لا يمكن ان تنهض نهوضاً دائماً ما لم تزل من اذهان ابنائها فكرتا القدَر والكارما وتحل محلها فكرة الصليب

قال الدكتور تاغور في هذا المعنى « ان الامور في الهند تصل الى حد معين ثم تقف عندهُ » واني اظن ان سبب هذه الحالة هو ما اشرت اليهِ آنفاً . فان كل سيئة اقتصادية او اجتماعية او قومية ترتكز على عادة مقيِّدة . ولهذا اعتقد ان خير طريقة لتحرير الهند اقتصادياً واجتماعياً وسياسياً هي ارشادها الى المسيح

قد ابدت الهند في كل تاريخها مقدرة على اقتباس الافكار الجديدة ولكنها لم تظهر مقدرة على تمحيصها ولهذا غدت حياتها الفكرية مثقلة

بأثقال تكاد تسحقها . ولكن الحياة الفكرية كالحياة الجسدية تتوقف على التمحيص والافراز كما تتوقف على الامتصاص . والهند في حاجة الى قوة فعالة تساعدها على التمحيص والتطهير وترك ما هي متشبثة بهِ مما هو ضارٌ

« ان نساء احدى الطبقات الحقيرة في كوجرات يطوقنَ ارجلهنَّ وسواعدهنَّ بطوق جديد من الشبهان كلما مر بهنَّ عام من حياتهنَّ فلا يبلغنَ شقة كبيرة من العمر الا وقد اصبحنَ مثقلات تنوء اجسامهنَّ باحمالها الموقرة التي لا يستطعن التخلص منها طول الحياة بل يسرنَ الى اعمالهنَّ اليومية متهاديات تحت هذه الاعباء وهكذا الى ان يسرنَ اخيراً في الطريق المتقدة التي تؤدي بهنَّ الى حضرة الاله « ياما » ديان النفوس . بذلك قضت العادة عليهنَّ

« رأيت هندنا القديمة الايام كهذه النسوة مثقلة بقيود ثقيلة وخرافات تستنزف حياتها ولم يكد يبقى لها من القوة ما يمكنها من النهوض لتقف بين الامم

« رفعت عينيها وقد ظهرت فيهما دلائل التعب ولكنهما لم تخلوا بعد من القوة الروحية ثم نظرت اليّ ملياً وكأنها تقول

« يا ابني بالتبني ان كان حبك صحيحاً فحل عني هذه القيود والاغلال وانزل عن كاهلي هذه الاثقال وحررني لاني اريد ان

اخدم . ولكن ترفق يا بنيَّ في حل هذه القيود لانها على طول الالفة قد اصبحت جزءًا من جسدي ؟

« فرفعت نفسي الى سيدي وقلت يا ربي امنحني موهبة اللمس اللطيف القوي الذي يمكنني من ان احل قيود هذه البلاد دون ان انسى ان يدك المثقوبة بالمسامير حلت عقال نفسي وفكت عنها قيود الشهوات والانانية وخولت نفسي السعيدة ان تكون حرة طليقة »

اني اعتقد ان القوة الفعالة التي تحتاج اليها الهند هي المسيح . كما قال الرسول « فان حرركم الابن فبالحقيقة تصيرون احراراً » . الهند تحتاج الى حياة حرة تامة والمسيح هو الحياة

وفوق هذا فان اشد حاجة يشعر بها القلب البشري في اعماقهِ في الشرق وفي الغرب انما هي حاجتهُ الى الله والشعب الهندي هو اشد شعوب الارض قبولاً للانفعال الديني . ولكن ما استطيع استنتاجهُ من درسي لاخلاقهِ يجعلني اعتقد ان هذا التاثير من نوع الانفعال الوقتي لا الامتلاك الدائم

وقد تمثلت لي هذه الحقيقة ملخصة في مشهد ارويهِ للقارىء . كنت مساء ذات يوم جالساً مع فيلسوف شيخ جليل نتمتع بنسيم المساء البليل وكان جليسي من اسمى طبقة بين المفكرين الهنود متعمقاً في فلسفة بلاده وذا معرفة وافية بفلسفة الغرب فاخذنا نبحث ونتناقش

في مواضيع مختلفة عن الله والحياة والقَدَر وفي اثناء الحديث رفع جليسي يده وامرها يبطءٍ على لحيتهِ الطويلة وقال « اني انا هو الحقيقة القصوى ولكني لا اعرف ذلك بعد » . واذ تأملت في معنى كلماتهِ خيل الي كأني رايت امامي الهند ذاتها متجسمة وقد نطقت بلسان ذلك الشيخ ما رددتهُ في القرون الماضية « اني انا الحقيقة القصوى » ثم اردفت على ذلك قولها « ولكني لا اعرف ذلك بعد »

بعد بضعة ايام رايت ذلك الفيلسوف الشيخ ثانية وكان مثقلاً ومغتماً فافصح لي عن سبب غمهِ وشكواه بقولهِ : « ان بلادي ليست حرة وهي منقسمة ومشلولة الحركة ولا استطيع ان ارى باباً للامل »

وفي اليوم الثاني زرتهُ ثانية فوجدتهُ متهللاً فقال لي « آه ان قلبي مفعم سعادة اليوم . فقد كانت الصلاة التي علمنا اياها . . . (فلان) ترنّ في ذهني طول النهار وهي 'انت يا رب ابونا فعلمنا ان نعرفك كابينا ' . هذا سر سعادتي وسلامي اليوم وهذا ما تحتاج اليهِ بلادي »

ولكنهُ قبل ان يفرغ من حديثهِ عاد فقال لي بلهجة الاسف « يا ليت هذا الشعور يدوم . ولكنه كما يظهر لن يدوم ! »

وما قالهُ الفيلسوف يمثل حالة الهند اجمالاً . فكاننا نسمعها تقول « انا هي الحقيقة القصوى . . . ولكني لا اعرف ذلك بعد » ثم اذ لا

تجد في ذلك الجوهر غير الشخصي الذي تسميهِ الحقيقة القصوى مقراً ترتكز عليه ولا مصدراً تستمد منهُ القوة تعود الى اليأس والقنوط ثم تأتي لحظة فيها يتبلج لها النور فترى الاب لمحة فتقول « ها قد نلت السلام اليوم . هذا ما تحتاج اليهِ بلادي » ثم تعود فتردد الشكوى من ان هذا الشعور لا يدوم

فما هو الذي ينقصها ؟ لا ينقص الهند المواهب الفلسفية ولا الشعور الروحي لان شعبها غني في ذلك ولكنها حين تصل الى النقطة التي تدرك بها هذا الشعور وتود ان تحتفظ بهِ وتتمتع بما يولدهُ في النفس من الهناء والسرور تجد انهُ يروغ منها ويختفي . أليست هنالك حاجة الى المسيح ؟ ان الهند تسأل كما سأل التلميذ فيلبس « أرنا الاب وكفانا » يجيبها المسيح «من رآني فقد راى الاب » أليس هو الذي يجعل تلك الرؤيا الوقتية التي لمحت بها الاب السماوي اختباراً ثابتاً دائماً في حياتها يمنحها قوة تزيل ما يعتريها من اليأس تجاه الاحوال المحيطة بها ؟ اني اقول من اعماق قلبي ان المسيح هو الذي يفعل ذلك وقد ثبت بالاختبار أن الذي يتعمق في معرفة المسيح في وجدانهِ يتعمق في معرفة الله وإني كلما ازددت معرفة يسوع ازدادت معرفتي بالله الاب . اقول هذا لا بروح جدلي بل كشهادة شخصية بسيطة اوديها

لو كان ممكناً لاي شعب في المسكونة ان يشاهد الله منفصلاً عن

المسيح فللشعب الهندي الحق بان يدعي ذلك فقد بحث وفتش عن الله الى حدٍّ لم تبلغهُ امة اخرى · ولو كانت المثابرة على البحث والثبات فيه كافية للاهتداء الى معرفة الله معرفة جلية تملا النفس سروراً لحقّ للشعب الهندي ان يدرك تلك الغاية

ولكن ما يوثر في نفسي اعظم تأثير حين اجول في بلاد الهند وادرس احوالها هو عدم وجود ذلك الشعور البهيج · قال لي احد الهندوس بعد سماعه احدى خطبي : «انك اجرأ من شاهدت · تقول انك وجدت الله ولكني لم اسمع احداً قبلك يقول ذلك»

انهُ لم يكن لي اقل فضل في ذلك لانني تفرست في وجه يسوع فشاهدت فيهِ الاب · ولكن الهند لم يتح لها ان تتفرس في وجه يسوع ولهذا لا تستطيع ان تدرك روءيا الاب الا لمحة ثم تزول وتايداً لهذا القول اورد مثالاً مما كتبه صديقي هولند في هذا الشان · فقد كان جرى لهُ حديث جدلي مع قاضٍ هندي كان هذا فيهِ صاحب الكفة الراجحة في الجدل فقال لصديقي «بعد هذا وذاك ليس من فرق كبير بيننا وبينكم · انتم المسيحيين تهتدون حين تجدون الله في المسيح واما نحن الهنود فنهتدي حين نجد الله في ذواتنا»

فاجابه هولند «نعم ولكن هنالك فرقاً وهو ان حوادث الاهتداء كثيرة في البلاد التي يعرَف فيها المسيح واستطيع ان اذهب واياك

لزيارة المئات من اصدقائي المسيحيين في هذه المدينة من هنود وانكليز . فاذا حادثتهم تجد فيهم ادلة على النور والمعرفة والالهام التي كنا نتكلم عنها ولكني لا اعرف فرداً واحداً من تلامذة دين الهندوس يحملني على الظن بانهُ قد وجد تلك الغايات »

فافحم ذلك القاضي وخفت لهجتهُ وقال بهدوء « انك مصيب اني اعرف من الهندوس والبرهميين والثيوصوفيين وغيرهم اكثر ممن تعرفهم انت ولكني لا اعرف ان واحداً منهم وجد تلك الغاية المنشودة »

ولكن المسيح لا يمنح الناس تلك الرويا فقط بل يضع امامهم هدفاً يرمون اليهِ في الرقي الخلقي وحياة حرة مفعمة قوة . فهل في الكون شخص آخر يستطيع ان يعطي الناس هذه الامور الثلاثة ؟ وهل يوجد احد آخر يمنحهم اياها بالفعل ؟

سألت مرة احد الهندوس ما رايهُ في المسيح فاجاب بترو « ليس هنالك شخص آخر يسعى سعياً جدياً في سبيل امتلاك قلب العالم سوى يسوع المسيح . وليس سواه في الميدان »

ولا نستثني الشخص الذي اعلنت مسز بيزانت* انهُ سيكون مرشد العالم ومعلمهُ . وهو شاب برهمي اسمهُ كريشنامورتي تدعي

* رئيسة الجمعية الثيوصوفية العالمية. ومعتقدات هذه الطائفة ماخوذة من ديانة الهندوس

هذه السيدة ان المسيح تجسد فيهِ (وبهذا تعترف عن غير قصد منها بتفوُّق يسوع) وقد عرض هذا المدعي على العالم انموذجاً من تعليمهِ وقوبل بالاحترام الذي يقرب من التأليه في بلادهِ وفي بعض بلدان المغرب . وقد حادثتهُ مرة حديثاً طويلاً فوجدت فيه شاباً ذا مواهب عقلية متوسطة ومزاج محبوب اما مواهبهُ الروحية فدون الوسط وقد سمعتهُ مرة يحلف ويشتم بلغة انكليزية فصيحة . وخرجت من لدنهُ وانا اقول في نفسي ان كان هذا مناط آمالنا للتخلص من ورطتنا فليشفق الله علينا

وعليهِ فليس احد نستطيع ان نرفع بانظارنا اليهِ سوى المسيح . وليس لنا ان نختار الا بينهُ وبين العدم . قال مثيو ارنولد* « جرب من الطرق المودية الى السلام كل ما يخطر ببالك تجد ان لا طريق تودي اليهِ الا طريق يسوع وهذه الطريق تودّي اليهِ بلا ريب » فاي شيء لنا اذاً في المسيحية لا نجدهُ في الاديان الاخرى ؟ سألني هذا السوال بعينهِ احد اتباع طريقة « آريا ساماجي » قال « اي شيء عندكم في ديانتكم غير موجود في ديانتنا ؟ » وتوقع اني اتجادل واياه عن مبادىء ادبية او فلسفية عندنا وليست عندهم . اما انا فاجبتهُ : « هل اجيبك بعبارة واحدة ؟ ليس عندكم المسيح »

* شاعر انكليزي شهير عاش في القرن الماضي وتوفي في العقد التاسع منهُ

هذا هو النقص العظيم في الاديان غير المسيحية · اننا نعترف بما في آدابهم وفلسفتهم من التعاليم الجميلة ونشكر الله باخلاص عليها ولكن ما ينقصهم اكثر من كل شيء وما لا يمكن لهم تعويضهُ انما هو المسيح · فليس عندهم مسيح ولهذا ينقص حياتهم اهم حاجة لها

اوضح هذه الحقيقة الزاهد سوندر سنغ — المتصوف المسيحي الكبير — في حديث جرى لهُ مع استاذ اوربي يدرّس فلسفة الاديان في احدى كليات الهندوس · وكان هذا الاستاذ « لا ادرياً » في معتقده من جهة الدين المسيحي وكان غرضهُ من محادثة سوندر سنغ ان يبين لهُ خطأهُ بتركه دين ابائهِ واتباعه دين المسيح · فسألهُ « ماذا وجدت في المسيحية مما لم تجده في ديانتك القديمة ؟ »

اجابهُ — « وجدت المسيح »

قال الاستاذ متضجراً — لانهُ كان يتوقع حجة فلسفية — « نعم اعرف ذلك ولكن ما هو التعليم او المبدأ الخاص الذي وجدتهُ ولم تكن وجدتهُ قبلاً » اجاب سنغ «ان ذلك الشيء الخاص الذي وجدتهُ هو المسيح »

ولم يستطع ذلك الاستاذ مع كل ما حاولهُ ان يزحزح هذا المتنصر الغيور عن مركزه فذهب خائباً فشلاً ولكنهُ ذهب مفكراً ولسان حاله يقول: لقد اصاب الزاهد · ان الاديان غير المسيحية

تحتوي على امور عديدة جميلة ولكن يعوزها المسيح

ورب معترض يقول « او ليست امورهم على ما يرومون بدون المسيح ؟ » وجوابي على هذا الاعتراض هو اني لا اعرف واحداً لا في الشرق ولا في الغرب سائرة اموره على ما يروم بدون المسيح . المسيح هو الحياة فهو ضروري للحياة

جاءني برهمي سراً ذات يوم وقال « ان الناس يلتذون بخطبك كثيراً . وانما اقترح عليك اقتراحاً واحداً وهو انك ان كنت تكرز بالمسيح كطريق لا كالطريق الوحيدة فلا بأس بذلك بشرط ان تذكر ان هنالك طرقاً اخرى فان فعلت هذا تجد بلاد الهند كلها تحت قدميك » فاجبته شاكراً له اهتمامه لكني قلت اني لا ابتغي الشهرة والمسألة ليست مسألة ما يوافق ان اقوله بل مسالة ما هي الحقيقة والواقع اني حقيقة كنت اسر غاية السرور لو استطعت ان اقول ان هنالك شخصاً آخر غير المسيح يستطيع خلاص الناس ولكني لا اعرف الا واحداً استطيع ان اسميه باسم المخلص . ولا اجرؤ على استعمال هذا اللقب بلا قيد ولا تحفظ الا ليسوع المسيح . جاءني احد الهندوس وقال لي « انك مسيحي واسع العقل » قلت له « يا اخي اني اضيق الناس عقلاً من جهة واحدة اما فيما سواها فانا واسع العقل ففي ما يتعلق بالحاجة العليا التي تحتاج اليها الطبيعة البشرية انا ضيق الفكر جداً حتى اني

لا ارى لها جواباً الا في يسوع » وفي الحقيقة ان اعتقادنا في يسوع هذا الاعتقاد هو الذي يمكننا من النظر الى الانظمة غير المسيحية بشيء من التساهل او سعة النظر الا ان الحقيقة تسوقنا الى يسوع وترينا فيهِ حاجة الحياة القصوى في كل مكان

ولهذا فنحن ننكر ما ينسبونهُ الى المرسليات الدينية من التعرض لشؤون دولية · فليس في عملها ما هو من هذا القبيل اكثر مما كان في عمل كوبرنيكوس حين اكتشف ان الارض تدور حول الشمس واعلن اكتشافهُ للعالم فانهُ احدث انزعاجاً وتهيجاً لدى كثيرين ممن كانوا يظنون بان الارض هي مركز الكون ويعتبرون هذه النظرية عقيدة مقدسة · ونحن نرى الآن ان ما حدث من التشويش بسبب اكتشاف كوبرنيكوس لم يكن شيئاً يذكر في جانب ما يحدث من التشويش الفكري في كل مكان حين تكون افكار الناس خارجة عن المحور الصحيح الذي يجب ان تدور عليهِ · اننا نعلن للامم الوثنية اننا قد اكتشفنا مركز العالم الادبي والروحي في شخص يسوع · وهذا الاعلان يسبب امتعاضاً واضطراباً وشيئاً من الفوضى الفكرية · الا انهُ حين يهتدي الناس الى المركز يجدون ان عالماً روحياً منتظماً يتولد من تلك النفوس · اما موقفنا تجاههم فليس موقف اكراه لهم على ان يقبلوا هذا الاهتداء بل هو موقف المشاركة لهم فيما نحن حاصلون عليهِ

ثم اننا ننكر ما ينسب الينا من السعي وراء زيادة عدد الاعضاء في كنائسنا فحسب ، لاننا نطلب الصفات والاخلاق لا العدد

اما ما يقال عن اعمال المرسليات انها ليست سوى اشباع لنعرة جنسية او انها تمهيد للامبيريالزم والاستغلال المالي فهذا نرد عليهِ بقولنا ان يسوع هو المانع الوحيد الذي يقف في سبيل الاستغلال الاقتصادي والسياسي في الشرق · وهو يزعج المتغلبين في كل مكان لان تأثيرهُ قد تناولهم فلم يعودوا يستطيعون ان يمدوا ايديهم للتملك والاستغلال بضمير هادىء كما كانت الحال قبلاً · وفوق ذلك كلهِ ان ابن الانسان يرتفع فوق التطاحن والتباغض الشعبي · فان التعصبات القومية تذبل تحت لمس انامله وهو صديق جميع الناس على اختلاف اجناسهم ونحلهم

واذا قيل لنا ان الهند انجبت رجالاً عظماء كغاندي وتاغور وانهُ من الوقاحة ان نذهب نحن الى الشرق لنرشد امة كهذه نجيب اننا نشكر لله عظمة ابناء الهند هولاء ونفتخر بهم كما اننا نشكر لله ما ليسوع من التأثير في تكوين اخلاق هولاء الافراد وتقويمها وجعلها عظيمة

اما ما يقال عن العبارة التي تتضمن امر المسيح لتلامذتهِ بالذهاب الى كل العالم والتبشير باسمهِ و كونها مقحمة في مكانها بايدي النساخ فجوابنا على هذا القول ان هذا الراي لم يثبت بعد وانهُ ولو ثبت فالكنيسة المسيحية لا تستطيع التنصل من مسؤولية التبشير بالمسيح لجميع الامم

فان هذه المسؤولية مستندة لا الى امر واحد بل الى روح الانجيل كلهِ والى المسيح نفسهِ وسواء أفرض هذه المسؤولية في امر ختامي لتلاميذه ام لم يفرضها فان الواجب علينا ان نشارك الامم في معرفته لان حاجة الحياة الانسانية تقتضي ان نقدم لها مخلصاً كيسوع . فالامر القائل «اذهبوا الى كل العالم و بشروا بالانجيل» هو صادر عن اعماق حاجة القلب البشري وان سكتنا عنهُ نحن فالحجارة — اي حقائق الحياة القاسية — تنطق . وليست الحقائق فقط تنطق وتامرنا بالذهاب الى تلك البلاد بل المسيح نفسهُ يناديا منها و يدعونا الى الذهاب لانهُ سبقنا اليها فنحن لا ناخذه اليها بل نذهب اليه فيها فقد قال في وصفهِ لليوم الاخير «لاني جعتُ فاطعمتموني عطشت فسقيتموني كنت غريباً فاويتموني . عرياناً فكسوتموني . مريضاً فزرتموني محبوساً فاتيتم اليَّ» فيجيبهُ الابرار حينئذٍ «يا رب متى رايناك جائعاً فاطعمناك وعطشاناً فسقيناك» — فيجيبهم بتلك الكلمات العجيبة التي تناثرت من فمه «بما انكم فعلتموه باحد اخوتي هولاء الاصاغر فبي فعلتم» فمن هو الذي نطعمهُ حين نطعم الجياع في الهند ؟ أذلك الرجل الهزيل الذي اراهُ امامي ؟ نعم واكثر من ذلك . ان مسيحنا هو الجائع في شخصهِ — وحين اضع الكاس على شفتي الهند المتلهبة فعلى اية شفاه اضعها ؟ أعلى شفتي ذلك الانسان العطشان الذي اراه امامي . نعم وفوق ذلك على

شفتي المسيح لانهُ هو العطشان في شخصهِ . اننا لسنا في حاجة لان ناخذ المسيح الى الهند لانهُ موجود هناك متجسماً في الحاجة البشرية الدائمة واذا فعلنا الخير لاولئك الناس فانما نفعلهُ للمسيح . فان كان في تلك البلاد وفي تلك الاحوال فكيف نستطيع نحن ان نكون خارجها ؟

وخلاصة القول اننا ذهبنا الى تلك البلاد لان السجايا التي تنطبق على سجايا المسيح هي اسمى سجايا نعرفها ولان المسيح يعطي الناس حياة حرّة مفعمة بالبركات . ولانهُ يعلن لهم الله . ولا نعرف شخصاً آخر غير المسيح يستطيع ان يمنح هذه النعم . ونعلم حق العلم انه هو يستطيع منحها

والقلب الذي تعلم محبة المسيح لا يستطيع ان يراهُ جائعاً او عطشاناً او مريضاً او محبوساً او عرياناً او غريباً في عوز اخواننا في البشرية دون ان يبادر الى اغاثتهم

ولهذا نحن لا ناخذ المسيح اليهم بل نذهب اليهِ عندهم . فهو الباعث لنا الى الذهاب وهو الغاية التي نقصد اليها بذهابنا

الفصل الثالث

تفوّق يسوع

يتوق جميع المؤمنين الى مجيء ملكوت الله ويبتهلون الى الله طالبين مجيئهُ كلما صلوا الصلاة الربانية ولكن بعضهم يتوقعون مجيء الملكوت عن طريق المشاهدة والمراقبة بحيث يستطيعون ان يشيروا اليهِ قائلين «هوذا هنا» او «هوذا هناك» فتخيب امالهم اذ يرون انهُ ابطأ في مجيئهِ — الا ان كثيرين من المسيحيين ممن اوتوا حدة البصر الروحي انتبهوا فجأة فوجدوا ان ملكوت الله حولهم وفي وسطهم وان الديانة المسيحية تمتد بالفعل الى ما وراء حدود الكنيسة المسيحية فنشاهدها في اماكن عديدة لم نكن نتوقع ان نجدها فيها · ان كان اولئك الذين ليس لهم روح يسوع ليسوا خاصته، مهما كانت العلامات الخارجية التي هم حائزون عليها، فيحق لنا ان نعكس القضية ونقول ان من لهُ روح المسيح هو من خاصتهِ ولو كان خالياً من بعض العلامات الخارجية ففي نهضة روحية كالتي قام بها يسوع يتعذر بل يستحيل تعيين حدود لها لا تتعداها · ولا يمكن حصر جميع من يشملهم تأثيرها بواسطة الاحصائيات والارقام · ولقد انبأ يسوع بذلك اذ قال ان مملكته

سوف تأتي بطريقتين عظيمتين : اولاها انها تكون كحبة خردل اي شيئاً صغيراً ينمو حتى يصير شجرة كبيرة · وهذا يشير الى نمو المسيحية الخارجي اي الى انضمام الناس الى الكنيسة المنظورة التي هي الهيئة المنظمة لتلك المملكة · والطريقة الثانية هي انها تكون «كخميرة تخمر العجين كلهُ» · وهذا يشير الى ان الحقائق والمبادىء المسيحية تخترق افكار الناس وقلوبهم بكيفية صامتة حتى تصبح نفوسهم واميالهم بتأثير المؤثرات الداخلية الخفية مشربة بروح المسيح دون ان يشعروا بهذا التغيير الجاري في داخلهم · وبهذه الكيفية يصيرون مسيحيين من الداخل

واننا نشاهد هذين الامرين يجريان فعلاً حيثما وقع تأثير المسيح ومبادئهِ وتعاليمهِ على نفسية الشرق

ولا حاجة بنا الى اطالة الكلام عن اولهما لان مملكة المسيح قد نمت نمواً خارجياً عظيماً · ففي السنوات العشر الاخيرة زاد عدد سكان الهند ١٢ في المئة بيدان زيادة المنتمين الى الكنيسة المسيحية بلغت ٢٢٫٦ في المئة · وقد بلغ معدل الزيادة في عدد المنضمين الى الكنيسة المسيحية مئة الف نفس في كل سنة من السنوات العشر الاخيرة اي نحو مليون نفس في عشر سنوات · ومعظم هولاء من الطبقات الاجتماعية المنبوذة · وهنالك ٦٠ مليوناً من سكان الهند

يعدون في نظر مواطنيهم منبوذين يتنجس من يمسهم . وقد عاشوا اجيالاً عيشة الذل والهوان الا انهُ قد دب فيهم الان روح حياة فكرية نشيطة جديدة. كانوا يسامون الخسف فلا يفتحون افواههم اما الان فقد تغيرت الحال لانهم اقتبسوا من زعماء الحركة الوطنية الذين ينتمون الى الطبقات الاجتماعية العليا طريقة المقاومة السلبية وادركوا مفعولها فشرعوا يستخدمونها ضد البراهمة انفسهم . ففي شهر اذار (مارس) الماضي (سنة ١٩٢٤) شب في الهند الجنوبية نزاع عمت نتائجهُ الامة كلها وذلك ان بعض هولاء المنبوذين ظهروا على طريق كان محظوراً عليهم السير فيها في ولاية ترافنكور احدى الولايات الهندية التي تئن اكثر من كل ولاية غيرها من شدة وطأة نظام الطبقات الاجتماعية . فالقي القبض على هولاء المنبوذين وسيقوا الى السجن وفي اليوم التالي ظهر على الطريق نفسها جمهور آخر من جماعتهم وهم مستعدون لان يساقوا الى السجن . ولا تزال هذه الحركة الان سائرة سيراً ثابتاً منذ ما يزيد عن سنة يذهب جماعة من القوم الى تلك الطريق فيلقى القبض عليهم ويساقون الى السجن حيث يقضون المدة التي يحكم عليهم بها . وحالما يفرج عنهم يعودون الى تلك الطريق ويقعدون عليها . وليس اقدر من الهنود على القعود في الطرق . وقد كان لمنظر هولاء المقاومين السلبيين وما يبدونهُ من الصمت والصبر

تأثير عظيم هزّ اركان نظام الطبقات الى اساسهِ واثار عواطف افراد الطبقات العليا حتى ان بعضاً منهم الفوا مظاهرة اشترك فيها الف رجل ساروا مشياً على الاقدام مئة وخمسين ميلاً وكانوا يعقدون الاجتماعات في كل بلدة او قرية يمرون بها و يلقون الخطب لاثارة حاسات العطف على المنبوذين ورفعوا عريضـة الى صاحبة السمو اميرة ترافانكور التمسوا فيها ان تكون جميع طرق الولاية حرة يستطيع المنبوذون كغيرهم السير فيها. وآخر انباء تلك الحركة يدل على ان ابناء الطبقات الحقيرة قد فازوا وان الطرق اصبحت حرة. فكان الفوز في هذا المعترك الصامت للفريق الذي (احتمل بالصبر) وهولاء المنبوذون قد نهضوا الان من هجوعهم الطويل وتراهم يعقدون الاجتماعات الى ساعات متاخرة في الليل يتناقشون فيها في حالتهم وفي ماذا سيكون مصيرهم الروحي. وهم يقابلون بين اديان الهندوس والاسلام والبوذية والمسيحية. ويرجح انهُ في خلال السنوات العشر او العشرين القادمة سيقر قرار هولاء القوم—الذين يكوّنون جزءًا ليس بقليل من الجنس البشري—على مصيرهم الروحي وهذا السعي الذي يسعاه منبوذو الهند من اهم الشوءون الروحية في العصر الحاضر اذ يتوقف عليهِ مصير ستين مليوناً من الخلق

ولكن هنالك حركة اخرى اكثر غرابة من هذه في الطرف

الاخر من المجتمع الهندي اعني بين اهل الطبقات العليا — يسمون الحركة السائرة بين الطبقات السفلى « نهضة العامة » . واود ان اسمي الحركة الاخرى القائمة بين الخاصة « نهضة عامة فكرية » اتجاهها نحو شخصية المسيح . وهنا اسأل القارىء ان لا يخطىء فهم كلامي فلست اعني ان اهالي الطبقات العليا يقرعون ابواب الكنائس طالبين المعمودية ولا انهم اصبحوا اشد شغفاً بانظمتنا الكنسية او بمدنيتنا مما كانوا قبلاً . ولكني اقول ان هنالك اتجاهاً فكرياً مدهشاً نحو المسيح . ومن المعلوم ان كل ما يملك وجدانك لا يلبث اخيراً ان يتملكك بكليتك ولهذا لا اكون مغرقاً ولا مبالغاً اذا قلت ان يسوع قد استولى على وجدان ارقى العقول والنفوس في بلاد الهند وهو بالتالي يستولي على العقول والنفوس

ولو طلب مني تقديم ادلة على هذا لصعب عليَّ تقديم ادلة محسوسة لان هذا التطور الفكري خفي ودقيق وليس مما يشار اليهِ بالبنان . ولا بد للواحد من ان يقف بذاتهِ في وسط تيارات الحياة المتلاطمة في الهند ليشعر بوجود تغير خفي في شعور القوم تجاه المسيحية، تغير من الكره والبغض الى الفهم والعطف ثم يتدرج الى الميل الداخلي فالتسليم والولاء . وغاية ما استطيعهُ هو ان افتح كوى صغيرة يستطيع الناظر منها ان يستنتج حقيقة الحالة الاجمالية من مشاهد متفرقة عديمة الاهمية

بحد ذاتها اذا أخذ كل منها على حدة ولكن مجموعها لا يستطيع ذو بصيرة ان يخطئ فهم مدلوله

كنت منذ بضع سنوات احادث سيدة مرسلة انكليزية فاظهرت قلقاً وقنوطاً من جهة الحركة الوطنية في الهند ونتائجها وسألت ما الفائدة من مداومة السعي في القيام باعمال التبشير في الهند ما دامت بريطانيا قد فقدت سلطتها الادبية على تلك البلاد فان هنالك من التبرم والضغينة بين الاهالي ما تشعر به هي ذاتها . ثم تدرجنا الى الكلام عن معنى هذه الامور الحقيقي او معناها الداخلي وسردت لها مشاهداتي واختباري ولن انسى ما علا وجهها من امارات الابتهاج اذ قالت : « اني ارى النور الان فالمسيح اعظم من امبراطوريتنا ومملكتهُ قد تأتي بها او بالرغم منها . اني ارى النور ينبعث من خلال هذه الغيوم التي كانت تظللني » . وهكذا كان ان نافذة صغيرة مكنتها من ان ترى نوراً عظيماً

ومنذ تسع سنوات وقف احد سراة الهند في الموتمر الوطني الذي عقد في بونا فالقى خطبة في الموتمر ذكر فيها اسم المسيح . فاحدث ذكرهُ لهُ ضجة وهياجاً اضطرَّاه الى القعود قبل ان يتم خطبته وذلك لان اسم المسيح وقتئذٍ كان يمثل للهند كل ما تكرههُ لانهُ كان مقترناً في ذهنها بالامبراطورية والحكم الاجنبي . ولم يكن المسيح قد « تجنس

بالجنسية الهندية » حينئذٍ ٠ الا انهُ في خلال المدة التي انقضت منذ ذلك الحادث قد نشأ في اذهان الناس ما جعلهم يميزون بين يسوع و بين مدنيـة الغرب ودليل ذلك انهُ حين انعقد الموتمر الوطني بعد ذلك الاجتماع بتسع سنوات وقف رئيس الموتمر وهو من الهندوس والقى خطبة الرئاسة فاستشهد فيها بفقرات مسهبة من العهد الجديد وتـلا خبر صلب المسيح بالحرف الواحد من انجيل يوحنا ٠ وقد بلغ عدد المرات التي أُشير فيها الى المسيح او اقتبس فيها شيء من كلامـهِ في خلال الموتمر نحو سبعين وقد ارسلت شاعرة الهند « مسز نايدو » الى الموتمر قصيدة لتتلى فيهِ جعلت عنوانها كلام بولس الرسول « بالمحبة اخدموا بعضكم بعضاً » وفي جميع ما يكتبهُ زعماء الهند الان وما يفوه بهِ خطباؤُهاتراهم يوردون عبارات وفقرات من العهد الجديد يستشهدون بها تايداً لحججهم

اشار الدكتور ٠٠٠٠ رئيس احد الموتمرات الاقليمية في خطبة الرئاسة الى المستر اندروس بقوله « انهُ ذلك المسيحي الحقيقي » وتمنى لو وجد كثيرون مثلهُ من « المسيحيين الحقيقيين » ٠ وكثيراً ما يشير الهندوس الى المستر اندروس بقولهم عنهُ انهُ « رسول المسيح الامين » وهذا يدل على ان اسمى درجات المدح في نظرهم تشبيه الممدوح بالمسيح

اشار زعيم مسلمي الهند الشهير محمد علي في خطبة القاها في

موتمر عقد برئاستهِ من عهد قريب الى مهاتما غاندي ووصفهُ بقولهِ عنهُ انهُ «ذلك الرجل الشبيه بالمسيح» · ويحدث مراراً في خلال الاجتماعات التي اعقدها ان يقف بعض الهنود ويسألوني عما اذا كنت اعتقد ان مهاتما غاندي رجل مقتدٍ بالمسيح · فاجيبهم في الغالب اني اخالف غاندي في امور كثيرة ولكني مع ذلك اظن انهُ في بعض الامور مقتدٍ بالمسيح ومتشبه بهِ الى حدٍّ بعيد · وكان البعض منهم احياناً يعودون فيقولون انهم لا يقفون عند ذلك الحد بل يعتقدون انهُ المسيح متجسداً وقد اعرب احد الهندوس عن هذه الفكرة عينها بعد ان سمع واعظاً يعظ في السوق العمومية في احدى مدن الهند الشمالية عن مجيء المسيح ثانية · فقال للواعظ : «لماذا تكرز عن مجيء المسيح ثانية هوذا قد اتى وهو بيننا في شخص غاندي» · تجديف ؟ نعم اننا نرى في هذا الكلام تجديفاً ! ولكن المهم في امرهِ هو ان غاندي في عيون اولئك القوم هو المثل الاعلى للاخلاق والفضائل فاذا اعتقدوا انهُ هو ويسوع واحد فما ذلك الا اعتراف منهم بان المثل الاعلى هو يسوع اي ان مبادىء يسوع ومثلهُ وشخصيتهُ قد اخذت تتسلط على افكار الهند

ومن غرائب هذه المظاهر التي نراها في الهند ان زعيم جمعية «آريا ساماج» التي هي الد اعداء المرسليات المسيحية قال موخراً في احدى خطبهِ : «يسوغ لك ان تنسى اسمك ويسوغ لك ان تنسى اخاك

ولكن لا تنسَ ان المرسلين هم اعداء بلادك واعداء مدنيتك » وعلى رغم ذلك فقد ورد في مقالة افتتاحية نشرتها المجلة التي تعتبر لسان حال هذه الجمعية في عرض الكلام عن غاندي اشارة الى انهُ « المسيح الحديث» ويرى من هذا ان هولاء القوم يظهرون العداء للمرسل ولكنهم عن غير قصد يعترفون بصحة موضوع رسالتهِ وتبشيره، اي المسيح

نشر كاتب هندوسي في احدى الصحف الوطنية المتطرفة مقالاً وردت فيهِ هذه الجملة : « ان جلجثة التي قضى عليها احد عظماء الشرق شهيداً من اجل خطايا العالم نرى لها مضارعاً اليوم في يرَّافادا حيث يقاسي زعيمنا غاندي عذاب الاستشهاد من اجل عبودية العالم . وكما ان جلجثة تمثل خطاة العالم فان يرافادا تمثل شعوبهُ المدوسة تحت الاقدام» (اما «يرافادا » المشار اليها هنا فهي اسم للسجن الذي كان غاندي محبوساً فيهِ) والمسألة التي تهمنا في هذا ليست صحة المشابهة بين غاندي والمسيح ولكن المهم هو ان شعب الهند يرى هنالك مشابهة بينهما

كنت اخاطب اثنين من اتباع مهاتما غاندي ذات يوم فقلت «يا اخوان يجب ان يوجد اتحاد بين الهندوس والمسلمين اذا شئنا ان تصبح بلادنا حرة قوية . ولكن اتحادكم الهندي الاسلامي مبني على قاعدة فاسدة فانكم قد اسستموه على قاعدة حلف ديني وكان ينبغي ان

تؤسسوهُ على الحقيقة التي لا تتغير وهي انكم جميعاً هنود . على هذه القاعدة تستطيعون ان تأتلفوا واما القاعدة الاخرى فغير ثابتة» . فاجاب صديقي الهندوسي « اوَليس يا مستر جونس من واجبنا المسيحي ان نساعد اخواننا المسلمين في معضلاتهم ؟» فاستغربت ان رجلاً من الهندوس يتكلم عن« واجبهِ المسيحي » تجاه اخوانهِ المسلمين

كنت مرة في احد الاديرة او الخلوات الدينية التي يسميها الهنود « اشرام » فلقيت من المجاملة واللطف والمودة غايتها . ودخل مرة الى غرفتي الصغيرة رجل ممن يدينون بدين الفرس القدماء ووضع باقة من الازهار على مائدتي . فاعجبت بحسن ذوقهِ ورقة عواطفه وقلت لهُ « يا اخي ان هذا لطف عظيم منك واشكرك شكراً قلبياً عليـهِ » فاجاب « لا موجب للشكر لان هذا من واجبي المسيحي » ثم آخذ نفسهُ اذ بدرت منه هذه العبـارة فزاد عليها قولهُ « نعم ومن واجبي المجوسي ايضاً » . لكنني على رغم استدراكه اظن انهُ لم يكن يعتقد حقيقة بما قالهُ بل كان ذلك فقط بمثابة تحية وداعية منهُ لديانتهِ وتعاليمها . واظن ان الفكرة التي كانت مستولية على نفسهِ في الحقيقة هي ان العطف على الاخرين واللطف هما من الواجبات المسيحية . رسخت هذه الفكرة في نفسهِ مع انهُ ظل بحسب الظاهر مجوسياً واحد اتباع ديانة الفرس الاقدمين

كان اثنان من قادة الافكار في الهند احدهما متخصص بالشوون السياسية والاخر بالشوون الاجتماعية يحادثان صديقاً لي فبادره ثانيهما بقوله «يا جناب الدكتور انهُ يصعب علينا ان نميز اين تنتهي هندوسيتنا واين تبتدىء مسيحيتكم» ثم التفت الى الزعيم السياسي وقال لهُ «أليس الامر كذلك؟» فاطرق هذا برهة يفكر ثم اجاب بتروٍ «نعم انها لكذلك» وقد اعرب هذان الزعيمان في كلامهما عن حقيقة تتجلى في الهند تدريجياً وهي «ان الهندوسية تنتهي والمسيحية تبتدىء»

بعد ان القيت خطبة موضوعها «يسوع ومعضلات الوقت الحاضر» وقف رئيس الحفلة وهو من كبار المفكرين بين الهندوس ومن اشهر الذين يكتبون في المواضيع الاجتماعية وقال ما يأتي: «اظن ان زبدة ما قالهُ الخطيب هي ان حل معضلات الوقت الحاضر يتوقف على تطبيق فكرة يسوع وروحه على هذه المعضلات · اني لست مسيحياً ولكنكم قد تندهشون اذا صرحت لكم انني اوافقه موافقة تامة في هذه الاراء»

وقد توجه هذا الزعيم بعد اجتماعنا ليرئس موتمر الهند الاجتماعي العام الذي غرضهُ النظر في المعضلات الاجتماعية التي توثر في حياة

الهند . ذهب الى ذلك الموتمر ورايهُ في حل هذه المعضلات كما ذكرنا أفليس ذلك مما ترتاح اليهِ النفوس ؟

وقال كبير آخر من الهندوس كان مترئساً احد اجتماعاتنا « ان معضلات العصر الحاضر ناشئة عن عدم وجود روح المسيح في شؤون الناس وعلاقاتهم »

وحدث مرة في ختام احدى خطبي في احدى مدن الهند المقدسة ان محرر احدى الصحف المحلية وهو شاب هندي ذكي من خريجي جامعة اكسفورد قدم لي قائمة طويلة من الاسئلة الدقيقة كنت احاول اجابتها على قدر الطاقة فوقف اثنان من رجال البوليس السري وكانا حاضرين في الجلسة وراء عمود محاذٍ لمكان جلوس المحرر واخذا يتكلمان همساً حتى لم يستطع ان يصغي اصغاء تاماً الى اجوبتي فاستاء منهما وبالاخص لانهُ كان يعتقد انهما يتتبعان خطواتهِ للتجسس عليهِ فالتفت الى صديق لي كان بجانبهِ وقال لهُ « اني اشعر شعوراً غير مسيحي نحو هذين الرجلين » فما قول القارىء بهذا المظهر الغريب ؟ رجل من الهندوس يقول انه يشعر شعوراً غير مسيحي — ويعني بهِ شعور الغيظ والكراهية — نحو اثنين من ممثلي الحكومة المسيحية . ان كلامهُ يدل على ان العواطف الجميلة الرقيقة اصبحت مقترنة في افكار

اولئك القوم بالمسيح · وباعتبار هذه الحوادث التي اوردتها وحوادث عديدة من نوعها لم يدهشني ما قالهُ لي ذات يوم رئيس احدى الكليات وهو ايضاً من الهندوس : «ان تكريم المسيح الى حد العبادة على ازدياد في الهند دون ان يكون لذلك اتصال بالكنيسة المسيحية بل يكاد يكون على الرغم منها · والمبادىء الرئيسية التي يمتاز بها هذا التكريم هي المحبة والخدمة والتضحية» · لم يقصد في كلامهِ ان الذين يتبعون هذه المبادىء يسعون لانشاء هيئة منظمة تسمى باسم المسيح · فان الدعوات الدينية والادبية في الهند لا تنتشر بواسطة طرق منظمة كما هي الحال في بلدان الغرب ولكن انتقالها يتم بواسطة انتقال هذه المبادىء من شخص الى شخص ومن حياة الى حياة وبهذه الكيفية الهادئة تختمر الهيئة كلها · بهذه الكيفية انتشرت وسادت افكار المصلحين العظام في الهند وبها تنتشر مبادىء المسيح بحيث تكوّن بيئة او جوًّا محيطاً لا هيئة منظمة

ولكن المسألة الهامة التي علينا ان نواجهها الان هي هذه · هل تظهر الكنيسة المسيحية الحالية من سعة الفكر وتلبية دواعي الحال والتخلق بروح المسيح ما يمكنها من ان تكون وسيلة واداة لمجيء المسيح الى الهند لانهُ يجب ان لا يغرب عن البال ان المسيحية تتخطى الان الى ما وراء حدود الكنيسة المسيحية · فهل تكون الكنيسة المسيحية

متصفة بالصفات المسيحية التي تمكنها من ان تصبح مركزاً ادبياً وروحياً لهذه التيارات المسيحية المتدفقة ؟ او هل يضطر كثيرون من اصحاب العقول الراجحة والنفوس الكبيرة في الهند الى قبول المسيح كربهم وسيدهم في حياتهم ويظلون يحيون حياتهم المسيحية خارجاً عن الكنيسة المسيحية ؟ اني اومن بالكنيسة المسيحية من كل قلبي واومن انها قد كانت محوراً لاجمل حياة ادبية وروحية في العالم . ولكن هنا شيئاً جديداً مدهشاً وهو ان هذه المسيحية الخارجة عن الكنيسة لا تعبأ بالرسوم او الظواهر بل تخترق الى قلب الامور وتعدُّ الانسان مسيحياً اذا كان مقتدياً بالمسيح متشبهاً بهِ . ومعنى هذا ان الطقوس والرسوم القديمة والسيادة ونصوص التعاليم الدينية لا تفيد الا قليلاً ان لم يكن الاتصاف بصفات المسيح ظاهراً في حياة اعضاء الكنائس . واذا اصبحت الكنيسة المسيحية في المستقبل مركز المسيحية فلا يكون ذلك الا لانها اصبحت مركز الحياة الروحية المسيحية ويمكننا تلخيص هذا الفصل في ما قالهُ احد البراهمة لي وقد وضع يدهُ على كتفي (بالرغم من كوني في نظره من الناس الذين لا يجوز لهُ لمسهم لئلا يتنجس) قال: « ربما تثبط عزيمتكم يا سيدي حين ترون قلة عدد الذين ينضمون الى المسيحية من افراد الطبقات العليا ولكن لا موجب لفشلكم لانكم لا تعلمون الى اي حد قد امتد انجيلكم فانظر اليَّ اني برهمي ومع

ذلك اسمي ذاتي برهمياً مسيحياً لاني اجرب ان احيا حياتي طبقاً لمبادىء المسيح وروحه · ومع انه لا يحتمل اني اخرج من قومي واصبح جهاراً من اتباع يسوع المسيح · فانا في الحقيقة تابع لهُ · كلا · لا تفشل يا سيدي انك لا تعلم الى اي حد قد امتدّ انجيلكم»

اني لم اشعر بشيء من الفشل او فتور العزيمة بعد هذا الكلام بل بالعكس اصبح قلبي يترنم باناشيد الحمد لاني رايت سيدي بعد ان قام من الاموات داخلاً ثانية والابواب مغلقة يدل الى يديهِ وجنبهِ ويلقي السلام على تلاميذ لم اكن اعرفهم

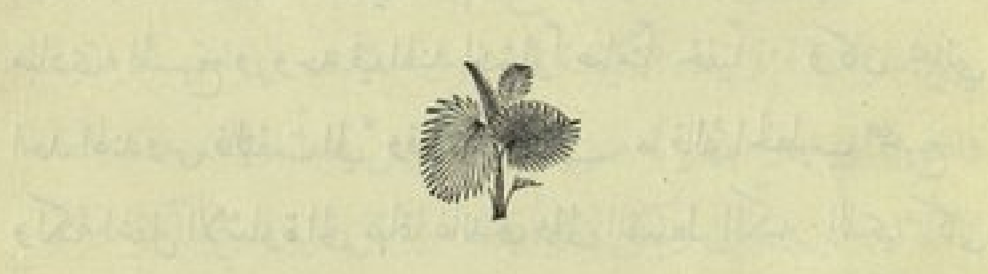
كما ان الجو الطبيعي يصبح احياناً مشبعاً من الرطوبة الى حدّ تنهطل عنده الامطار فكذلك جو الهند الروحي اصبح الان مشبعاً من فكرة يسوع المسيح واصبح على وشك ان تنهطل منهُ غيوث النعمة في قوالب مسيحية وتعبير مسيحي · واني اتضرع الى الله ان تكون الكنيسة المسيحية هي الوسيلة التي يتم انسكاب هذا الغيث بواسطتها

وقبل ان اختم هذا الفصل اود ان اقول كلمة تحذير للقارىء لئلا يخطىء فهم مرادي · فاني لا اكتفي بمجرد اهتمام الناس بالمسيح ولا اكتفي بما هو دون تسليم النفس له تسليماً تاماً مطلقاً · ولكني اذا لم

استطع ان امسك الا قيراطاً واحداً من روحية الهند فلا ارفضهُ بل اتمسك بهِ بكل قوتي واسعى الى التمسك بقيراط آخر وهكذا الى ان ارى ان ذلك الشعب العظيم قد وضع نفسه بكليتها عند قدمي ابن الله. وفوق ذلك فان الغرض الرئيسي من رسالتنا الى العالم هو ان ندعوهُ لا الى محبة المسيح فقط بل الى الايمان والثقة بهِ. ولما كانت الامم لا تكتسب الا تدريجاً فما لنا الا ان نرفع الشكر اليهِ تعالى كلما تقدمنا خطوة نحو الغاية القصوى وهي الايمان بالمسيح

ان الذي شكر لمن قدم كاس ماء بارد باسمهِ ، والذي سمح لامراة سادت نفسها الخرافات والاوهام ان تمس ثوبهُ بغية نيل الشفاء فلم يخيب املها بل منحها الشفاء عن طريق تلك اللمسة البسيطة ، والذي ابتهج بايمان رجل خارج عن دائرة الشعب المختار وصرّح انهُ لم يجد « ولا في اسرائيل ايماناً مثل ايمانهِ » فاعطاه سؤل قلبهِ ، والذي لم يكسر قصبة مرضوضة ولا اطفأ فتيلة مدخنة ، والذي رأى في ما فعلتهُ امراة خاطئة — اعربت له عن شكرها بدهن قدميهِ بالطيب ومسحها بشعرها — موجباً للثناء فاعلن ان لعملها اهمية ومعنى (باشارتهِ الى دفنه) فوق ما كانت هي تتصوره ، والذي سمع استغاثة اللص التائب على الصليب واستجاب طلبتهُ — انهُ حقاً لا يحتقر هذه

الخطوات الابتدائية الحقيرة التي هي مقدمات الى ما هو اعظم منها بل يقبلها ويعينها ويضم الخراف الاخرى التي ليست من هذه الرعية لتكون الرعية واحدة والراعي واحداً



الفصل الرابع

انتشار معرفة المسيح بطرق غير قانونية

غاندي وتأثيره

كان خطيب مسيحي يتكلم في احد الاجتماعات عن انتشار مبادىء المسيح وروحه في الهند انتشاراً صامتاً خفياً . وكان بجانبي احد الهندوس فالتفت اليَّ وقال : « ان ما قالهُ الخطيب صحيح . ولكنهُ اغفل الاشارة الى مهاتما غاندي والى القسط الكبير الذي كان له في بث هذا الروح الجديد وزيادة الاهتمام بيسوع » . فلم يكن لي ما أُجيبهُ بهِ سوى الموافقة على صحة انتقاده

ان غاندي لا يقول عن نفسهِ انهُ مسيحي بل يقول انهُ هندوسي . ولكنهُ بواسطة حياتهِ وآرائهِ واساليب عمله كان الوسيلة التي ادت الى نشوء كثير مما نراه في بلاد الهند من الاهتمام بالمسيح

فقد راى بوضوح ان هنالك طريقتين تستطيع الهند بواسطتها ادراك حريتها : الاولى طريقة السيف والقنبلة وهي الطريقة التي كان الزعيمان المسلمان محمد علي وشوكت علي يودان اتباعها لولا تأثير

غاندي فيها· وهي الطريقة التي اتبعها فوضويو بنغال · وهي طريقة تحمل في طياتها نيران الثورة· يظهر هنا او هناك وميض نار وانفجار قنبلة فيشعر العالم بان وراء الاكمة ما وراءها · ولكن غاندي ابرز هذا الاستياء المخفي وجاهر بهِ · قال احد رجال البوليس السري انهُ اصبح من السهل عليهم الان بعد شروع غاندي في حركتهِ ان يتوجهوا الى مركز رئاسة جمعيات المقاومة السلبية ويسألوهم ما هي الخطوة التالية التي يتضمنها برنامج حركتهم ضد الحكومة فيجيبونهم بكل صراحة · وبهذه الكيفية قد حول غاندي تيارات الاستياء والثورة الى مجارٍ جهارية صريحة ورفض ان يلجأ الى السيف والقنبلة لا لانهما غير فعالين ولكن لانهُ اعتقد من كل قلبهِ بشيء آخر وبنوع آخر من القوة — قوة الروح وقوة الصبر والاحتمال — واعتقد بصنف آخر من الانتصار وهو الانتصار على النفس انتصاراً داخلياً يسبق الانتصار الوطني الظاهر · وفي نيران ذلك الالم المطهرّة تنال الحرية الداخلية وينال تطهير الحياة الاجتماعية والسياسية من الداخل

فلاول مرة في تاريخ البشرية رفضت امة تسعى وراء غاياتها الوطنية استعمال القوة المادية واحلت محلها القوة النفسية وجعلت التجديد القومي الداخلي جزءاً حيوياً جوهرياً من برنامجها· ولا ريب في ان هذه الطريقة تنطبق على المبادىء المسيحية اكثر بما لا يقاس

من الطرق التي اتبعت غالب الاحيان في البلدان الغربية. ولو ان الهنود فهموا معنى هذا المثال السامي وساروا بموجبه كأُمة، كما فهمتهُ وتبعتهُ حلقة داخلية محدودة منهم، لادركوا مقاماً رفيعاً من الرقي الادبي لا يضاهيهم فيهِ احد. قال احد الكتاب الانكليز ممن لم يكن ينتظر ان يكون عنده اقل عطف على هذه الحركة «لو ان الهند سارت حقيقة طبق لائحة غاندي لما استطاعت امة على الارض ان تنكر عليها حقها في زعامة العالم الادبية» لو فعلوا ذلك لكانوا اوضحوا لنا طريقاً للتخلص من المأزق الخبيث الذي اوصلتنا اليهِ الروح العسكرية ولكانوا اظهروا للعالم ما نشعر بهِ جميعاً في اعماق نفوسنا وهو ان القوة النهائية القصوى في هذا العالم موطنها نفس الانسان

اعترفت جريدة «ستاتسمن» (السياسي) الانكليزية الهندية، وهي من اهم صحف الهند اليومية وقد قاومت غاندي وحركتهُ مقاومة عنيفة، بان غاندي اول من ادخل الاخلاص الى عالم السياسة ويمكننا ان نزيد على هذا القول انهُ قد ادخل الصليب ايضاً الى السياسة

لقد فشلت حركة غاندي سياسياً لان سموم العنف والقسوة تطرقت اليها. ولكنها لم تفشل فشلاً تاماً. نعم انها لم تدرك الغرض المباشر الذي كانت ترمي اليهِ لكنها تركت بعدها راسباً روحياً في افكار الهند لا يمكن ان يزول

حين كنت في اميركا القيت خطبة موضوعها «غاندي» فوقف في ختامها احد الحاضرين وسالني لماذا اتكلم عن غاندي وحركته مع ان كليهما خابا فاجبته ان سبب ذلك هو اني انا نفسي انتمي الى ذلك الشخص الذي خاب بحسب الظاهر اكبر خيبة دونها التاريخ — الى ذلك الذي ابتدأ ملكه بنجاح ثم انتهى كل ذلك على الصليب في خيبة مرة شائنة. ولكن خيبة الجلجثة كانت اعظم نجاح ادهش العالم. وقد ادرك هذه الحقيقة احد الروائيين المحدثين وعبر عنها في حديث عن لسان قائد روماني خاطب به مريم العذراء وهي واقفة بجانب الصليب. قال لها: «اوكذلك يا امراة ان ابنك الميت هذا، مع انه اهين وبصق في وجهه وشوه، قد شاد اليوم مملكة لن تفنى. مجده الحي يسودها. الارض له وهو صنعها. وهو واخوانه منذ اجيال مديدة رسموا خططها. وهم لا غيرهم الذين امتلكوها — لا العتاة المتجبرون ولا الكسالى ولا امبراطوريات العالم المتعظمة. قد حدث اليوم على هذه الرابية حادث تهتز له الممالك المشيدة على الارهاب وتذهب هباء منثوراً. الارض له ولانصاره وهم صنعوها. الودعاء، الودعاء الرهيبون، سيدخلون الى ميراثهم». وان كان الودعاء سيرثون الارض اخيراً فغاندي سوف ينال نصيبه من هذا الارث لانه من الودعاء «الودعاء الرهيبين»

ولا يخطئنَّ القارىء فهم مرادي فاني لا اريد ان ارسم مقابلة يفهم منها ان هذين الحادثين متشابهان في تأثيرهما في تاريخ البشر ولكني لما كنت انتمي الى تلك «الخيبة العظيمة» التي نجم عنها فداء العالم اجد في نفسي ميلاً الى الاعتقاد بان خيبة نخيبة غاندي قد تنتج عنها للهند نتائج اعظم اهمية مما لو فازت فوزاً سياسياً

ولكن غاندي لم يفشل ولم يخب انما الشعب الهندي خيب آمالهُ فالفشل كان فشلهم لا فشلهُ ٠ وهو في الحقيقة قد فاز على رغم فشلهِ الظاهر ٠ واني افضل ان انظر اليهِ كغاندي المغلوب وان اتمسك في الوقت نفسهِ بالاعتقاد الثابت ان قوة مبادئهِ سوف تتغلب ٠ افضل ذلك على ان ارى غاندي متبوّئاً منصب اول رئيس للجمهورية الهندية على قاعدة مبادىء غير مبادئهِ ٠ ان في العالم عدداً كبيراً من روساء الجمهوريات ولدى كل انتخاب يظهر فوج جديد منهم ٠ وها الصين تبدل رئيس جمهوريتها مرة كل بضعةِ اشهر لدى اقل عارض يطرأ على شؤونها العسكرية والسياسية ولكن قلَّ من يعرف اسماء اولئك الرؤساء خارج الصين اما غاندي فاسمهُ يرنّ في الافاق وتهتز لهُ اعصاب المدنية ولو مات غاندي الان في ساعة خيبته الظاهرة فاني على رغم مخالفتي له في امور عديدة اظل اعدهُ اعظم منتصر عاش في الشرق او الغرب في السنوات العشر الاخيرة واظن ان التاريخ يؤيد اعتقادي ٠ اني

افضل ان اكون ولسوناً او غاندياً مغلوباً مع تمسكي بالمبادىء الصحيحة والمثل العليا التي لم يجمع الناس على قبولها على ان اكون احد اخصامها الذين يضربون بمثل هذه المبادىء عرض الحائط

ان حركة غاندي على رغم فشلها تركت راسباً روحياً جديداً في افكار الهند وصيرت معنى الصليب اكثر وضوحاً واهمية مما كان قبلاً

قبل بضع سنوات كان الذي يعظ عن الصليب في الهند يجد في وجههِ سداً حجرياً منيعاً لان كل الاراء الفلسفية تضاد مبدأ الصليب فعقيدة التقمص او التناسخ كما يعتقدها العامة هناك لا تترك مجالاً للصليب . لانها تعلم ان كل انسان ينال في هذه الحياة جزاء وافياً على اعماله في طور وجود سابق . وكل ما في الحياة مقيد بقيود من حديد تحت نظام الجزاآت والعقوبات . فان اديت مساعدة الى انسان فما ذلك الا لان اعماله السابقة استحقت تلك المساعدة وان الحقت بهِ اذية فلمثل ذلك السبب . وكل عذاب يلقاه الانسان في هذه الحياة انما هو جزاء او نتيجة لخطية سابقة . وهذه الفكرة حملت احد الهنود على ان يسالني في احد اجتماعاتي سوءالاً غريباً وهو : « الم يكن المسيح في احد اطوار وجوده السابقة شريراً حتى استحق ما ناله من العقاب الصارم على الصليب ؟ » ولا ريب ان هذه النظرية

تنطبق على عقائد الدين الهندي الذي لا مكان فيهِ للالم الكفاري عن الاخرين

لكن غاندي علم قومهُ انهم يستطيعون ان يتحملوا العذاب والالم بفرح من اجل اغراضهم الوطنية فنشأ عن هذا التعليم شعور جديد في نفوس القوم اوضح لهم معنى الصليب . كتب احد كتاب الهند المفكرين في هذا الصدد ما يأتي : « ان ما لم يستطعهُ المرسلون في خمسين سنة قد تمكن غاندي بحياتهِ ومحاكمتهِ وسجنهِ من ان يعملهُ وذلك بتوجيههِ انظار الهند الى الصليب »

ربما يظن القارئ ان مثل هذا التصريح يجعلنا نحن المرسلين نستاء ونطاطئ روؤسنا خجلاً ولكنني كمرسل اقول اننا لا نبالي لمن ينسب الفضل في حصول النتيجة التي هي غاية مساعينا فنحن ذهبنا الى الهند لا لكي نكتسب شرفاً او ينسب لنا فضل بل لنعمل عملاً حقيقياً . اننا نتمنى ان ترى الهند الصليب ونبتهج اذا عرفنا ان احداً ولو كان خارج حظيرتنا اعانها على رؤيته

قد ادرك هذه الحقيقــة احد محرري الصحف من المسلمين واعرب عنها في مقال افتتاحي فيما يلي . « اذا نظرنا الى عمل المرسلين من وجهة حسن السياسة والاسلوب فانهُ افضل لهم بما لا يقدر ان يعتمدوا على الصليب وما يرمز اليهِ من التضحية من ان يعتمدوا على

كل امبراطوريات العالم ومعاضدتها » وهنا اورد شاهداً آخر بسيطاً صغيراً في حد ذاتهِ ولكنهُ عظيم الاهمية في مدلوله وذلك انهُ في اثناء اشتداد الحركة الوطنية في الهند التي القبض على بعض الاهالي من القائمين بحركة المقاومة السلبية — القى رجال البوليس القبض عليهم وضربوهم ضرباً مبرحاً. فتناولت هذا الحادث احدى الصحف الوطنية الكبرى ونشرتهُ تحت عنوان يستلفت الانظار وختمت المقال بهذه العبارة « ايها القارئ العزيز . في تلك الليلة الهائلة صلب المسيح مرة ثانية » هذا ما كتبهُ كاتب هندي مخاطباً ابناء قومه من الهندوس والمسلمين ولكنهم جميعاً فهموا المعنى وهو ان المسيح مرتبط بكيفية غير جلية بآلام الناس وعنائهم واضطهادهم وليست المسألة هل يقصد الكاتب من هذه العبارة نفس المعنى الذي كانت تتضمنهُ لو كان كاتبها مسيحياً ام لا يقصده. ولكن الفكرة تبقى حية بعد ان يزول الحادث الذي طبقت عليهِ وهذه الفكرة هي ان المسيح يتألم في آلام الناس

وقد اعرب احد الوطنيين لي عن هذه الفكرة بقوله « انكم معشر المسيحيين تستطيعون ان تفهموا معنى نهضتنا الداخلي اكثر من سواكم لان لها نسبة الى الفكرة الاساسية في المسيحية » والذي كلمني هذا الكلام رجل ذو اخلاق سامية جميلة جعل دابهُ في حياتهِ السير طبقاً

المبادىء المسيحية · وسالني احد زعماء الحركة الوطنية :« ألا تظن ان حركة المقاومة السلبية هي تطبيق لمبادىء يسوع على الحالة السياسية الحاضرة ؟ »

وقد اظهر بعض الهندوس اهتماماً ليس بقليل بهذا المظهر المسيحي من مظاهر حركتهم الوطنية · سالني احدهم في احد اجتماعاتي —

« ألستم تحاولون افتتاح الهند للمسيحية بواسطة احد ابنائها ، وهو غاندي ، كما فعلت الحكومة البريطانية اذ افتتحت البلاد بواسطة استخدام ابناء البلاد اي بواسطة الجنود الهندية » — لا حاجة الى نقض هذا القول وتبيان كونهِ غير معقول لان غاندي آخر شخص في العالم يمكن لاحد ان يستخدمهُ لقضاء مآربهِ ولكن النقطة المهمة في الموضوع هي ان السائل استطاع ان يرى ان حركتهم الوطنية تسير في اتجاه مسيحي

اجتمع زعماء الحركة الوطنية ذات يوم ليتداولوا في الخطة التي يجب ان يتخذوها في مساعيهم · فوقف احد الوطنيين الهندوس في المؤتمر وقال « اني لا اوافق على هذه الخطة خطة المقاومة السلبية المسالمة · واسالكم هل هي منطبقة على تعاليم الهندوس ؟ كلا · وهل هي منطبقة على تعاليم الاسلام ؟ كلا ولكني اقول لكم ما هي · انها تنطبق على تعاليم المسيحية ولهذا اقاومها »

وقد امتد هذا الروح ايضاً حتى الى اهالي القرى · حدث مرة في احدى القرى ان المرسلين حاولوا التبشير في احد المهرجانات الدينية فقاومهم الهندوس مقاومة عنيفة · ولكنهُ في السنة التي اشرت اليها لما حاول المرسلون التبشير جاءهم الهندوس يعرضون عليهم مساعدة وقالوا لهم « اننا الان حلفاء ما دام مهاتما غاندي سائراً في خطوات المسيح » سواء اعترف غاندي بهذا الامر ، اي انهُ يقتدي بالمسيح ، ام لم يعترف فالحقيقة الظاهرة هي ان اهالي القرى لاحظوا وجه الشبه بين مبادئهِ ومبادى المسيح · ولا عجب اذا اتجهت افكار القرويين الاتجاه الذي اشرت اليه اذا رويت للقارىء حادثاً جرى مرة حين وصول غاندي الى احدى المدن بقطار سكة الحديد فان الاهالي اجتمعوا في المحطة وطلبوا اليهِ ان يلقي عليهم خطاباً · فنزل من القطار واخرج من جيبهِ انجيلاً وقرأ فيهِ التطويبات (التي فاه بها المسيح في فاتحة عظتهِ على الجبل) وبعد ان قرأها اطبق الكتاب وقال للجمع المحتشد « هذه خطبتي لكم اعملوا بموجبها » · هذه كانت خطبتهُ ولكنها تضمنت من المعنى السامي ما لا تسعهُ المجلدات الضخمة

في احد الاماكن اصدرت الحكومة امراً بمنع الوطنيين من السير براياتهم الوطنية الى ما وراء نقطة معينة على جسر يوصل بين الحي الوطني والحي الاوروبي في تلك المدينة · فاصر الوطنيون على اجتياز

الجسر . فالقي القبض على عدد كبير منهم وحوكموا وقد قال لي قاضي البوليس الذي حوكم كثيرون منهم امامه انهُ يعتبرهم اصدق مسيحية منهُ . لانهم كانوا يخبرونه قبل اجتياز الجسر عن الوقت الذي ينوون اجتيازه فيهِ براياتهم وعن عدد الذين سيحاولون ذلك وقد بلغ عدد من قبض عليهم بسبب هذه الحركة الفاً ومئتين ومع انه لم يكن بينهم احد من المسيحيين فان اغلبهم ذهبوا الى السجن وبايديهم نسخ من العهد الجديد ليقراوها وهم في السجن وقد اوضح احدهم الباعث لهم الى ذلك اذ قال « اننا نفهم الان ما هو معنى ما تشيرون اليه ايها المسيحيون من تحمل الآلام لاجل المسيح » ويرى من هذا ان مسألة الصليب في اعتبارهم لم تعد نظرية مجردة بل اصبحت مبدأً حياً

كثيراً ما تحدث بعض حوادث من هذا القبيل تكاد تكون مضحكة منها ان احد الوطنيين الهندوس جيء بهِ امام احد القضاة الانكليز للمحاكمة فاستشهد في دفاعهِ بما قاله الرب يسوع لتلاميذه « سوف يوقفونكم امام ولاة وملوك وقضاة من اجل اسمي » . ثم ختم دفاعهُ بهذه العبارة « يا ابتاه اغفر لهم لانهم لا يعلمون ماذا يفعلون »

ولكن قوة هذه الفكرة واهميتها تظهران حين يمثلها غاندي لانهُ ابدى استعداداً لتطبيق هذا المبدا ، مبدأ التغلب بواسطة القوة النفسية ،

لا على الحكومة البريطانية فقط بل على شعبهِ ايضاً حين يرى انهم على خطإٍ . ومثل هذا العمل لم يكن لهُ اقل تأثير لو لم يكن غاندي نفسهُ مثال الاخلاص والشجاعة المتناهية

لما ذهب غاندي الى جنوب افريقيا للقيام بحركة المقاومة السلبية ضد حكومة جنوب افريقيا وللنضال نضالاً سلمياً في سبيل ابناء وطنهِ العمال خرج هؤلاء العمال مرة عن ارشاده ولم يجدِ نصحهُ ولا عتابهُ شيئاً فلما اعيتهُ الحيل ذهب اخيراً الى عزلة وابتدأ في الصيام فلم ينقضِ يومان حتى شاع بين العمال ان غاندي صائم بسبب سوء اعمالهم فتغيرت خطتهم في الحال وجاؤوه مكتوفي الايدي يلتمسون منهُ الاقلاع عن صومهِ ويعدون ان يمتثلوا ارادتهُ ويسيروا طبق ارشاده. ومن هذا نرى كيف ان المحبة المتألمة تغلبت في النهاية

حدث مرة في «الاشرام» (هي شبه خلوة او مدرسة يعتزل فيها الهنود وينقطعون للدرس والتامل الديني) ان احد الفتيان المجتمعين هناك قال لغاندي شيئاً صدقهُ اولاً ثم تبين لهُ بعدئذٍ ان الفتى كذب فجمع غاندي الطلبة وخاطبهم قائلاً «ايها الفتيان اني حزين جداً لاني وجدت ان احدكم كاذب وعقاباً على ذلك ساذهب اليوم واصوم» قد يقابل مثل هذا الاعلان من غير غاندى بالضحك والسخرية ولكن الذين يعرفون اخلاص الرجل وقوتهُ الادبية الفائقة لا يضحكون

ولا يسخرون · فالقصاص الذي تحمله هو عن ذلك التلميذ قد كان لهُ تأثير في نفس التلميذ اشد رهبة مما لو تحمل العقاب هو بنفسهِ · فالالم الجسدي يزول ولكن تألم النفس من عذاب الضمير الناشئ عن ايصال الالم والاذى الى من تحبهُ لا يزول بسرعة بل يبقى الشعور بهِ امداً طويلاً في النفس · وان ما عملهُ غاندي يسهل على الهنود فهم معنى ما عمله المسيح فان كان رجل واحد قد تحمل الالم بقصد ارجاع صبي ضال من طريق الكذب الى جادة الصدق فلا يصعب الاعتقاد بوجود شخص الهي الصفات وقدوس يتحمل بنفسهِ خطايا الجنس البشري باسره لكي يردنا الى طريق الصلاح والى الله · ويكون عمل غاندي هذا البسيط وسيلة لايضاح معنى الصليب لابناء قومهِ

وقد اتضحت هذه الحقيقة بصورة اشد وضوحاً في صوم غاندي الطويل الذي استمر واحداً وعشرين يوماً · وخصوصاً لان غاندي كان وقتئذٍ ضعيف الجسم على اثر عملية جراحية أجريت لهُ قبل ذلك بقليل فضلاً عن كونهِ بطبيعتهِ نحيف البنية يزن دون مئة ليبرة وسبب صومه هو انهُ لما خرج من سجنه وجد الشقاق والتحاسد والريب فاشية بين الهندوس والمسلمين وكان الفريقان قبل سجنهِ متحدين في شخصهِ فلما أُبعد عنهما وزج في السجن تفرقا · اما هو

فادرك انه في الوقت الذي تصبح فيه الهند متحدة تصبح حرة فاخذ يحث ويعاتب ويستعطف دون جدوى اذ ازداد النفور والانقسام شدة . فدفعه الحزن والاسى الى ان اعلن انه سيصوم واحداً وعشرين يوماً كفارة عن هذه الحالة

وقد كان لعمله هذا تأثير عظيم في بلاد الهند لان الشعب الهندي شعب قوي العواطف رقيق الشعور . فعقدوا موتمراً اتحادياً في اليوم العاشر من صومه وكان موَلفاً من ممثلي الاديان المختلفة في الهند وبينهم المتروبوليت رئيس الكنيسة الانكليزية الاسقفية في الهند فتناقشوا مناقشات طويلة في المسائل التي عليها مدار الخلاف . ومع ان غاندي كان ملقى على سرير الضعف والوهن في ناحية من المدينة بعيدة عن محل الاجتماع فان روحه كانت ترف على ذلك الموتمر وتحث الموتمرين على التوصل الى حل لمعضلاتهم . واسفر الاجتماع عن اصدار عدة قرارات تناولت نقاط النزاع وعن تعيين لجنة موَلفة من ٢٥ عضواً لتكون مجلساً دائماً للتحكيم والفصل في المسائل التي تمس الطوائف المختلفة . واهم هذه القرارات كان القرار الاتي :

« اننا نعترف بان لكل فرد الحق بان يغير اعتقاده متى شاء بشرط ان لا يكون ثمت اغراء يدعو الى هذا التغيير كالاطماع في ربح مادي وفضلاً عن ذلك فاننا نعترف بان لذلك الفرد الحق في ان

لا يلحقهُ اضطهاد من الطائفة التي ينفصل عنها »

واذا تذكرنا ان الشرع الاسلامي يعاقب المرتد عن ايمانهِ بالموت وان عقابهُ عند الهندوس الموت الادبي والاجتماعي يتبين لنا ان هذا القرار فاتحة عصر قومي جديد لبلاد الهند وهو في الحقيقة بمثابة اعلان وطني للحرية الدينية

في مدة صيام غاندي الطويل كان المستر اندروز (صديق مولف هذا الكتاب) متوليًا ادارة تحرير جريدة غاندي « الهند الفتاة » وفي اليوم الثامن عشر بعد ابتداء صيام غاندي انشأ المستر اندروز مقالة افتتاحية وصف فيها غاندي وهو ملقى على سريره في فرندة منزله في دهلي ضعيفاً هزيلاً . ووصف القلعة التي كان يراها عن بعيد فتذكره بالحصن المذكور في كتاب سياحة المسيحي وبالنزاع القائم حول مدينة نفس الانسان . وكان يرى في الطريق التي تحت القلعة جماعة من الانكليز خارجين الى لعب الجولف وعلى مقربة منهُ في الحي الوطني جماهير الاهالي من ابناء وطن غاندي يتزاحمون في الاسواق لا همَّ لهم الا البيع والشراء . وبينما كان اندروز يرقبهُ تبادرت الى ذهنهِ آية من الكتاب المقدس وهي :

« اما اليكم يا جميع عابري الطريق . تطلعوا وانظروا ان كان حزن مثل حزني » . وختم المقال بهذه العبارة « لما وقع نظري عليهِ

وهو ملقى على سريره وفهمت من اعماق نفسي معنى هذا المشهد كله شعرت كما لم اشعر من قبل بمعنى الصليب»

في هذه العبارة اعرب اندروز عن الافكار التي تجول في قلب الهند فقد شاهدت الهند معنى الصليب في احد ابنائها . قال لي احد زعماء الحركة الوطنية ممن كان في السابق من اشد اعداء المسيحية حمسا — :

«اني لم افهم قبلاً معنى الديانة المسيحية حتى شاهدتها في غاندي»

ومع ان هذا القول يبث فينا السرور ويحملنا على اسداء الشكر لله تعالى على صدوره من المصدر الذي صدر منه الا انه يفعل كسيف ذي حدين لاننا قد اقمنا في بلاد الهند هذه السنين الطويلة ومع ذلك لم تظهر المسيحية وتتجلَّ معانيها فينا و بواسطتنا . لكننا على كل حال نبتهج لان الغشاوة قد زالت عن عيني الهند و بدات ترى وعسى ان نكون نحن ايضاً قد انفتحت عيوننا وصرنا نرى الحقيقة كما هي

الفصل الخامس

انتشار الانجيل بطرق التبشير القانونية

ان الصورة التي رسمتها في الفصل السابق تحتاج الى شيء من التصحيح لانهُ وان يكن لغاندي فضل كبير في تعميم الشعور السائد نفسية الهند الان — الشعور بالعطف والميل نحو المسيح وتعاليمهِ — فان الفضل الاكبر في تمهيد الطريق الى ذلك يعود الى المرسلين وشركائهم في العمل فهم الذين وضعوا لهُ اساساً راسخاً في قلب الهند بواسطة حياتهم النقية الطاهرة وبانكارهم لذواتهم ودابهم المتواصل في التعليم والارشاد ولا يسعني حين اتنقل من مكان الى مكان في بلاد الهند الا الاعتراف باني اجني ثمار ما غرسه غيري قبلي واني مدين لهم بالشكر على قاموا بهِ من الاعمال الاساسية التي كانت اشد صعوبة مما تلاها من الاعمال

منذ عهد غير بعيد اهتديت الى عبارة جعلتها شعاراً لي في عملي فعادت علي بفوائد لا تحصى وهي «أرشد ما لا مفر منهُ»

ففي الحياة امور لا مفر منها ومهما فعلنا فلا نستطيع التخلص منها كلية ولا فائدة من التذمر منها ٠ فالطريقة المثلى هي ان نقابلها

وجهاً لوجه ونرشدها بروح الانجيل فتصير نافعة بدلاً من ان تكون ضارة وبركة بدلاً من ان تكون لعنة · مثال ذلك ان نهضة العمال قد انتشرت في كل انحاء العالم انتشاراً عظيماً ولم يعد في امكان احد ان يصدها · وقد قوبلت في انكلترا بما اشرت اليهِ من الارشاد والهداية فاصبحت مشربة بروح المسيحية ومبادئها ولهذا لم يعد منها خطر على البلاد · الا انها في الولايات المتحدة وقعت في ايدي زعماء معادين للمسيحية فكان من جراء ذلك خسارة كبيرة لتلك البلاد

منذ بضع سنوات رايت ان الحركة الوطنية في الهند من الامور التي «لا مفر منها» اذ لم يكن من المستطاع ان ينتشر التهذيب العلمي والمبادىء المسيحية في تلك البلاد انتشارها الحالي دون ان تتحرك نفس الامة فتنهض طالبة الاستقلال الفكري والحكم الذاتي ولو لم تحدث مثل هذه النتيجة لكنا نعتقد اننا قصرنا في عملنا · فلما ايقنت ان لا مناص من سير هذه الحركة رايت انهُ لا طريقة لمعالجتها الا الانضمام اليها وارشادها بروح المسيح او بعبارة اخرى الوقوف في وسط تلك التيارات الوطنية والمجيء بالمسيح اليها

ولا اعني بهذا انهُ يجب على المرسلين ان يتعرضوا لسياسة البلاد او يصبحوا من رجال السياسة ولكني اقول اننا اذا ابدينا عطفاً روحياً على كل ما هو صالح وجميل في نهضة الهنود القومية فان عطفنا يقع في

نفوسهم وقعاً حسنا و يولد فيها ميلاً الى قبول دعوتنا و كرازتنا . وهم لا ينتظرون منا سوى هذا العطف

لما بدات عملي الحالي منذ تسع سنوات كانت دائرتهُ صغيرة ولكني كنت آمل ان ينفتح لي هذا المجال على ما فيهِ من الصعوبة. ولم تكن لديَّ مناهج خاصة للعمل الا و كنت على استعداد ان اطرحها جانباً اذا وجدت انها غير جوهرية او غير نافعة . ولم يكن لي الا همٌّ واحد وهو ارشاد الهند لترى في يسوع ما اراه انا وعليه فكنت انتحي كل منتحى يودي الى هذه الغاية واهمل كل ما لا يودي اليها

ومنذ تولت جمعية التبشير المتودستية القيام بنفقاتي وتركت لي الحرية التامة في العمل بين جميع المرسليات المختلفة في الهند تمكنت من زيارة اهم المراكز الكبرى وبعض المراكز الصغرى مراراً وعقد الاجتماعات فيها

وقد راس اجتماعاتنا اعضاءُ المجالس التشريعية والقضاة والمحامون وقواد الجيش وروساءُ الكليات واساتذتها وزعماءُ الهندوس والمسلمين على اختلاف النزعات والمشارب. و كنا نعقد اجتماعاتنا في العراء او في قاعات البلديات او نوادي الكليات الهندوسية والمسيحية او في قاعات الجمعيات التيوصوفية واحياناً ضمن افنية هياكل الهندوس . ويرى القارىءُ اني اغفلت ذكر الكنائس المسيحية من هذا التعداد وذلك

لان في اذهان القوم هناك نفوراً منها ولهذا قلما نعقد في الكنائس اجتماعات للهندوس والمسلمين

وقد راينا ان علينا معالجة المعضلة من وجهين: اولهما احياء الشعور الروحي في الكنيسة نفسها والثاني اكتساب غير المسيحيين الى المسيح فكنا نعقد اجتماعاتنا في الصباح للمسيحيين وفي المساء لغير المسيحيين وهذه الاجتماعات مرتبطة بعضها البعض بوحدة الغرض لاننا نعلم اننا لا نستطيع انماء الحياة الروحية في الكنيسة دون احياء نشاطها للعمل · فالاختبار المسيحي والتعبير عنهُ هما جانبا المسيحية المتلازمان لا يقوم الواحد منهما دون الاخر · فان قتلنا واحداً منهما نقتل الاثنين معاً · ولهذا توخينا في مساعينا ان نفتح عين الكنيسة لترى ما لها من امتياز سعيد بمقدرتها على العمل لاكتساب النفوس

ومن المساعي التي بذلناها في هذا الصدد انهاض الكنيسة السريانية في جنوب الهند · وهي كنيسة يبلغ عدد اعضائها نحو خمسمئة الف كانت شبه ميتة منذ عدة قرون ولكن روح الحياة والنشاط دب فيها الان بادية اثاره في الجماهير الغفيرة التي تجتمع كل سنة في اثناء انعقاد مؤتمر هذه الكنيسة السنوي حين يجتمع نحو خمسة وثلاثين الفاً في محفل واحد وهذا اكبر محفل مسيحي في العالم يجتمع للعبادة · ولا تقتصر اهمية هذه المحافل على عدد المجتمعين ولكنها قد امتازت بما

يبدو فيها من ادلة القوة الروحية العظيمة التي يظهر منها ان هـذه الكنيسة بدات الان تأخذ مركزها الجديد بها في تبشير الهند بالانجيل

اما الاجتماعات التي تعقد لغير المسيحيين فعدد الذين يحضرونها في الغالب كبير . ومع ان هذه الآونة كانت آونة اضطرابات سياسية شديدة في الهند لم يحدث اقل ما يكدر في اي اجتماع من اجتماعاتنا في السنوات التسع الماضية بل اظهر الهنود مجاملة جميلة واكرموني كصديق واخ لهم كما اني انا بذلت جهدي في مقابلة عطفهم بمثلهِ

قلت انهُ لم يحدث اي اضطراب مطلقاً ولكنني استثني من ذلك حادثاً واحداً كان سببهُ سوء التفاهم . فان انصار المقاومة السلبية وغلاة الوطنيين رأوا بعض موظفي المدينة التي عقدنا الاجتماع فيها داخلين الى قاعة الاجتماع فظنوا أن الغرض من الاجتماع تأييد الحكومة فاحاطوا بالبناية ورشقوها بالحجارة وحاولوا اقتحام الابواب واخذوا يصيحون صيحاتهم الوطنية . وظلوا في ذلك نحو ثلاثة ارباع الساعة فطلبت من بعض الحضور ان يقفلوا الابواب ويمنعوا دخول الغوغاء . ثم شرعت اخاطب الحاضرين عن الاخاء وحسن النية ومجيء ملكوت الله بينما كانت عاصفة الضجيج مشتدة في الخارج

وفي اليوم التالي عرف «المقاومون السلبيون» صفة الاجتماع الذي حاولوا الاعتداء عليهِ فاتوا الي واعتذروا اعتذاراً شخصياً واعلنوا

عزمهم على حضور بقية الاجتماعات . ففعلوا ذلك وفي آخر اجتماع وقف احدهم وكان مرتديًا ثوبًا ابيض بسيطًا من النسيج الوطني (وهو بمثابة شعار للحزب الوطني) والقى خطابًا اعرب فيهِ عن شكرهم لي على ما خاطبتهم بهِ عن المسيح . وهذه كانت المرة الوحيدة التي حدث فيها شبه اضطراب في مدة تسع سنوات

وهاك مثالاً جميلاً من امثلة لطف الشرقيين وحسن مجاملتهم . بعد ان القيت سلسلة خطب في ليالي متتالية في نادي احدى الجمعيات الثيوصوفية وقف سكرتير الجمعية وطوق عنقي بقلادة من الزهر امام الجمهور (وهذا دليل التكريم عند الهنود) مع ان كل ما فهت به في تلك الاجتماعات يعارض اراء الثيوصوفية معارضة صريحة

وبهذه المناسبة اورد عبارة كتبها برنارد لوكاس (احد المرسلين الى الهند) قال: «لقد كانت مجهوداتنا موجهة الى اكتساب الهند للمسيح كانها بلاد اهلها متوحشون مع انهم في الحقيقة ذوو تهذيب ومدنية راقية وليس بينهم الا العشر ممن يصح اعتبارهم منحطين في مدنيتهم» : ولكن اغلب ما نسمعهُ في الخطب العمومية عن عمل التبشير في الهند يشير الى هذه الطبقة المنحطة التي لا يصح اعتبارها ممثلة للشعب باسره . غير انهُ في الوقت نفسهِ لا يصح ان يوخذ ما اصف بهِ الحالة كانهُ الحقيقة كلها بل يجب ان يقرن بالحقائق الاخرى ليحصل من

المجموع صورة كاملة التوازن

حين اقف امام جماعة من الهندوس والمسلمين اعرف انهم في الباطن يعترضون على كل كلمة اقولها وكل فكر أُعرب عنهُ واعرف انني اذا شئت ان اكتسب ذرة من الرضى في نفوسهم فعليَّ ان اجاهد جهاداً عظيماً في سبيل ذلك . لكنني على رغم ذلك لا اقابل الا بالمجاملة والتودد حتى حين يكون الاختلاف في الراي فيما بيننا على اشده . افلا يدل سلوك كهذا على تهذيب راقٍ وادب سامٍ ؟

والان اتقدم لسرد بعض الامثلة التي تري القارىء صوراً موجزة لبعض اجتماعاتنا التبشيرية اختارها من مئات الامثلة التي في وسعي ان اوردها

ذهبنا مرة الى مدينة . . . وكان ذهابنا اليها مجازفة عظيمة لضعف الامل بان نلقى فيها نجاحاً لانها مقر جامعة كبيرة اشتهرت بالغيرة في بث تعاليم الهندوس وديانتهم . وعلى رغم وجود هذا المعهد العلمي الكبير كانت المدينة ذاتها — اي عامة شعبها — تحت نير الافكار القديمة والخرافات . ولكن ما كان اعظم دهشتنا وابتهاجنا لما وجدنا ان رئيس الجامعة رضي ان يترأس احد اجتماعاتنا . وكان الحشد عظيماً في كل ليلة . وفي ختام احد الاجتماعات تقدم طلبة الجامعة وطلبوا اليَّ ان اذهب الى الجامعة لالقي عليهم خطبة هناك . فاستغربت هذا الطلب

وخشيت ان لا اكون قد فهمت حقيقة ما يريدون فاكدوا لي رغبتهم فسألتهم « وهل يدري اساتذتكم بطلبكم هذا » فاجابوا « نعم وهم يرغبون في حضورك » . فسألتهم « عن اي موضوع تريدون ان اخاطبكم » فاجاب احدهم « نود ان تخاطبنا عن المسيح ان كنت تشاء » فاكدت لهم اني « اشاء » ذلك جداً . ثم تكلم طالب اخر وقال : « اننا نود ان تتكلم لنا بوجه خاص عن الصليب » . فاكدت لهم ان هذا الموضوع اعز موضوع اتوق الى الكلام عنهُ . وهكذا كان اني ذهبت الى تلك الجامعة والقيت فيها عدة خطب ومما يروق ذكره بشأنها ان رئيس اول اجتماع عقدتهُ في تلك الجامعة كان استاذاً من الهندوس فقدمني الى الحضور بهذه العبارات « اني قد حضرت الاجتماعات العمومية في المدينة . ولكن لم يكن الخطيب ولا كلامهُ ما اخذ بمجامع اهتمامي وانتباهي بل الشخص الذي يتكلم عنهُ الخطيب . ايها الشبان لم يظهر في تاريخ الجنس البشري شخصية كشخصية يسوع . فهو اعظم شخص ظهر في عالمنا . وبما ان اليوم عيد هندي فافضل ما نستطيع ان نفتتح به حفلات هذا العيد هو ان نسمع خطبة اخرى عن هذا الشخص العظيم »

ومما زاد دهشتي اني لم اشاهد على اوجه الطلبة اقل دليل على استياء او تبرم او استغراب لما فاه به الاستاذ

ولما كنت اعرف تعصب الماضي واحقاده لم اكد اصدق اذني انهما سمعتا مثل هذا الكلام في مكان يعد قلب الارثوذكسية الهندوسية

ودعاني الثيوصوفيون في تلك المدينة عينها للخطابة في ناديهم وفي ختام خطبتي وقف زعيمهم وقال : « قد لا نوافق المستر جونس في كل ما يقولهُ ولكننا بكل تاكيد نستطيع السعي للاقتداء بالمسيح » . قول عظيم الاهمية في مدلوله بالنسبة الى مصدره

وفي احدى المدن الاخرى عقدت الاجتماعات في قاعة البلدية وفي الليلة التي قبل الاخيرة طلب اليَّ زعماء حركة المقاومة السلمية في تلك البلدة ان اضمَّ اجتماعي الى اجتماع سيعقدونهُ في اليوم التالي في الحدائق العمومية ويحضره نحو عشرة آلاف نفس احتفالاً بعيد التذكار السنوي لدخول مهاتما غاندي السجن وطلبوا مني ايضاً ان اتكلم في نفس الموضوع الذي اعلنتهُ لتلك الليلة وتعهدوا ان ينتدبوا مترجماً مقتدراً يترجم خطبتي للجمهور . فملت كثيراً الى اجابة طلبهم نظراً لحسن ذوقهم ولطفهم ولاهمية معنى هذا الطلب — ان يطلب مني ان ألقي خطاباً دينياً مسيحياً في اعظم اجتماع سياسي عندهم . الا انني كنت قد عزمت على ان افتح الباب في الليلة التالية لمن يشاؤون من الحاضرين ان يتقدموا و يعترفوا بايمانهم بالمسيح فاضطررت على رغم شديد رغبتي في اغتنام فرصة كهذه الى الامتناع عن اجابة طلبهم

وفي الليلة التالية كان اجتماعنا غاصاً بالحضور مع ان الاجتماع السياسي الكبير كان منعقداً في الوقت نفسهِ في مكان آخر · وفي ختام خطبتي فعلت ما لم اكن استطيع فعلهُ الا في السنة الاخيرة من سنوات خدمتي · فاني وقفت وطلبت من اولئك القوم الذين كانوا من الوجهاء بين رجال الطبقات العليا ان يعترفوا جهاراً باتباعهم للمسيح واخبرتهم بصراحة اني اترك لضمائرهم امر طلب المعمودية والدخول في عضوية الكنيسة المسيحية ولكني اظهرت لهم اعتقادي الشخصي وهو انهُ يجب على الانسان ان يختص بالمسيح ظاهراً و باطناً · و بعد ان اوضحت لهم ذلك تركت المسألة لهم ليبتوا فيها بارشاد ضمائرهم حين يقراون العهد الجديد ولكنني حثثتهم على ان يبتوا في الحال ودون تاجيل في اتخاذ يسوع رباً ومخلصاً لهم · واجابة لطلبي بقي في القاعة بعد الاجتماع نحو ثلاثين او اربعين من كبار المحامين والاعيان والاطباء وغيرهم · فصلينا واياهم وارشدناهم وحملناهم على ان يصلوا معي جهاراً صلاة مضمونها اعتراف بالخطية وتسليم النفس للمسيح وكان الاجتماع من الحوادث التي لن يبرح ذكرها من اذهاننا

وكنا نعقد اجتماعاتنا احياناً في اماكن غريبة · ففي مدينة ··· عقدناها في قصر « تيبو صاحب » سلطان ميسور الذي اشتهر بعسفهِ وظلمهِ ووقفت حين القيت خطبتي امام عرش ذلك السلطان —

موقف يوقع الرهبة في النفس نظراً للتذكارات التاريخيـة العظيمة المتعلقة بذلك المكان . وفي الليلة الاخيرة طلبت من الحاضرين ان يجتمعوا معي في غرفة صغيرة وراء قاعة العرش (التي عقد فيها الاجتماع العمومي) فازدحمت تلك الغرفة بطالبي الاستفهام والارشاد من الهندوس — جاء بعضهم بقصد صالح للاسترشاد والبعض الاخر لم يكن يقصد سوى الاعتراض والمجادلة . وعلمت بعدئذٍ ان تلك الغرفة كانت الغرفة التي سجن فيها ذلك السلطان العاتي قائدين بريطانيين احدهما السر دافيد بايرد الاسكوتلندي الشهير . أفلم يكن من غرائب الاتفاق ان تلك الغرفة عينها التي سجن فيها اسيران بريطانيان مقيدين بالسلاسل الى حراسهما تصبح بعدئذٍ مشهداً لخدمة دينية يمنح فيها المسيح حرية النفس للناس ؟ وانهُ في قاعة العرش السلطانية التي كان يجلس فيها مليك مستبد اسس مملكتهُ على السيف والدم تقام الان اجتماعات دينية يبشر فيهـا بمملكة موسسة لا على السيف بل على تضحية ابن الله ذاتهُ وتقديمهِ نفسهُ ذبيحة على جبل الجلجثة ؟

طلبت مني في احدى المدن جمعية ادبية غير مسيحية ان اعقد الاجتماعات تحت رعايتها وادارتها — وما اغرب ان تعقد اجتماعات تبشير مسيحية تحت رعاية جمعية غير مسيحية ! ولكن هذا الامر على غرابتهِ امر واقع . فان اعضاء الجمعية حصلوا على الاذن بعقد

الاجتماعات في تياترو المهراجا وقالوا انهم سيطلبون من المهراجا ان يتراس الاجتماع بنفسه في الليلة الاولى مع انهُ قد يكون تحت تأثير المسكر ولكنهم سيبذلون الجهد في ان يقوه صاحياً تلك الليلة الى حد يمكنهُ من ترؤُس الحفلة وبالطبع لم يكن لي ان ارفض فرصة كهذه على رغم هذه الظروف المحيطة بها لاننا ناخذ ما نستطيع الحصول عليهِ وعلينا ان ننشر الانجيل في اي مكان نستطيعهُ وحيث انهُ ظهر لنا ان امير البلاد نفسهُ في حاجة الى هذا الانجيل فما المانع من ترؤُسهِ الحفلة؟ وهكذا كان. وترأَس حفلة الليلة الثانية رئيس الوزراء — ثم تلاه غيرهُ من كبار رجال الحكومة وموظفيها ليلة بعد ليلة وكان عدد الحاضرين في كل ليلة نحو الف من موظفي تلك الولاية التي تعد من اهم ولايات الهند فكان مثولنا في تلك الهيئة مثولاً حقيقاً امام الملوك والولاة للشهادة باسم المسيح

ولما وقف الامير في الليلة التي تراس هو الحفلة فيها ليلقي خطبة وجيزة حسب العادة في مثل هذه الاحوال كان الجميع وجلين لانهم لم يكونوا يعلمون ماذا يفوه بهِ حيث انهُ كان معروفاً بالصراحة المتناهية في اقواله فيتفوه بما يتراءى لهُ دون مراعاة لظروف الاحوال وفي الحقيقة انهُ ادهش سامعيهِ على غير ما كانوا يتوقعون اذ قال: «اني لا افهم السبب الذي حدا بالخطيب الى الابتعاد عن هذه البلاد كثيراً ليتكلم

عن الرشوة في دوائر الحكومة ولم يكن في حاجة الى الذهاب الى الصين ليورد امثلة على الموظفين المرتكبين فانهُ يستطيع ان يجدهم في هذه البلاد» ولما فاه بهذا الكلام اجفل كلٌّ من الموظفين كانهُ اصيب برصاصة وكان سكرتير الامير جالساً معنا على منصة الخطابة وهو رجل ذو نفوذ كبير في البلاد . فلما راى ان سيده تطرف في الكلام ارسل اليهِ مذكرة صغيرة فقراها الامير ثم فاه بما يأتي . « يقول سكرتيري ان لا حاجة بي الى ان ازيد شيئاً على ما قلتهُ » وقعد

وفي اليوم التالي دعاني هذا الامير الى زيارته في قصره فذهبت وفي اثناء زيارتي لهُ رجوته ان يقلع عن المسكر ويعطي نفسه للمسيح واخبرتهُ عما صنعهُ المسيح من اجلي فقال « يامستر جونس لااستطيع ان افعل ذلك واقول لك الحق اني كنت على وشك ان اصير مسيحياً لما ذهبت الى انكلترا لان المسيحية اعجبتني لما تحويهِ من روح الاخوة . الا انني كنت اتلقى دروسي هناك وكتابي في اليد الواحدة وزجاجة الوسكي في اليد الاخرى غير اني اعدك بهذا : اني ساذهب الى اميركا قريباً وحيث ان بيع المسكرات ممنوع هنالك فسامتنع عنها ما دمت في الولايات المتحدة » — اني اسألهُ تعالى ان تثبت بلادنا (الولايات المتحدة وطن المولف) في مقاومتها للمسكرات لان العالم كلهُ ينظر الينا فان فشلنا ترجع مدنيتنا وتقدمنا الادبي خمسين سنة بل مئة سنة

الى الوراء · و يتضح من هذا ان نجاح عمل التبشير في الشرق يتوقف على حالة المدنية في بلدان الغرب

منذ تسع سنوات القى جون موط خطاباً في احدى القاعات الكبرى في مدينة ··· امام جماعة من غير المسيحيين وفي عرض خطابهِ ذكر اسم المسيح فقابلهُ الحضور بتصفير الاحتقار · وبعد ان مضت تسع سنوات على هذا الحادث عقدنا سلسلة اجتماعات في تلك القاعة عينها وكان الموضوع في ست ليالي متتالية «يسوع المسيح واياه مصلوباً» وكان عدد الحاضرين يزداد ليلة بعد ليلة حتى ان كثيرين اضطروا في الليالي الاخيرة الى الوقوف خارج الابواب والنوافذ وقد دعوت السامعين الى تسليم نفوسهم للمسيح تاركاً لهم الحرية في امر المعمودية طبقاً لالهام ضمائرهم · وكنت اقول وقتئذٍ انهُ ان تقدم فرد واحد منهم اعد ذلك موجباً لاعظم سرور وشكر (لاني تذكرت قول وليم كاري وهو ان تجديد قلب فرد واحد من ابناء الطبقات العليا وقبولهُ المسيح يعد عجيبة تضارع في اهميتها عجيبة الاقامة من الموت) فكم كانت دهشتي عظيمة حين تقدمَ بين مئة ومئة وخمسين طالباً تلبية لدعوتي · وكيف شئنا تفسير هذا الحادث او البواعث الباعثة اليهِ ومهما حاولنا الانقاص من اهميتهِ فان الحقيقة التي تبقى بعد ذلك كله مما يثير الدهشة — وهي ان هذا العدد الكبير من

ابناء الطبقات العليا الذين قابلوا اسم المسيح بصفير الاحتقار منذ تسع سنوات يقفون الان في القاعة نفسها طالبين ان نقدم الصلوات من اجلهم · ولم يكن الفرق في الحادثتين راجعاً الى الخطيب لان الرجحان الشخصي كان في جانب الخطيب الاول · ولكن الفرق كان في موقف الهند تجاه يسوع وما طرأ على موقفها من التغيير في تلك المدة اي ان الجو البسيكولوجي تغير في هذه السنوات التسع واشرق فيه نور نهار جديد

· وفي تلك المدينة نفسها دعيت لالقاء خطبة في كلية غير مسيحية فالغى الطلبة مباراة بلعبة الكريكت لكي يتمكنوا من حضور الخطبة وفي مكان آخر بعد ان القيت احدى خطبي طلب التلامذة الهندوس عقد اجتماع اضافي خاص بهم · فلم اجد متسعاً من الوقت لاني كنت اخطب اربع مرات يومياً · فطلبوا ان يكون الاجتماع الخاص بهم الساعة السابعة صباحاً وكان موضوعهُ « كيف نجد حياة جديدة »

وطلب مني في مدينة اخرى الكتاب الهندوس من مستخدمي المحلات التجارية ان اعقد لهم اجتماعاً اضافياً خاصاً فلم تتمكن من عقده الا الساعة السابعة والنصف صباحاً ليتسنى لهم الذهاب بعد الاجتماع الى مكاتبهم

فاز المعارضون السلبيون في احدى المدن في الانتخابات البلدية

فاصبحت الادارة البلدية في ايديهم وكان اهالي المدينة جميعهم مرتدين ملابس من الاقمشة المنسوجة في بيوتهم دليلاً على صدق وطنيتهم واذا سار احد في المدينة مرتدياً غير تلك الملابس البيضاء يشعر كانهُ دجاجة غريبة . وقد حدثت عدة اضطرابات في جوار تلك البلدة وكانت العواطف متهيجة للغاية . فحذرنا الموظف البريطاني الموكول اليهِ الاشراف على تلك الناحية من الذهاب الى تلك المدينة لعقد الاجتماعات وقال انهُ لا يتحمل اية مسؤولية عن سلامتنا لكننا راينا ان الواجب يدعونا الى الذهاب فذهبنا وكتب احد المرسلين الى المستر غاندي يخبرهُ اني سالقي خطاباً في تلك المدينة ويرجوه ان يبلغ الوطنيين اتباعهُ ذلك ويدعوهم للحضور فاجاب غاندي في الحال (وهو من الذين لا يوخرون مكاتباتهم) معرباً عن شديد رغبتهِ في ان يحضر انصاره الاجتماعات وكتب لهم بذلك ولما بلغهم هذا الخبر اتى بعضهم وسالونا هل نرغب في ان يتولوا هم ادارة الاجتماعات فافهمناهم اننا لا ننوي طرق المواضيع السياسية بل سيكون موضوع كلامنا المسيح . ومع ذلك امضى ثلاثة من زعماء الهندوس الوطنيين النشرات التي وزعت اعلاناً عن الاجتماع فامتلات القاعة في الحال واضطررنا الى الخروج الى العراء حيث عقدنا اجتماعنا . ولاحظت اول وهلة ان عدداً كبيراً من السامعين لا يفهمون الانكليزية (وبهذه المناسبة اقول اني حين

أخاطب تلك الجماهير المسيحية اخاطبهم في الغالب بالانكليزية لان اغلب المتعلمين يفهمونها لكونها لغة التعليم في المدارس العليا والكليات) فالتفتُّ الى رئيس الحفلة وقلت لهُ «لا اعلم ماذا سافعل لاني لااستطيع التكلم باللغة الكوجراتية (لغة تلك الناحية) ولا اعرف الا الهندوستانية وليس هنا احد من المسيحيين ليترجم كلامي» فقال لي في الحال «انا اترجم لك بسرور ان شئت» فما اعظم الفرق بين ما كان يخشاه الموظف البريطاني وبين ما وقع فعلاً؟ فبدلاً من ان نقابل بالاعتداء والعنف كما كان يتوقع قوبلنا بالمودة والعطف واخذت اجتماعاتنا تحت رعاية الوطنيين وتطوّع كثير منهم لترجمة اقوالنا

وكنت حائراً في كيف استطيع ابلاغ رسالتي على لسان صديقي الهندي ولكني تذكرت ان دافيد برايند[1] كان يبشر الهنود الاميركيين بواسطة مترجمين سكارى وعلى رغم ذلك كانت تحل قوة الروح على اجتماعاتهِ. فكانت لي ثقة ان الله يمنحنا مثل تلك النعمة بواسطة ترجمة صديقنا الهندي لاقوالنا وقد جرى ذلك بالفعل. وفي الليلة التالية كان المترجم شاباً آخر هندياً اذعنا على لسانهِ بشارة الصليب

وفي ختام احد الاجتماعات سألت الجمع عما اذا كانوا يريدون ان

---

(١) مبشر اميركي عاش في النصف الاول من القرن الثامن عشر وقضى حياتهُ في التبشير بين الهنود الاميركيين

اصلي · وقد جرت عادتي ان لا اصلي صلاة جمهورية الا بعد استئذان الجماعة — ولم يرفض طلبي البتة · فصليت و بعد الاجتماع جاءني رجل مسلم وقال لي : ان ما جرى الليلة كان خالياً من الاحترام فانك تركت اولئك القوم قاعدين في وقت الصلاة وكان الواجب ان يقفوا في حضرة الله

فاجبتهُ « حسناً والليلة القادمة سيقفون » وفي الليلة التالية بعد ان القيت خطبتي سألت الحضور أيريدون ان اصلي · فاجابوا بالايجاب فطلبت اليهم ان يقفوا · وكانت العادة هناك انهم متى وقفوا في ختام احد اجتماعاتهم يهتفون بهتافهم الوطني · فلما وقفوا للصلاة اجابة لطلبي دوت اصواتهم بهتاف الدعاء « ليحيَ الوطن وليحيَ مهاتما غاندي » · فجاءت هذه الهتفات الوطنية محشية بين خطبتي وصلاتي · ولكن هذا المزج الغريب لم يكن ليزعجني بل حالما خفتت اصوات الهتاف شرعت في الصلاة كأن لم يحدث شيء غير مألوف · ومثل هذا المزيج غالب الحدوث في الهند ففيها تختلط الحياة العالمية والديانة اختلاطاً مدهشاً ولكني لا اكرههُ

وفي ختام الاجتماع قلت لهم اني لا استطيع ان اشعر بتقرب وثيق بيني وبينهم في هذه الاجتماعات الكبيرة ولهذا اقترحت مداولات مع وجهاء المدينة فاجابوا بالقبول وفي اليوم الثاني اجتمعنا في المدرسة

الوطنية نخلعت حذائي وجلست بينهم على الارض متبعاً عادتهم في ذلك ولاحظت ان بعضاً منهم كانوا قبل حضورهم للصلاة قد اشتركوا في مظاهرة سياسية ولم يزالوا حاملين الرقاع التي جالوا بها في الشوارع وقد كتبت عليها هذه العبارات : « لا تدفعوا ضرائبكم »

« اذهبوا بفرح الى السجن »

« دموع الضعفاء تدك امتن الاسوار »

قد يتبادر الى الذهن انهُ في جوّ كهذا متكهرب بتيار الحركة الوطنية السياسية لا يجد ندائي الروحي تلبية لانشغال الافكار بامر النزاع السياسي · ولكن الامر جاء على عكس ما كان ينتظر وكانت ادلة الشعور الروحي قوية · وبهذه المناسبة اقول اني لاحظت فرقاً كبيراً بين ما يطرأُ من التأثير الروحي على طبائع الناس الذين يشتبكون في حرب تستخدم فيها الاسلحة الحربية الفتاكة وبين ما يطرأُ من التأثير على طبائع اولئك الذين لا يتخذون سلاحاً سوى سلاح المقاومة السلبية السلمي · فمن الحقائق التي لا جدال فيها ان الناس الذين يشتركون في حرب تستخدم فيها الاسلحة الفتاكة (ما عدا افراداً قليلين كرام السجية هم شذوذ القاعدة) يصبحون ذوي طبائع وحشية تزداد وحشيتها بروزاً كلما كانت الاسلحة اشد فتكاً وقد وجدت بعكس ذلك ان الرجال الذين انضموا الى غاندي واتبعوا خطتهُ في

المقاومة اصبحوا ذوي صفات روحية سامية . وازدادت عندهم قيمة الامور الادبية

وان لم يكن ثمت من موجب للتنديد بالطريقة الاولى ولتحبيذ الثانية سوى الفرق في تأثيرهما في شخصية الذين يتبعونهما فكفى . وفي الاجتماع الذي اشرت اليهِ كنت مجالساً رجالاً اقوياء الشكيمة شديدي العزم عقدوا النية على ان يضحوا كل ما يمتلكونهُ في مناضلتهم مع حكومة تخص بلدان الغرب التي جئت انا منها . وعلى رغم ذلك لم يكن في صدورهم شيء من البغض او الحقد ولا اختلج فيها سوى شعور روحي ادبي سامٍ

خاطبتهم عن المسيح وفي اثناء الكلام استعملت هذه الالفاظ « مسيح طريق الهند » فظلوا يكررونها مراراً في ما دار من الحديث بعد ذلك وكانها وقعت موقعاً حسناً في مخيلاتهم وجعلتهم يشعرون ان المسيح يخصهم كصديق حميم . وكانهُ في تلك الساعة نفض عنهُ غبار الطرق الهندية ودخل وجلس وايانا على ارض تلك الغرفة في هدوء الشفق الهندي . تكلمنا في مناقشاتنا عن الهند وحاجتها . ولم اخاطبهم كأن الهند غريبة عني لانها لم تعد كذلك . نعم اني ولدت في بلاد الغرب واحبها ولكن الهند اصبحت وطني وشعب الهند اصبح شعبي ومعضلاتها معضلاتي ومستقبلها مستقبلي واريد ان احمل خطاياها على قلبي اذا

شئت ان ارفعها الى مخلصي . قلت لهم اني اريد ان ينظروا اليَّ كابن الهند بالتبني . ثم التفتُّ اليهم وقلت : « يا اخوان ماذا نستطيع ان نفعل من اجل اولئك الستين مليوناً من المنبوذين . انهم كحجر الرحى حول عنقنا كامة . ولا يمكن ان تصبح بلادنا قوية ما لم ننتشلهم فكيف نستطيع ذلك ؟ »

فوقف احد الهندوس المفكرين وقال « ان انتشالهم يحتاج الى مسيح » وقد شعر كل من الحاضرين ان هذا المتكلم اصاب كبد الحقيقة . فوافقنا على قولهِ وزاد عليهِ البعض منا ان شملنا ذواتنا مع اولئك القوم الذين يحتاجون الى المسيح لانتشالهم اي اننا شعرنا اننا نحن ايضاً في مثل حاجتهم ولم يكن هذا الشعور منحصراً في المسيحيين منا بل شاركنا فيهِ بعض الذين لم يكونوا يعترفون بانهم اتباع للمسيح

ان الشعب الهندي شديد التدين فاذا اصبحت يوماً قواه الروحية العجيبة تحت ارشاد يسوع فستكون النتيجة عجيبة . جاءني يوماً بعض كبار الهندوس وقالوا : « ستقيم الحكومة معرضاً زراعياً وصناعياً في . . . . » (وهذه المعارض تعرض فيها المعروضات الزراعية وتقام فيها سباقات للخيول ومباريات رياضية ومصارعات ونحو ذلك) قالوا « وهذا كلهُ حسن ولكن لا ديانة فيهِ وقد جئنا لنطلب اليك ان تأتي وتضع فيهِ ديانة » فسألتهم ماذا يريدون ان اعمل فاجابوا « نريد

انك تأتي وتلقي خطباً في سرادق الدربار» فاستغربت ذلك لان سرادق الدربار هو المضرب الرسمي الفخم الذي يقيم فيه موظفو الحكومة حفلاتهم الرسمية · فقلت لهم اذهبوا اولاً واستاذنوا لنا بالاجتماع · فذهبوا ثم عادوا هاتفين وقالوا ان الموظف المنوط بهِ الامر رفض ان يسمح بالقاء الخطب الدينية في سرادق الدربار لئلا يؤْخذ من ذلك ان الحكومة تعضد ديناً مخصوصاً ولكنهُ سمح بان تعقد الاجتماعات في حلقة المصارعة حيث توجد مقاعد مستديرة تحيط بالدكة التي تجري عليها المصارعات · الا ان فكرة عقد اجتماعات دينية في حلقة المصارعات لم ترق لاولئك القوم لاعتبارهم ذلك مهيناً ومشيناً للدين ولهذا عدلوا عن عقد الاجتماعات كلية · وعلى رغم هذا الفشل ايقنت حين كنت احادث اولئك الرجال انهُ حين يقبل الهنود المسيح لا يرضون ان يضعوه في مكان قصي او في حواشي الحياة بل في قلب حياتهم في مركز الحكومة نفسها ليحكم ويكيف ويملك كل شيء

في آخر ليلة قضيتها في الهند قبل مغادرتي اياها باجازتي هذه * كنت اخاطب جمهوراً من غير المسيحيين في مدينة — وكانت تلك

---

* معظم ما يتضمنهُ هذا الكتاب ماخوذ من الخطب التي القاها مولفهُ في خلال زيارته لوطنه بالاجازة بعد تغيبهِ عنهُ عدة سنوات

الليلة اخر حلقة من سلسلة اجتماعات متوالية فسالت الحاضرين · ان يبتوا هناك وفي تلك الساعة في امر صيرورتهم اتباعاً للمسيح · فعارضني احد الهندوس فجاة وقال : « تمهل لحظة يا سيد · انك تطلب ان نصير مسيحيين فقبل ان تتم كلامك ارجو ان تفيدني ماذا تنوون ان تعملوا في اميركا بمسالة حقوق الهنود المهاجرين اليها قل لنا ذلك قبل ان تطلب منا ان نصير مسيحيين » · فاضطررت الى قطع الكلام الذي كنت بدات به واوضحت لسامعيّ موقفي تجاه تلك القضية وافهمتهم ان بعضاً منا نحن الاميركيين امضينا عريضة احتججنا فيها على قرار الحكومة بهذا الشأن وظهر لي ان ما قلتهُ اوجد ارتياحاً في نفوسهم

ولكن ليلاحظ القارىء هذا الامر وهو اني قبل ان اتمكن من اتمام كلامي وحثي للسامعين على اتباع المسيح اضطررت الى ايضاح موقفي من جهة مسألة الجنسية ولولا ذلك لما استطعت التقدم خطوة واحدة

ترون من هذه النوافذ الصغيرة التي فتحتها لكم ما هي الفرص المدهشة السانحة الان للتبشير · فلم يكن في ما مضى ما يضارعها اتساعاً واهمية ولكننا لا نستطيع ان نبادر الى اغتنامها ولا لمعالجتها بقوة ادبية او روحية حتى نكون قد اتخذنا موقفاً صحيحاً تجاه المسائل

المتعلقة بالجنسيات

وهذا يؤدي بي الى الفصل التالي من كتابي — فصل اكره مواجهته غير ان خطط التبشير في الشرق من اساسها تتوقف على اتخاذنا موقفاً مسيحياً صحيحاً تجاه امم الشرق فلا بد من مواجهة الموضوع

الفصل السادس

العائق الاكبر

ان شئنا ان نفهم حقيقة موقف الهند حيال الغرب ومدنيتهِ فلا يغربنّ عن اذهاننا ان في الهند ما يسميهِ الاستاذ ملر « بسيكوسيس الظلم » وقد عرف الظلم بقولهِ انهُ « تسلط فريق من الناس على فريق آخر في شؤونهِ السياسية او الاقتصادية او التهذيبية — مفردة او جمعاء » وعرف البسيكوسيس بقوله انهُ « حالات عقلية ملازمة متحرجة تنشأ عن تسلط فريق على اخر » والبسيكوسيس في عرف الاطباء انحراف يطرأ على القوى العقلية لا لمرض في الدماغ او الاعصاب بل لخلل في وظائفها . وحيث ان الهند تشعر بتسلط الغرب عليها في شؤونها التهذيبية والاقتصادية والسياسية نشأت فيها هذه الحالة التي نسميها « بسيكوسيس الظلم »

ان كثيراً مما نشاهده الان في الهند من انتقاد عنيف عدائي للامم الغربية انما هو نتيجة هذا البسيكوسيس حتى انهُ في الظروف الحالية يكاد يكون ضرباً من المحال ان ترى الهند شيئاً صالحاً في الغرب وان وجدتهُ ان تقدرهُ حق قدره او تعترف به فقد يقتبس الهنود كثيراً

عن مدنية الغرب وعلومهِ · الا انهم ما دامت فكرة جنسيتهم حاضرة في اذهانهم — اي انهم هنود واولئك غربيون — فلا يستطعون ان يعترفوا بما يدينون بهِ لهم · وقد رايت كثيراً من الطلبة الهنود في اميركا حيث يتلقون العلوم في الكليات والجامعات الاميركية ولم اجد ان واحداً منهم يعترف بما لمدنيتنا من الفضل وما فيها من الصلاح الا اذا تناسى انهُ هندي

واعتقد ان الهند لا تقتبس بصورة صريحة او جهارية شيئاً من مدنية الغرب او من الكنيسة المسيحية الغربية الا حين تتخلص من ربقة البسيكوسيس المشار اليهِ او بعبارة اوضح حين تصبح ذات حكم ذاتي سياسي

لا مجال للريب في ان بريطانيا العظمى اعطت الهند حكومة صالحة ولكن الهند لا تستطيع تقدير قيمة ما تحتويهِ مدنية الغرب من المحاسن تقديراً صحيحاً موزوناً ما لم تصبح هي ذاتها امة حرة

لا تحجم الهند الان عن الاقتباس من المسيح ذاتهِ لانها تستطيع التمييز بينهُ وبين الغرب ولكنها تستصعب اقتباس شيء من الكنيسة المسيحية او من المرسلين لانها لا تستطيع ان تفرق بينهم وبين مدنية الغرب

وعلى الرغم من ذلك فان في مستطاع المرسلين ان يتنازلوا عن

غربيتهم ويمتزجوا في حياتهم ومساعيهم بشعب الهند فلا يعودوا اذ ذاك جزءاً من القوات المتسلطة بل يتبوأون اماكنهم كاصدقاء واخوان خادمين . قال لي احد الكتاب الاجتماعيين المفكرين من الهندوس « لم تكن المدنية الغربية احط منزلة في عيوننا مما عليهِ الان ولا كنتم ايها المرسلون ارفع منزلة في نظرنا مما انتم عليهِ الان لانكم جئتم الينا لا لتستغلونا بل لتخدمونا » . فان كنا قد جئنا خداماً فيجب ان نتنصل من كل صفة تسلط او سيادة يحتمل ان تكون مندرجة ضمن خطط الدول الغربية

وان شئنا ان نعالج روح الانتقاد والتنديد المنتشر في الهند ضد الغرب ومدنيتهِ سواءً اكان بقصد ازالتهِ ام ازالة اسبابهِ فعلينا ان نتذكر وجود البسيكوسيس ونراعيهُ ونعتصم بالصبر

الا اننا نخدع انفسنا اذا تركنا الامر عند هذا الحد فان « بسيكوسيس الظلم » هذا لهُ اسباب راهنة اوجدتهُ . ولم ينشأ عن سياسة حكومية مقصودة كما نشأ عن الاحتكاك اليومي بين الجنس الابيض والجنس الاسمر فان مايبديهِ البيض من الغطرسة والترفع والاحتقار نحو الجنس الاسمر قد اولد مرارة وتألماً في نفوس الهنود فاذا شعر الهندي بهذه المرارة وراح يندد ويطعن ببلدان الغرب فلا ننسَ ان تنديده وطعنهُ يزداد وقعهما لانهُ يعرف اننا باتخاذنا موقف الغطرسة نحوه نسير

ضد كل ما تعلمنا اياه دياناتنا و يعرف ان هذه الروح ليست مسيحية . وانٍ كان حصرنا لكل ما يختص بعمل التبشير في شخصية يسوع قد جلّى قضيتنا وازال عنها كل غموض والتباس واعطى مساعينا في الهند حياة جديدة فانهُ في الوقت نفسهِ قد انقلب علينا بحكم هائل لان الهند اخذت الان تصدر حكمها علينا بموجب النور الساطع المنبعث عن روح المسيح اذ ادرك الهنود ما هو معنى المسيحي الحقيقي فصاروا يحكمون علينا بالنسبة الى هذا المقياس . ونحن ان قسنا ذواتنا باقيسة مدنية الاعصر الماضية او الاقاليم الاخرى فقد لا نجد فينا نقصاً يذكر اما اذا قسنا ذواتنا بمقياس روح المسيح وما يطلبهُ منا فنجد نقصاً عظيماً

أشرت غير مرة في خطبي في الهند الى حادث جرى في احدى كنائس افريقيا الجنوبية . فانها علقت فوق بابها رقعة مكتوباً عليها « ممنوع دخول الاسيويين والهوتنتوت الى الكنيسة » . ولهذا لم يسمح لغاندي ان يدخل تلك الكنيسة لانهُ آسيوي . كنت اذا اشرت الى هذا الحادث اعلق عليهِ بقولي انهُ لو ذهب المسيح نفسهُ الى تلك الكنيسة لما سمح لهُ بدخولها لانهُ كان اسيوياً . وكنت ارى امارات الاحتقار بادية على اوجه الجماعة مع ان اهل الطبقات الاجتماعية السفلى عندهم يحظر عليهم دخول الهياكل وليس هذا المنع بموجب

لوحات او رقع معلقة فوق ابوابها فقط بل بموجب تعاليم ديانتهم ومطاليب عاداتهم القومية . الا انهم يشعرون بهذا المنع عندهم ولا يبالون بهِ مع انهم يشمئزون من حرمان فئة من الناس من دخول الكنائس المسيحية. وسبب ذلك انهم يحكمون على ذواتهم بموجب اقيسة دياناتهم ويحكمون علينا بموجب قياس روح يسوع . فلهذا لا يسعنا الرد على انتقادهم بقولنا لهم انهم يعاملون ابناء جنسهم عين المعاملة التي يعيبونها فينا. لانهم يحكمون على اعمالنا بموجب الديانة التي نعترف بها والمسيح الذي ندعي اننا تابعوه . ولهم كل الحق في هذا الحكم . واني شخصياً اسر من انتقادهم ولو كان جارحاً لانهُ يفيدنا ويذكرنا ان خلاصنا كخلاصهم يتوقف على الرجوع الى فكرة المسيح ومقاصده

قال لي احد مفكري الهندوس ذات يوم . «ان كنت تدعوني رجلاً مسيحياً' اعد ذلك مديحاً لي واغتبط بهِ اما ان قلت عني اني «مسيحي» اي استعملت هذه اللفظة كموصوف لا كصفة فاني استاء واعدها اهانة» وفي هذا التمييز الدقيق خلاصة جوهر القضية . فان ذلك الهندي راى انهُ اذا سُمي مسيحياً اي احد المسيحيين او احد اعضاء الجماعات المسيحية — هنوداً كانوا في جنسيتهم ام اوربيين — فيعد انهُ وضع في مصاف قوم يرى ان كثيرين منهم ليسوا من صفات المسيحية على شيء واما اذا دعي رجلاً مسيحياً اي رجلاً متصفاً

بصفات المسيح فبعد ذلك اسمى مديح يستطيع ان يطمح اليهِ . ومن هذا نرى ان اولئك القوم ادركوا ان الانسان لا يكون مسيحياً حقيقياً الا اذا اقتبس روح يسوع

وقد ادركت هذه الحقيقة بنت هندية صغيرة سئلت من هو المسيحي الحقيقي فقالت هو شخص يختلف عن كل من سواه

ولكن كثيرين من الذي يدعون مسيحيين ليسوا مسيحيين حقيقيين . قال لي مرة احد الهندوس في احدى المدن الكبيرة « ارني مسيحياً واحداً حقيقياً في هذه المدينة فاصير مسيحياً » لا ريب انه بالغ في قوله ولكن ما كان يرمي اليهِ واضح لا يحتمل الالتباس

قال لي احد المعلمين الهنود ذات يوم « اريد ان اصير مسيحياً ولكني اريد ذلك بالرغم من حياة الاوربيين الذين يسكنون هنا لانهم كما يظهر لا يكرهون الا امرين احدهما الدين والثاني الماء » وفي اشارتهم الى كرههم للماء لم يقصد ماء الاستحمام بل ماء الشرب لانهم لم يكونوا يشربون الماء بل المشروبات المسكرة على اختلاف انواعها . وقد قيل هذا القول في بلاد من بلدان الشرق (وهي مستعمرة البواغيز) لا يكاد يوجد فيها مزارع اوروبي الا وعنده محظية وطنية . فكأن تعصب الاوربيين الجنسي لا يشمل شهواتهم البهيمية

كنت مرة في احدى المدن حيث تبارز اثنان من الاوربيين

وقتلا كلاهما فدفنهما الوطنيون مدفوعين بعوامل الشفقة · واذ ارادوا ان يقدموا تقدمة عن روحيهما حسب عاداتهم الدينية راوا بعد البحث ان تكون تقدمتهم مما كان المتوفيان مشغوفين بهِ في حياتهما اكثر من سواه ولهذا وضعوا على قبريهما صندوقاً من السيجار وزجاجة من الوسكي

وليست حياة الاوربيين المحليين او حياة بعضهم هي العائق الاكبر بل ان العالم باسره اصبح الان بسبب سهولة المواصلات وسرعة نقل الاخبار مرتبطاً بعضهُ ببعض وصارت الهند تستطيع معرفة كل ما هو جارٍ في انحاء العالم القاصية · منذ قدومي الى وطني خطبت عدة مرار بواسطة التلفون اللاسلكي وقد شعرت شعوراً غريباً حين وقفت لاول مرة اتكلم بصوت المحادثة الاعتيادي امام قرص صغير معدني في مكان منزوٍ عن العالم ومع ذلك كنت اعلم ان كلماتي يسمعها الناس على بعد مئات والوف من الاميال . ان مثل هذا التلفون اللاسلكي موجود الان في العالم بمعنى مجازي اعم فكل قانون تسنهُ مجالسنا التشريعية وكل حادث قليل الاهمية في حد ذاتهِ يدل على شعورنا نحو الشعوب الاخرى كل هذه تذاع الى جميع انحاء العالم · كما تذاع الانباء والانغام بواسطة التلفون اللاسلكي · وكأنَّ في الطرف الاخر بوقاً يلتقط تلك الانباء ويعيدها على مسامع الجماهير بعد ان يقوّي اصواتها فتظهر مجسمة

مبالغاً فيها

جلست مرة في وسط جماعة من الوطنيين المتحمسين لمبادلة الاراء فقلت لهم: «يا اخواني اني قد كلمتكم في الليالي السالفة عن المسيح وأريد منكم ان تخبروني بصراحة لماذا لا تقبلونهُ» . فوقف احد الهندوس وقال «انك تطلب الينا ان نصير مسيحيين فاسمح لي ان اسألك هل مدنيتكم مسيحية والي اي حد هي كذلك ؟ الا يوجد خلل ورشوة في دوائر حكومتكم المركزية في وشنطن ؟» (كان هذا على اثر اذاعة بعض الفضائح المتعلقة بشركات زيت البترول)

وسألني آخر «الا تثور الغوغاء في بلادكم وتعدم الزنوج المجرمين قبل ان يبت القضاء في جرائمهم ؟»

وقال ثالث: «قد مرت قرون عديدة منذ اعتنقتم المسيحية في بلدان الغرب . ومع ان المسيح ملك السلام فلم تتعلموا طريقة لاجتناب الحروب . أهذا كل ما تعرفونهُ عن المسيحية ؟»

ولم تكن هذه الاقوال صادرة عن روح الحقد والبغضاء بل عن تفكير واهتمام ولم يكن الباعث اليها سوى ان اولئك القوم سمعوا عن مدنية الغرب اموراً لا تنطبق على المبادىء المسيحية التي نبشر بها

وهاكم شاهداً آخر لا يخفى مدلولهُ: كنت يوماً في الهند في ناحية حدث فيها قبل وصولنا اليها بقليل هياج واضطراب بسبب تعميد ابنة

هندوسية · فعقد الاهالي اجتماعات عديدة لاظهار استيائهم وكانت المدينة في حالة تهيج · وعلى رغم ذلك عقدنا اجتماعاتنا في هذا الجو العدائي المضطرب ونحن لا نعلم أيأتي احد لسماع كرازتنا ام يمتنعون عن ذلك فشد ما كانت دهشتنا حين شاهدنا الجماهير غفيرة ولم يبدُ منها سوى الاصغاء والاحترام · وفي الليلة الاخيرة اجتمع معي في غرفة خصوصية محاذية لمكان الاجتماع عدد كبير من طالبي الاستفهام عن الحياة الجديدة في المسيح · وبينما كان اولئك القوم على وشك اجابة الدعوة لقبول المسيح وقف احد الحاضرين وسألني « ماذا تعلم عن جمعية كوكلوكس كلان » * فاستغربت هذا السوءال لاني وقتئذٍ (اي منذ اربع سنوات) لم اكد انا نفسي اسمع شيئاً عن تلك الجمعية افليس من الغريب ان تصل اخبارها الى تلك الزاوية السحيقة من بلاد الهند وتكون سبباً لارتباكنا في شهادتنا للمسيح ودعوتنا الناس اليه ؟

ان لي اصدقاء عديدين ينتمون الى هذه الجمعية وهم شديدو

---

* جمعية سياسية دينية نشأت في اميركا اولاً لارهاب الزنوج ومنعهم من الاعتداء على البيض وتجددت حياتها منذ بضع سنوات وتوسعت دائرة اعمالها. بعض اغراضها شريفة الا انها مشبعة بروح التعصب الجنسي والقومي مما يفسد غايتها

الاخلاص والغيرة ولكنهم لما جعلوا لجمعيتهم صبغة دينيـــة بنصبهم الصليب في وسط أندية اجتماعاتهم اصبحت خطتهم تجاه الجنسيات الاخرى سبباً لعرقلة اعمالنا

وهكذا نرى ان الهمس الخفي المقصود بهِ ان يكون محلياً ولمعالجة معضلة اميركية بحتة قد رن صداه في اقصى انحاء العالم وقاطع الرسالة التي كنا نحن نؤديها الى بلاد الهند

ومما اثر تأثيراً شديداً في اذهان الشرقيين وعواطفهم القرار الاخير الذي اصدره الكونغريس الاميركي بموافقته على قانون المهاجرة الذي لا ينطبق على مبادىء المسيحية · واني اتمنى لو عرفت اميركا حقيقة ما فعلتهُ باصدارها ذلك القرار الجائر · فانها حتى صدور القرار كانت حائزة للزعامة الادبية في الشرق وكان الاميركي يشعر بان له مركزاً ادبياً ممتازاً في عيون الشرقيين · فاليابان كانت شاكرة لما ابديناه من العطف والسخاء المدهشين على اثر الزلزلة · وكانت الصين شديدة التودد لنا نظراً للخطة التي اتبعناها في مسألة الغرامات ولموقفنا التقليدي المواد لها · وكانت الهند معجبة بمبادىء ولسن السامية ولو كانت خيالية واشد اعجاباً بما ابديناه من حسن النية في مبادرتنا الى منح الحكم الذاتي لجزائر الفيلبين · وكان الفرس يحبوننا ويحترموننا نظراً للمساعدة التي قدمها بعض الاميركيين توطيداً لمالية بلادهم · ذهبت مرة في بغداد

لزيارة المهاجرين السريان الذين هربوا من وجه الاكراد في اورومية في بلاد الفرس وقد أُتيح لي ان تمكنت من مساعدتهم في وقت حاجتهم فاظهروا شكرهم باهدائهم لي ساعة ذهبية · ولم يكن ذلك شيئاً بازاء الشكر الذي اعرب عنهُ فريق آخر منهم اجتمعوا في دار المرسلية الاميركية في بلاد فارس · فلما اتى الاكراد بغية الفتك بهم رفع المرسل الاميركي الراية الاميركية امام دار المرسلية · ولم يعرف زعيم العصابة الكردية اية راية هي فلما قيل لهُ انها الراية الاميركية تقدم الى دار المرسلية فخاطبهُ المرسل قائلاً «باسم هذه الراية الاميركية اطلب حماية اللاجئين هنــا» فاطرق برهة مفكراً ثم التفت الى رجاله وامرهم بالانصراف · ولا تسل عما عرا اولئك اللاجئين من الفرح بنجاتهم فهرعوا الى الراية يقبلونها لانها كانت سبب نجاتهم من الذبح

هذا كان مقام الراية الاميركية في الشرق عند نهاية الحرب العظمى وعلى اثرها · الا اننا حالما اجزنا قانون المهاجرة تنازلنا عن تلك الزعامة التي كانت في ايدينا

هذا ولا اريد ان يفهم من كلامي اني احبذ فتح باب المهاجرة الى الولايات المتحدة على مصراعيهِ دون قيد او شرط · ولكني ارى ما رآه مجلس اتحاد الكنائس الاميركية في آخر قرار اصدره وهو: «اننا نلح في طلب سن قانون لرفع مستوى الشروط التي تشترط

لدخول المهاجرين الى الولايات المتحدة وتطبيقهِ على جميع الامم على السواء ومنح الجنسية الاميركية لجميع الذين يدخلون البلاد طبقاً لهذه الشروط بصرف النظر عن جنسيتهم ولونهم وقوميتهم »

وهذا القانون يخولنا الحق بان نرفع مستوى الاشخاص الذين نسمح لهم بدخول بلادنا الى اي حد شئناهُ بشرط ان لا نجعل تمييزاً بين الجنسيات يكون بمثابة اهانة لبعضها

ولو ترك القانون الحالي ليسري مفعوله على جميع الامم على السواء فلا ينتظر ان يكون عدد اليابانيين والهنود والصينيين الذين يسمح لهم بدخول الولايات الا دون ٢٥٠ نفساً وهو عدد لا يذكر بازاء ١١٤ مليوناً . ولا يمكن ان تنشأ عنهُ مشكلة اجتماعية او اقتصادية فضلاً عن ان اهالي الشرق الاقصى ليسوا متهافتين على المهاجرة الى اميركا . ولو ترك هذا القانون دون تخصيص الشعوب المشار اليها بالمنع لما احدث استياء ولا ولد روحاً عدائياً

كنت احادث احد كبار الموظفين الهنود وهو نائب رئيس المجلس التشريعي فقلت لهُ :

« افرض اننا تمكنا من ان نحرز للهنود حق الدخول الى الولايات المتحدة على النسبة المئوية التي يسمح بموجبها بدخول الاوربيين . فلا يبلغ اذ ذاك عدد الذين يستطيعون دخول الولايات المتحدة الا نحو

اربعة او خمسة اشخاص بيد انهُ الان يستطاع بواسطة الحصول على اذون خصوصية من القنصل الاميركي دخول ٨٠٠ او ٩٠٠ نفس كل سنة . أفلا نكون قد اسأنا الى الهند بتطبيق قانون النسبة المئوية عليها ؟ »

فاجاب : « كلا . فلا يهمنا عدد الذين يرحلون الى اميركا من ابناء وطننا بل نفضل انهم ان لا يغادروننا اليها . ولكننا لا نريد ان يهانوا وتهان امتهم اذا ذهبوا » وحقيقة الواقع هي ان عدد الذين يدخلون الولايات المتحدة من بلدان الشرق الاقصى تهريباً عن طريق الحدود المكسيكية والكندية يزيد كثيراً عن ٢٥٠ ولا وسيلة لنا لمنع دخولهم اذ لا نستطيع اكراه حكومتي تينك البلادين على منع هذا التهريب المخالف للقانون ولا هما شديدتا الميل الى مساعدتنا في تنفيذ قانوننا . ولكن قصر نظر الكونغريس قد اوصلنا الى حالة من جهة ازدياد سيل المهاجرة اسوأ من ذي قبل واذا حبذتُ تعديل هذا القانون فما ذلك لرغبتي في فائدة بلادي فقط بل لعلمي بما لهُ من التأثير في عمل المرسليات المسيحية . ولانهُ من مبادىء المسيحية ان نعامل الغير — امماً وافراداً — كما نريد انهم يعاملوننا هم ايضاً

قال بعضهم ان الغاء هذا القانون يفيد اكثر من ارسال مئة مبشر الى بلدان الشرق . اما انا فارتاب في صحة هذا التقدير ولكني اقول ان

في بعض دوائر العمل سوف يتعذر على المرسلين الذين يعملون فيها الان ان يتقدموا تقدماً محسوساً في عملهم قبل الغاء هذا القانون

واني ساعود الى الشرق مثقل الفواد لعلمي باني ساجد ذاتي لدى وصولي الى الهند مضطراً الى الاعتذار عن موقف وطني الاصلى تجاه وطني المكتسب. وسوف تعرض هذه المسألة امامي في كل اجتماع اعقده حين افتح الباب لالقاء الاسئلة كما تعرض في المحادثات الشخصية وفي ما سأراه من الجمود وعدم الاكتراث. ان هذا القانون قد ضرب على ايدينا بينما نحن نمدها بحسن النية والصداقة لنصافح امم الشرق مع انه من الشرق جاءنا الشيء الوحيد الذي لهُ قيمة حقيقية في مدنيتنا والذي نعلق عليهِ املنا بالخلاص -- وهو المسيح

ادرك الهنودان يسوع كان ينظر الى الانسان كانسان دون اعتبار جنسيتهِ ومولدهِ ولون بشرتهِ وكان يعتقد بقداسة «الشخصية» ولا يرى في البشرية الا جنسية واحدة ولوناً واحداً وروحاً واحدة. هذه هي الروءيا التي رآها يسوع وكان يبتغي نقلها الى مخيلات الناس. وقد ادرك اهالي الشرق هذه الحقيقة فاصبحوا يحكمون علينا بموجبها. حكى لي احد الهنود الحكاية الاتية عن اصل الجنس الابيض قال: ان الله سال الانسان الذي هو الان ابيض «ماذا فعلت باخيك» فامتقع لونهُ وابيض من شدة الخوف والوجل. وهذا سبب بياض بشرتهِ

كتب المستر اندروز ما يأتي قال: «قال لي صديق من كرام الهندوس ألا ترى ما هو جارٍ؟ فان المستر س... يهدم عملكم باسرع مما تستطيعون انتم بناءه ُففي كل مرة يشير الينا بتهكم و يعيرنا بلون بشرتنا فهو يلطم دياناتكم لطمة قوية. انتم تعلموننا ان نظام الطبقات الاجتماعية عندنا نظام قاسٍ شرير لكننا نرى انكم انتم المسيحيين لمجرد كونكم من الجنس الابيض تضعون ذواتكم في طبقة اعلى من الجميع»

وحقاً انني لا ارى فرقاً بين هذه الطبقة البيضاء التي تكونت في الهند و بين طبقة البرهميين فيها الا ان الاولى مبنية على اساس اللون والثانية على اساس الاسرة التي يولد فيها الانسان. وكلاهما مؤسستان على امر عرضي وهو مولد الانسان. فان وجد بينهما فرق حقيقي فهو هذا: ان فكرة الطبقات عند البرهمي مطابقة لدينهِ بيد انها عند الاوربي والاميركي تناقض ديانتهُ على خط مستقيم. ومع ان كلا النظامين يجب ان يزول فنظامنا اشد سماجة واوجب للملامة

جلست في مساء احد الايام مع «بارا دادا» شقيق فيلسوف الهند وشاعرها الكبير طاغور وهو نفسهُ فيلسوف ثاقب الفكر. فدار بيننا حديث طويل قال لي في خلالهِ عبارة اثرت في نفسي تأثيراً شديداً وهي: «ان يسوع كامل الصفات وعجيب. و لكنكم ايها المسيحيون لا تشبهونهُ»!

فلو كنا نشبه يسوع ولو كنا نقتبس روحه ونظرتهُ الى الحياة فماذا كان يجري ؟

كان خطيب هندي يخاطب جماعة من المعلمين في جنوب الهند عن موضوع تهذيبي فقال لهم : « اني ارى ان كثيرين منكم مسيحيون · ومع ان هذا الخطاب ليس دينياً فلا يسعني الا الخروج قليلاً عن موضوعي لاقول انكم ان كنتم ايها المسيحيون تعيشون مثل يسوع المسيح فالهند كلها تكون تحت اقدامكم غداً » · ولم يقل هذا الخطيب الا الحقيقة

وقد وضع هندي آخر هذه الحقيقة في قالب اخر وهو رئيس قضاة ولاية وطنية وقد تراس احد اجتماعاتي · ففي ختام خطابهِ وجه الكلام الآتي الى الجمهور : « سمعتم الليلة ما هو معنى ان يكون الواحد مسيحياً فان كان التشبه بالمسيح هو معنى المسيحية فاني ارجو ان تكونوا جميعكم مسيحيين في حياتكم » · ثم التفت الينا نحن المسيحيين وقال : « لي كلمة واحدة اخاطبكم بها · لو كانت حياتكم انتم المسيحيين اشد شبهاً بحياة المسيح يسوع لكان عمل التجديد هذا يجري بسرعة اعظم مما يجري الان » وقد قال ما قالهُ بكل اخلاص وصدق

وقد عبر عن راي الشرق في الغرب كما يراهُ الشرق في نور شخصية يسوع شاعر بنغالي في قصيدة ارسلها يوم عيد الميلاد الى صديق

المستر اندروز قال فيها ما ترجمتهُ :

« ايها المسيح الكبير النفس ، في هذا اليوم يوم ميلادك المبارك نحن غير المسيحيين نحني امامك ، اننا نحبك ونعبدك نحن غير المسيحيين لانك مرتبط بآسيا بربطُ الدم والقربى

« نحن الشعب الحقير المنتمي الى بلاد عظيمة مسمرون الى صليب العبودية . ننظر اليك صامتين ، اليك يامن تألم وتجرح في كل دور من ادوار عذابنا — وقد نزل الحاكم الاجنبي على رؤوسنا كاكليل من الشوك واصبح نظام الطبقات الاجتماعية عندنا فراشاً من الاسنة نتقلب عليهِ متالمين

« يقف العالم منذهلاً تجاه جشع اوربا لامتلاك الاراضي وهوذا الامبيريالزم والراسمالية يرقصان معاً بفرح دنس . والساحرات الثلاث شهوة الحرب وشهوة السلطة وشهوة الكسب تقصف على مواقد اوربا الفارغة بتهتك وخلاعة

« لم يبقَ لك مكان هناك في اوربا . فتعال ايها السيد المسيح تعال من هناك . خذ لك موقفاً في آسيا بلاد بوذه وكابر ونانك . فمرآك يخفف اعباء الحزن عن قلوبنا . يا معلم المحبة اهبط الى قلوبنا وعلمنا الشعور بآلام الاخرين لنخدم الابرص والمنبوذ بالمحبة الشاملة الجميع »

وهذا النداء الشعري لا ينقص شيئاً من قوتهِ لو تمنى الشاعر فيهِ ان المسيح بدلاً من ان يهجر بلدان الغرب يتمكن من داخلية حياتها اكثر مما هو متمكنٌ منها الان

كلا ايها السيد المسيح لا تذهب لاننا نحن ايضاً لنا قلوب مثقلة بالاحزان · وان كان الشرق قد صلب على صليب الاستعباد فنحن مصلوبون على صليب المادية· كلانا في حاجة اليك—الشرق والغرب—في حاجة ماسة

ولكن هذا الحكم الذي يحكم بهِ الشرق علينا انما هو نداءٌ يستفزنا لنعود الى سيدنا وربنا · ولهذا نرحب بهِ فهو الزلزلة التي لا تؤْذينا بل تحطم قيودنا وهو الملاك الذي يضربنا في جنبنا ويقول «قوموا انهضوا» · ان انتقاد الشرق لنا هذا الانتقاد الدقيق لهو نعمة من الله توقظنا من السبات الذي يخشى علينا منهُ بعد ان اخذنا جرعة كبيرة من مخدر الثراء المادي · انها صوت الله ينادينا · انها وخز في اجنابنا لايقاظنا

وان كنت لم استطع تجلية ما اريد تبيانهُ فالقصة الاتية تزيده جلاءً ووضوحاً : جاءَني ذات يوم طبيب هندي مسيحي ليزورني في احدى المحطات الجبلية النائية وقال لي انهُ مضطرب الافكار · ثم شرح لي قصتهُ كما يلي · قال : « كنت طبيباً في احدى البواخر وفي

هنغ كنغ التقيت بشاب مجوسي فنشأت بيني وبينهُ صداقة وفي ذات يوم التفت اليّ وقال 'هل انت عائش العيشة المسيحية ؟' فاجبتهُ ان ذلك مستحيل . قال 'كلا قل انهُ صعب ولكن لا تقل انهُ مستحيل لان حضور المسيح الحي معك يمنحك القوة' . فوجدت ان هذا المجوسي اصدق مسيحية مني ولما ابحرت باخرتي عائدة الى الهند وقف صديقي المجوسي على الرصيف ليودعني ولما ابتعدت الباخرة من مربطها وضع صديقي كفيهِ حول فمهِ بهيئة بوق وناداني عن بعد قائلاً « تذكر . اطلبوا اولاً ملكوت الله وبره وهذه كلها تزاد لكم » ولم يبرح منظر ذلك الفارسي المجوسي من مخيلتي ولا يزال صوتهُ يرن في اذني قائلاً « اطلب اولاً ملكوت الله » . وها انا اطلب ملكوت الله اولاً . وقد جئتك لكي تصلي معي »

فجثونا وصلينا وسلم ذلك الطبيب نفسهُ للمسيح . وقام سعيداً بعد ان اصبحت ارادتهُ متفقة مع ارادة المسيح وقد راى ان ملكوت الله يجب ان يكون في المقام الاول ولكن الغرابة في هذا كلهِ هي ان يكون مرشده الى هذه الحقيقة رجلاً مجوسياً

اني ارى بعين الخيال الشرق المستيقظ . وقد راى الخطر الداهم المحيق بنا بسبب اندفاعنا وراء الماديات والتعصب القومي وعلم اننا لا نستطيع انقاذه الا اذا نجونا نحن . نراه واقفاً على جانب من الهوة

السحيقة التي تفصل بين الشرق والغرب وقد وضع يديهِ حول شفتيهِ واخذ ينادينا: «اطلبوا اولاً ملكوت الله». وعسى ان هذا النداء يظل يتردد في مسامعنا حتى يقودنا الى التوبة والى المسيح كما حدث لصديقي الطبيب الهندي. وبغير ذلك لا نستطيع ان نرجع عن غوايتنا ونشاطر اخواننا في البشرية بركات الخلاص

ويمكن تلخيص الحالة في كلمات احد رجال السياسة المسيحيين وهو رجل مفكر بعيد النظر قال: «اننا نعلم ان احوال الغرب توجب على المسيحيين التواضع التام وانهُ يجب ان يصحب كل مسعى او عمل تبشيري جديد شعور قلبي عميق بما يمكن تسميتهُ 'التوبة القومية'» وهذا الراي ينطبق على نصيحة مهاتما غاندي. فقد قلت لهُ يوماً في حديث. «يا سيد غاندي انني شديد الرغبة في ان ارى المسيحية متوطنة في الهند لكيلا تبقى في ما بعد شيئاً اجنبياً مرتبطاً بشعب اجنبي وحكومة اجنبية بل تصبح جزءًا من حياة الهند القومية يقوم بنصيبهِ من العمل لترقية الهند وافتدائها فماذا تقترح من الوسائل ليتسنى لنا ذلك؟» فاجاب «اول ما اقترحهُ انكم انتم ايها المسيحيون من مرسلين وغيرهم تبدأون ان تحيوا حياة اشد شبهاً بحياة يسوع المسيح مما تفعلون الان»

لم يكن حاجة الى ان يقول اكثر من هذا القول. فان ثلاثمئة

المليون من اهالي الهند ينظرون نظره ُ وان ملايين الشرق الصامتة تنطق بفمهِ مخاطبة اياي كممثل للغرب ومخاطبة الغرب باسره في وقائلة « ان كنتم تأتونا بروح سيدكم فلا نستطيع مقاومتكم »

قال غاندي « وثاني امر اقترحه ُ هو ان تمارسوا ديانتكم دون تزييفها او تخفيفها » . وهذا الاقتراح يستوقف النظر كالاول . لانهُ من الغريب ان اعظم رجل غير مسيحي في العالم يطلب منا نحن المسيحيين ان لا نزيف ديانتنا ولا نخففها . اي ان لا نقدم للعالم انجيلاً خالياً من القوة بل نقدم الانجيل بكل قوتهِ وبساطتهِ ومطاليبهِ السامية . ولكننا ماذا نفعل؟ قال احدهم اننا لقحنا العالم بصنف مخفف من المسيحية حتى اكتسب العالم مناعة ضد قبول المسيحية الحقيقية . وقد اصبحت الان انحاء شاسعة من العالم المسيحي ملقحة بما نسميه المسيحية المخففة فاصبحت تنظر الى المسيحية الحقيقية كشيء غريب ومستحيل . او كما قال احد الكتاب «ان كنائسنا مولفة من اشخاص يدهشهم ويرعبهم وضع تعاليم المسيحية موضع الاجراء والعمل كما يدهشهم ويرعبهم ابداء الشك فيها » . واني لا اتوق الى ان ارى الهند تقتبس نوعاً مخففاً من المسيحية بل اود ان اراها تقتبس النوع الصافي الخالص

نعود الى اقتراحات غاندي فقد اقترح اقتراحاً ثالثاً وهو : « اقترح انكم تشددون النبرة في تعليمكم على المحبة لان المحبة هي قلب الديانة

المسيحية وروحها» ولم يقصد غاندي بالمحبة العاطفة فقط بل اراد بها المحبة كقوة عاملة وهي القوة الحقيقية الوحيدة في عالم الاخلاق · واراد ان تطبق مبادئها بين الافراد والجماعات والجنسيات والامم كالرابطة الوحيدة للعالم · ولا عجب اذا سالت الدموع من مآقي رجل كهذا الرجل الرقيق الشعور الشديد المحبة حين تلوت لهُ الاصحاح الثالث عشر من رسالة بولس الاولى الى اهل كورنثوس

والاقتراح الرابع هو · «اقترح عليكم ان تدرسوا الاديان غير المسيحية وآدابها بعطف اكثر من السابق لتروا ما هو الصالح فيها فتستطيعوا بذلك التقرب من الشعوب التي تدين بتلك الاديان» وهذا ايضاً اقتراح صحيح · ويجب ان نشكر الله لكل حق اين وجدناه لعلمنا انه ليس الا علامة او دليلاً يشير الى يسوع الذي هو الحق كلهُ

لما ذكرت هذه الاقتراحات الاربعة لرئيس قضاة المحكمة العليا في شمالي الهند وهو بريطاني مسيحي ذو صفات نبيلة وعواطف شريفة قال معجباً · «لم يكن في وسع غاندي ان يضع يده على اربع نقط اعظم اهمية من هذه · انهُ لم يكن ليستطيع ان يفعل ذلك لو لم يكن ذا مواهب روحية سامية ونظر صحيح»

سألت مرة زعيماً وطنياً آخر غير غاندي السؤال عينهُ اي

كيف نستطيع ان نجعل المسيحية مستوطنة في الهند فاجاب «يجب ان يكون بينكم كثيرون مثل فلان وفلان» — وذكر اسمي اثنين من المرسلين اشتهرا باخلاصهما في محبة المسيح ومحبة الهند

فهنا اذاً «خلاصة الكلام» . من كل جانب نسمع القول اننا يجب ان نكون مسيحيين . ولكن مسيحيين بمعنى اكبر واوسع مما كناه حتى الان

بقيت كلمة تحذير اختم بها هذا الفصل وهي : ان بعض الذين لا يوافقون على المساعي الخيرية التي غرضها انهاض من هم خارج نطاق جنسياتهم قد يتمسكون بما سبق بيانهُ في هذا الفصل كمبرر لايقاف كل مسعى لمساعدة الامم الاخرى وحصر المساعي في ابناء قومهم ولكنهم ينسون ان هذا خطأ مؤذٍ لانهُ في اللحظة التي نمتنع فيها عن مشاركة الاخرين في بركاتنا، اذا لم نجد نتيجة ولا مكافأة تعود الينا، ففي تلك اللحظة ننقطع عن ان نكون مسيحيين اذا حصرنا اهتمامنا بذواتنا

«الشرق شرق والغرب غرب ولا يمكن ان يلتقي الاثنان» قال هذا القول رُدْيرْد كبلنج الشاعر الانكليزي ولكنهُ اخطأ فيهِ

فان الانسان انسان وكل انسان يلتقي مع اخيهِ الانسان على قدم المساواة. هذا ما علمنا اياه ابن الانسان وقد امرنا ان نتعلم عند قدميهِ

قيمة الانسان وان نراه غير ناظرين الى جنسيتهِ ومولده . وان نجد في الآري الابيض والآري الاسمر — في المنغولي والافريقي الذي سفعتهُ الشمس — وحدة الجنس البشري ونفس الانسان الثمينة الطامحة التي لمستها يد الله

فلا تفتخرنَّ ايها الاري الابيض على اخيك الاري الاسمر بعظمة ليست فيك بل في الهبة التي مُنِحتها . لان تلك اليد التي خرقتها المسامير والتي مست حياتك فمنحتك رفعة المقام ورقي الاخلاق انما كانت يداً آسيوية

واحذر لئلا تقوم كبرياؤك الجنسية حائلاً بينك وبين تلك اليد فتتحول عنك وتمس تلك الشعوب التي تحتقرها انت اليوم وتمنحها ما فقدتهُ انت من العز ورفعة المقام

يأمرك مولاك ان تتناسى ذاتك الحقيرة في الخدمة وان تمد يد المعونة لاخوانك وبذلك تجد حقيقة ذاتك فتربح انت ويحيا غيرك

واذا تحررت من قيود القومية التي تقيد افكارك وموقفك تجاه الغير فان نفسك المسيحية ستجد بانكار الذات ذاتاً اعظم واوفر غنى في الاخوّة اذ تشترك مع المسيح في فكرة الملكوت

ملكوت لا شرق ولا غرب فيهِ ولا جدران تفصل بين قبيلة

وقبيلة بل اخوّة تشمل الجنس البشري كلهُ ولهُ مليك واحد هو «ابن الانسان»

الانسان انسان وسيجتمع مع اخيه الانسان على مبدإ الاخوة هذا ما قالهُ ابن الانسان · فامامك يا سيد نجثو وعند قدميك نجلس لنهتدي بهديك ونتعلم ما تلقيهِ علينا من دروس



الفصل السابع

وقت الاسئلة

بعد كل اجتماع نعقده في الهند نفسح المجال لغير المسيحيين من الحاضرين لالقاء الاسئلة. ولما بدأت هذا الامر كنت اعلم اني مقدم على امر صعب عظيم الخطر لان الهندي ذو عقل راجح وفكر ثاقب ويحب الجدال وكنت اعلم انه فضلاً عما يحتمل ان ينجم عن هذه الاسئلة من تفنيد كل ما اقوله فهنالك خطر آخر وهو ان المسيحية لا يمكن فهمها حق الفهم الا في جو هادئ من القابلية الاخلاقية والروحية. وكثيراً ما تغير الاسئلة جواً هادئاً الى جو مضطرب عدائي ولكني على رغم ذلك لما رايت ان كثيراً من الاراء الفاشية بين الهنود تدل على اساءة فهمهم لحقيقة معنى المسيحية، وان ما يرفضونه ليس في الحقيقة الا صورة ممسوخة من المسيحية الحقيقية، لم اجد بدا من مواجهة الحقائق اية كانت وعدم التنصل من اية معضلة تنشأ. ولم اكن لاقدم على مثل هذه المغامرة لو لم اكن منذ بدء عملي قد اعتصمت باية من الكتاب كأنما وضع نصها خصيصاً لاجلي وهي: «لانهم سيسلمونكم الى مجالس وتساقون امام ولاة وملوك من اجلي

شهادة لهم · فلا تهتموا كيف او بما تتكلمون بهِ لان لستم انتم المتكلمين بل روح ابيكم الذي يتكلم فيكم » وقد كان هذا الوعد الاكيد كافياً لي فاحللتهُ محل الثقة والتصديق ولم يكن بوسعي ان افعل اقل من ذلك

وكانت ساعة الاسئلة احياناً تصبح شديدة التوتر · ولكننا كنا دائماً نبذل الجهد في ان لا ندعها تنحط الى مناقشات فارغة او تودي الى الاستياء واثارة العواطف · لان الذي يفقد تملكهُ على عواطفهِ يخسر قضيتهُ · ثم ان غرضنا ليس الفوز في معمعة المجادلات ولا الانتصار على خصومنا فيها بل هو اكتساب النفوس · ولهذا لا اذكر انهُ بقي اقل اثر من الاستياء بعد هذه الاجتماعات · وقد حاولنا ان نظهر اننا نستطيع المناقشة في تلك المسائل المعقدة بمزاج رضي هادئ

اما مجال الاسئلة فمتسع بعضها يجيء من سائل مرتبك الافكار ولكنهُ ذو اخلاص وغيرة روحية وبعضها من رجل مماحك لا غرض لهُ الا ان يظهر مهارتهُ

ولكي يتضح للقراء نوع الاسئلة التي تسأل في الهند الان اورد امثلة منتقاة من مئات الاسئلة التي كانت تلقى عليَّ وها هي :

س · هل المسيحية ديانة عالمية — اي تصلح للعالم كلهِ ؟ وان

كانت كذلك فلماذا لا يزال روح التعصب متأصلاً في داخلها ·
فالكاثوليك يكرهون البروتستانت والروم الارثوذكس يعارضون
الاثنين ؟

س · لماذا خلق الله العالم مع علمهِ ان سيتولد فيهِ الشر وسيوجد
فيه اناس قساة كالوحوش الضواري يتاجرون بجوع اخوانهم في
البشرية ويحوّلون صبر الفقير وعرق جبين العبد الرقيق الى نقود
يكنزونها ؟ وانهُ عالم يصبح فيهِ الوغد المتملق صاحب النفوذ والسؤدد
والبارُّ النزيه طريح السجن؟ وبالاختصار انه عالم يصلب فيه المسيح؟
فمن هو المسؤُول عن وجود عالم كهذا ؟

س · اتعتقد باخلاص انهُ يوجد اناس مسيحيون عندهم روح
المسيح الديموقراطية الحقيقية وكيف تعلل وجود الكبرياء القومية
والنعرة الجنسية السائدة بين الغربيين ؟ وما هو الروح المسيحي الذي
يحمل الاوستراليين والكنديين والاميركيين على منع اهالي الهند من
دخول بلادهم والتمتع بما يتمتعون بهِ هم ؟

س · أليست الحرب الحاضرة — وهي حرب بين اتباع المسيح —
برهاناً على ان في تعاليم المسيح عيباً ونقصاً ؟

س · لنفرض ان اربعة رجال واقفين في زوايا مربع ارادوا التقدم
الى مركز المربع افلا يسيرون في طرق مختلفة ولكنها جميعاً موصلة الى

المركز ؟ وهكذا توجد اديان مختلفة تؤدي الى المركز الذي هو الله وان تكن الطرق غير متماثلة · فلماذا تقولون انهُ لا توجد سوى طريق واحدة ؟ ان الطرق متعددة كما ان الادوية متعددة ولا تستطيعون ان تصفوا دواء واحداً لجميع الامراض

س · في خطابك في الليلة البارحة فرضت كقضية مسلم بها ان جميع قصص الانجيل حقيقية · افلا يمكن ان كاتبي الاناجيل ، المعروف عنهم انهم لم يكونوا رجالاً ذوي تهذيب راقٍ ، شوّهوا الحقائق او بالغوا فيها ؟ او لا يمكن ان يكون تحمسهم قد اضلهم فاخطأُوا في احكامهم العقلية وكتبوا ما لم يكن سوى اشاعات كاذبة فاشية بين جماهير العامة الجهال ؟

س · لنسلّم انهُ لو كان العالم تحت سيادة المبادىء المسيحية لكان شبيهاً بالفردوس لكن الواقع هو ان المسيحيين هم الذين استولوا بوسائط اثيمة على الجزء الاكبر من هذا العالم الذي يئن تحت سلطتهم الحديدية ولهذا أفلا يجدر بالمرسلين بما لهم من مواهب العقل والقلب ان يبذلوا مجهوداتهم في ترقية اخلاق ابناء دينهم بدلاً من اتباع طريق عقيمة لمحاولة حمل الغير على اعتناق دينهم

س · لماذا نرى الطلاق اصبح متاصلاً في المسيحية في بلدان الغرب ؟

س · هل الملك جورج مسيحي حقيقي ؟ وهل فلان (وهنا اشار السائل الى احد وجهاء المسيحيين الهنود الحاضرين) مسيحي حقيقي ؟

س · ألا تظن اننا نستطيع التأليف بين المسيحية والاسلام ؟ ان يسوع عاش حياة سامية خيالية خالية من الخطية ولم يتزوج · ولكن محمداً تزوج ولهذا اظن اننا اذا جمعنا بين هاتين الديانتين نجعل يسوع نظرية الدين او مثالها الاعلى ومحمداً مثالها العملي

س · نحن شابان سمعنا خطبك ونرغب في ان نصير مسيحيين وبما انك رجل قديس نريد ان نمتحن قوتك · ولهذا سوف لا نوقع هذه الورقة · أفتستطيع ان تعرف من نحن ؟

س · لماذا يلبس المسيحيون ربطات رقبة (كرافات) هل لانها علامة الصليب ام هي زي لا علاقة لهُ بالدين ؟

س · لماذا نجد المرأة في المسيحية في احط الدرجات اذ ينظر اليها نظر الاحتقار وليس لها حقوق البتة مع انها في الاسلام ذات منزلة مساوية لمنزلة الرجل رفعها اليها محمد بقولهِ « لها مثل ما عليها » · افليس الاسلام اذاً افضل من المسيحية ؟ (سأل هذا السؤال رجل مسلم)

س · ان كان خلاص البشر يتوقف على الايمان بالمسيح فقط

فماذا يكون نصيب من لا يستطيع عن اخلاص الايمان بالانجيل المسيحي ؟

س٠ ماذا يحدث لنفوس اولئك الذين لم تسنح لهم فرصة لسماع انجيل المسيح ؟

س٠ ان كنت أعاقب على خطاياي وكان من العدل امام الله والانسان ان يحل بي هذا العقاب فلماذا يتقدم اليَّ شخص آخر عن جهل و يحاول مساعدتي باسم المحبة للتخلص من العقاب الذي استحقهُ ألا يُضعف قضيتي امام الله بمقاومة تدبير الله وناموس الطبيعة ؟

س٠ تقولون انه بعد سقوط الانسان لم يتركهُ الله وشأنهُ بل وضع منهاجاً يستطيع بهِ استرداد السعادة التي اضاعها٠ وما هو هذا المنهاج ؟ انهُ ارسل ابنهُ الوحيد ليموت عن الناس وذلك بعد ان مرت الوف السنين وهلكت ملايين النفوس ومضت الى مكان العذاب المسمى « جهنم » الذي اعده الله لهم٠ والان أليست هذه القصة كلها حكاية عجائزية كالحكايات التي تخيف بها الخادمات اطفال اسيادهنَّ ؟

س٠ لماذا يقبل الهندوسي المسيح ولكنهُ يرفض المسيحية ؟

س٠ أيمكن للحياة الادبية ولو كانت محلاة بالعواطف الجميلة ان تشبع نفس الانسان التي تتوق الى اتحاد دائم لا يزول مع الروح الازلي ، اتحاد يفوق قيود الحيز والنسبية ؟

س . هل العالم دار امانٍ للمسيح ؟ اي انهُ لو اتى المسيح اليوم الى الامم المسيحية افلا تظن انهم يصلبونهُ ؟

س . أيستطيع المرء ان يصير مسيحياً دون ان يعتمد ؟

س . اتظن انهُ من الضروري ان يقبل المرء العقيدة المسيحية لكي يصير تابعاً للمسيح بالحق والتمام وهل توافق على التعريف الذي وضعهُ احد الفرنسويين للعقائد اذ قال : « ان العقيدة هي ايمان الاموات الحي وايمان الاحياء الميت »

س . ايجوز لي ان اقترح عليكم بكل تواضع واحترام ان تكرزوا بالمسيح بدلاً من « المسيحية » في الهند ؟

س . هل اختصت المسيحية بفكرة الفدى او لا وجود لها في الاديان الاخرى . او لا تظن ان فكرة كون الله صديقاً وعشيراً للانسان هي الفكرة التي تنادي بها احدى طرق الفلسفة الهندية وهي الطريقة المعروفة بالفايشنافزم

س . ان كانت المسيحية اهلاً لان تصير ديانة البشر العامة فما هي الحقائق الجديدة او الخاصة بها التي لم تعلم بها الاديان الاخرى العظيمة كالهندوسية والبوذية

س . أليست الهندوسية التي تعلم الايمان باله شخصي واله غير

شخصي اوفى اشباعاً للنفوس غير الراقية من المسيحية التي لا تعلم الا الايمان بالله شخصي

س · حيث ان المادية والترف والسكر تتبع المسيحية دائماً حيثما ذهبت فكيف تستطيع ارشاد الهندوس الذين ينظرون الى الحيـاة ومعضلاتها نظراً روحياً سامياً ؟

س · بما ان الديانة المسيحية ليس لها نظام فلسفي يدعمها وليست الا تأليه السلوك الادبي فكيف يمكن ان تشبع مطاليب الشعب الهندي العقلية وهو شعب ذو عقلية فلسفية

س · ان كان يسوع الهاً وانساناً او انساناً الهياً كما قلت امس فاي امتياز لهُ على غيره من الاشخاص الالهيين كبوذا او راما او كريشنا او براهامسا حتى يحق لهُ ان يدعي انهُ مرشد الجنس البشري كلهِ

س · ما هي الامتحانات التي يجب ان اقوم بها لافهم قوة خلاص المسيح

هذه انموذجات من السوءالات التي يطلب مني اجابتها · واصعب ما الاقيهِ ليس اجابة السوءالات المكتوبة بل اجابة السوءالات الشفهية التي تلقى عليَّ على غير انتظار في ختام الاجتماعات · فقد حدث مرة ان تولى «استجوابي» ثلاثون محامياً دفعة واحدة ظلوا

ساعات يمحصون شهاداتي او اقراري · ولكن الآية التي اشرت اليها في فاتحة هذا الفصل قد صدقت معي دائماً · فلا اذكر مرة واحدة في السنوات التسع عشرة خانتني فيها تلك الاية مع اني وجدت احياناً في احرج المواقف · مثال ذلك اني سئلت ذات ليلة هذا السؤال : «اتستطيع ان تورد آية واحدة من الكتاب المقدس تقول قولاً صريحاً ان يسوع سمى ذاته ابن الله ليس ان احد تلاميذه او شخصاً آخر سماه بهذا الاسم بل انه هو سمى نفسهُ بهِ» لما أُلقي عليَّ هذا السؤال شعرت بشبهِ دوار اعتراني اذ كنت اتذكر بصورة غير جلية وجود آية بهذا المعنى الا اني لم استطع ان اتذكر مكان ورودها · واذ اصر السائل على ايراد الاية فتحت العهد الجديد وانا اصلي طالباً من الله ارشادي فوقع نظري على آية تختلف اختلافاً تاماً عن الآية التي كنت افتش عنها ولكنها جاءت طبق المطلوب · وهي التي تروي ان يسوع راى الاعمى الذي شفاه وسألهُ «أتؤمن بابن الله» فاجاب الرجل «ومن هو يا سيد لاومن بهِ» اجاب يسوع وقال لهُ «قد رايتهُ وسمعتهُ والذي يكلمك هو هو» · تلوث هذه الاية بلا تردد كاني كنت عارفاً بها من قبل · ولم يلحظ احد من سامعيَّ ما عراني من الارتباك قبل الاهتداء اليها ولا عرفوا العجيبة التي صنعها الله وقتئذٍ اتماماً لوعده القائل انه «يعطينا في تلك الساعة ما نتكلم بهِ» ولكنني انا عرفت وشكرته تعالى

منذ مجيئي الى وطني رايت ان كثيرين من المسيحيين قلقون وهم يخافون ان صرح الديانة المسيحية بامره ينهار اذا تعرض لانتقاد شديد او اذا سير في العلم الى اقصى ما يمكن الوصول اليهِ بالطرق العلمية المحضة . فاصبح كثيرون من الاتقياء قلقين وجلين وهم يذكرونني باحدى السيدات المرسلات في الهند التي حضرت اجتماعاً عقدناه في احد المراسح الهندية . وبعد انتهاء الاجتماع توجهت بصحبتها لاوصلها الى منزلها . فقالت لي يا مستر جونس اني منهوكة القوى الجسدية بعد اجتماع الليلة فسألتها عن السبب . فقالت « حين القاء الاسئلة عليك كنت طول الوقت قلقة مضطربة حائرة في ماذا سيسالونك وبماذا تجيب ولهذا قعدت على مقعدي ممسكة بهِ كمن يخشى السقوط متوترة الاعصاب مدة ساعتين . والان احس بتعب جسدي شديد » . وان هنالك كثيرين مثل اختنا هذه نراهم متوتري الاعصاب متمسكين (مجازياً) بمقاعدهم بكل قوتهم لخوفهم على المسيحية ان تحطمها معاول الانتقاد

اني اشاركهم في حاساتهم لاني كنت مثلهم زمناً طويلاً بعد ذهابي الى الهند . فقد وجدت الجو هناك مشبعاً بحوامض الانتقاد العدائي حتى كنت اشعر كأن تلك الحوامض تخترق اعماق نفسي كلما امسكت صحيفة غير مسيحية بيدي . ثم جاء الوقت الذي شعرت

فيه شعوراً داخلياً بزوال الخوف وتيقنت ان يسوع يستطيع مواجهة حقائق العالم . وابتدات ان ارى ان لا ملجأ في الحياة الا واحد وهو الحقيقة فان كان يسوع لا يستطيع تحمل صدمة الانتقاد بازاء ما يكتشف من الحقيقة في اي مكان او دائرة كانت فلا يكون هو الحقيقة وكلما اسرعت في معرفة ذلك كان الافضل لي . وقد كان تحوُّل ارادتي الى هذه الدرجة درجة الرضى بانْ يُعرَض المسيح على محكّ الحقيقة حادثاً عظيماً في حياتي لا تقل اهميتهُ عن عزمي على تسليم ذاتي لهُ . وفي الوقت الذي صممت فيهِ على ذلك ساورني الوجل والقلق والحيرة وكنت اتساءل ماذا ترى سيحدث . أيزول ذلك الحلم الذي كنت عائشاً فيه ولكن ما كان اشد دهشتي وسروري حين اتضح لي ان المسيح اجتاز هذا الامتحان وثبت . ولم يثبت فقط بل زاد نور اشراقهِ تألقاً . وانهُ ليس كالنباتات النحيفة الضعيفة النمو التي تزرع في بيوت من زجاج فاذا تعرضت للهواء الطبيعي ذبلت . بل هو يستطيع ان يحيا ويزهو ويزدهر في جو الانتقاد كما في جوّ التسليم لانهُ مغروس في تربة الحقيقة . ولانهُ التعبير الحي عن كياننا الادبي الروحي بل انهُ هو الحقيقة عينها . ولهذا اعلنت ايماني للعالم غير المسيحي هذه السنوات السبع عشرة وقلت لهم « هوذا هو يا اخوان . حطموه ان استطعتم » لكن ضرباتهم لم تكن الا لتزيده لمعاناً ومضاءً ومتانة

خرج المسيح من عواصف الانتقاد سليماً وهو لا يزال يستطيع اجتيازها . وما من طريقة لقتل المسيحية مثل اخراجها من حيز الحياة البشرية بقصد صيانتها . اما الطريقة المثلى لبث نورها واظهار عظمتها فهي ان تزج في معترك الحياة وتترك لتتولى الدفاع عن ذاتها بذاتها . فالمسيح هو خير شاهد لنفسهِ

انشأ الهندوس جمعيـات سموها « ظارْم رَكشا صبهاس » اي جمعيات وقاية الدين . اما المسيح فلا يحتاج الى وقاية بل يطلب ان يعرض امام الناس وهو يتولى وقاية ذاتهِ

ونظراً لهذه الاعتبارات استطعت ان اجيب الاخت الفاضلة التي اشرت الى وجلها من تواتر الاسئلة عليَّ اني كنت في غاية الابتهاج بتلك الاسئلة . وكنت اود من كل قلبي ان يتعمق السائلون في مواضيع الاسئلة الى اقصى درجة ممكنة لانهم اذا فعلوا ذلك فلا بد من ان يتوصلوا اخيراً الى المثول امام يسوع وجهاً لوجهٍ . فالمسيح لم يأتِ ليرشد الناس الى احدى طرق الحياة بل جاء ليكون لهم الحياة ذاتها واذا تعمقوا في تفهم معنى الحياة يتوصلون الى يسوع لانهُ هو الحياة . ثم انهُ لم يأتِ ليعلن عدداً من الحقائق توضع بازاء حقائق اخرى كما يظن البعض ممن ينظرون الى الامور نظراً سطحياً بل جاء ليعلن انهُ هو الحقيقة بعينها واذا تعمق المرء في فحص الحقيقة ودرسها

ترشدهُ الى يسوع فيقابله وجهاً لوجه لان يسوع هو الحقيقة

ولقد صدق الاسقف انج اذ قال: «ان يسوع لم يأتِ الى العالم ليؤسس ديانة بل ليكون هو نفسهُ الديانة» فان كنا متدينين تديناً حقيقياً فلا بد من ان نكون مطابقين لفكره وروحه والا فلا نكون متدينين . وما اصدق ما قاله الشاعر الانكليزي ماثيو ارنولد في هذا المعنى «ان يسوع هو غاية قصوى»

ابدأ بامر تعرف انهُ ذو قيمة ويستحق عناء البحث وتتبعهُ عائداً بهِ الى صورتهِ الاصلية او متقدماً فيهِ الى غايته او صورتهِ النهائية وانظر الى اين يصل بك . خذ مثلاً المحبة فالمحبة هي من الامور ذات القيمة في الحياة وهي تستحق العناء بل هي من واجبات الحياة . تتبعها الى غايتها الكلية تجد انك غير بعيد عن ذاك الذي احب كما لم يحب انسان مطلقاً . او خذ الطهارة وتتبعها حتى تتوصل الى الطهارة الكلية تجد انك ناظر الى عيني ذاك الذي كان اطهر الاقوياء واقوى الاطهار» . واذا كان انكار الذات فضيلة ذات قيمة يجدر بنا اتباعها فاستقصها في ذهنك الى اسمى مثل لها تجد امامك الصليب وترَ المسيح اعظم مثال للتضحية

لهذا لا اخاف مما يلقى عليَّ من الاسئلة لاني اعتقد ان المسيح اساس عالمنا الادبي والروحي وهو اعمق وامتن ارتباطاً بهِ من ارتباط

قوة الجاذبية بالعالم المادي . ومع علمي بوجود اسئلة كثيرة لا استطيع الاجابة عنها لانها فوق ادراكي فاعتقد ان عقول الناس وهي تتلمس الحقيقة لا بد من ان تصل اخيراً الى المسيح وتجد فيهِ الحقيقة القصوى فتتمسك بهِ

ولكن هنالك امراً اصعب من القاء الاسئلة وهو ان القوم في بلاد الهند يمتحنوننا لا بطرحهم علينا اسئلة عويصة صعبة الحل بل بتحرّيهم درجة تمسكنا نحن بروح المسيح فالسؤال الاعظم الذي تسأله الهند بهدوء والحاح ليس عما اذا كانت لنا فكرة حادة ثاقبة بل عما اذا كان لنا فكر المسيح

وقد تجلى لي هذا الامر ذات يوم حين تقدم شابان هنديان عاريا الاقدام مرتديان اثواباً بسيطة وطلبا محادثتي . ومع اني حادثت كثيرين في ذلك اليوم فلم اجد لذة في حديث كما وجدتهُ في محادثة ذينك الشابين فقد كانا متلهبين غيرة وتشوقاً وانتباهاً وفي اليوم التالي جاآني ثانية واعترفا انهما ينتميان الى اغنى اسر المدينة واوجهها وقد اتيا في اليوم السابق حافيين ومرتديين ثياباً رثة بقصد امتحاني ليتحققا اخلاصي فيما قلتهُ لهما عن المسيح انهُ ينظر الى الناس في شخصيتهم غير مكترث لجنسيتهم وأُسرتهم ولون بشرتهم وحالتهم المالية . وارادا ان يعرفا هل اسير طبقاً لما خاطبت الناس بهِ اذا ظننت انهما شابان

فقيران . وقالا انهما كانا يفكران في اعتناق الديانة المسيحية ولكنهما ارادا ان يقوما بهذا الامتحان قبل البتّ في ذلك . وقد اتما امتحانهما وشرحهما لهُ بمنتهى البساطة والسذاجة حتى لم يكن ممكناً لاحد ان يرتاب في صدق نيتهما وخصوصاً بعد ان اثباتهُ باعلان عزمهما على اعتناق الدين المسيحي

ان هذه الحادثة لم تثر فيَّ روح الافتخار بل بعكس ذلك اثابتني الى رشدي لاني لو كنت ابديت لهما عدم اكتراث او وقفت تجاههما موقف المترفع على من هم دونهُ مقاماً — واعترف باني فعلت ذلك مراراً — فماذا كانت النتيجة ؟

ان الهند تسأل سؤالات عديدة منها تسألها شفهياً وهي اسئلة دقيقة خطيرة ومنها ما هو اشد اهمية حيوية وهي الاسئلة غير الصريحة التي بها تزننا وبموجبها تصدر حكمها علينا ومن ذلك تتوصل الى استنتاج نتائجها عن المسيح

سال رئيس الكهنة يسوع عن تلاميذه وعن تعليمهِ . والعالم غير المسيحي يسال اليوم هذين السؤالين وعلى هذا الترتيب : « ما هي حياتك ؟ » « وما هو النور الذي تستضيءُ بهِ ؟ »

اخذت مصباحي ذات ليلة وخرجت الى حيث اجتمع اناس يختلفون عني معتقداً وعادات . وقد جمعت بينهم رابطة المسعى المشترك

ووحدة الغاية فضممت مصباحي الى صدري خيفة من ان تهب عليهِ رياح التفكير والنقد وتعبث بهِ امطار البغض فتطفئهُ

وتلجلجت عند ذاك الصلوات على شفتيَّ ولكني على رغم خوفي عزمت على ان احب اولئك القوم وان لا احاول شيئاً سوى المحبة . فاحببتهم واصغيت الى كلامهم وتعلمت منهم وكنت من حين الى الى آخر ابدي فكراً او اقدم ملحوظة . فسمعت كلامهم العذب وشاهدت اساليبهم اللطيفة وشعرت ان يد السلام لمست نفسي ولم يكن هنالك تمزيق للجسد او عذاب تقاسيهِ الروح في سعيها وراء الله

بحث اولئك القوم وفتشوا اعماق افكارهم فاشرق عليهم نور الاب السماوي وسمعوا وقع اقدام الروح القدير ماشياً في وسط الطبيعة النابضة بالحياة . وسمعتهم يشدون اوتار قلوبهم لتلتقط انغام الموسيقى الالهية

ولكني سالت الفيلسوف البرهمي بروح العطف عليهِ والاشتراك معهُ في تشوقهِ الى ادراك الحقيقة — سالتهُ هل وجدت طريقاً تنيلك الخلاص في هذه الحياة فاجاب آسفاً « كلا لم اجد »

وردد جوابهُ عالم متالم يقول كل من فيهِ « اني لم ارَ الطريق بعد ولم اهتدِ الى الخلاص »

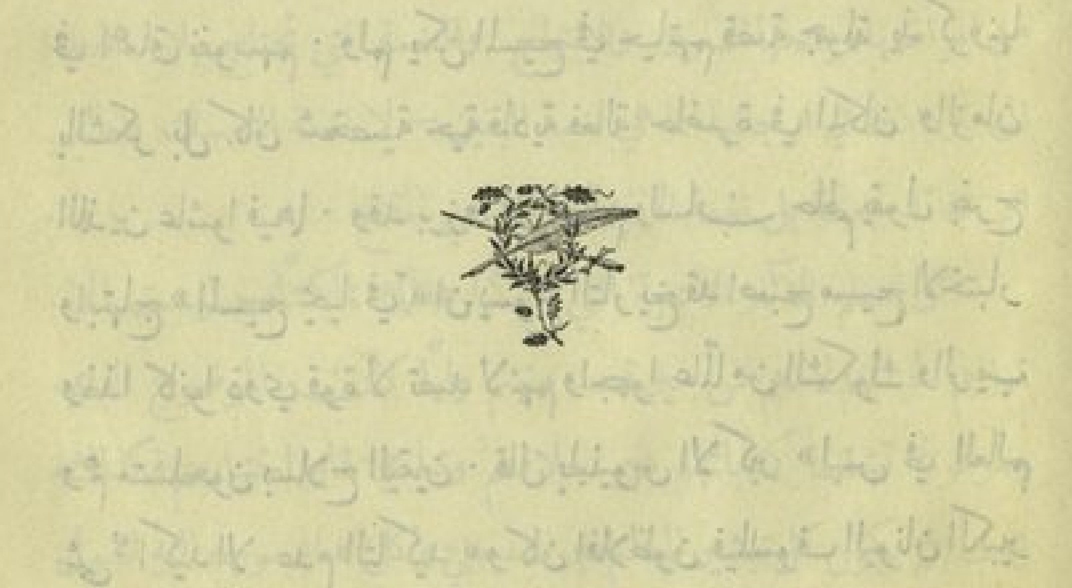
ثم تسرَّب الى قلبي سرور هادئ اذ رايت بين تلك الشعوب

السائرة على غير هدى تنشد الخلاص شخصاً عظيماً واقفاً وبيده الكاس يقدمها للنفوس العطشى لترتشف منها ماء الحياة الابدية البلوري الصافي الذي اذا شرب منهُ الانسان لن يعطش الى الابد

« ألم ارتشف انا من هذا الماء ؟ ألم توضع تلك الكاس على شفتي المتلهبتين فاطفأت اوارهما واولتني سعادة وهناءً افعما قلبي ؟

« تلك هي الحكمة التي أعلنت للاطفال عن طريق الصلاة وتسليم الفكر والارادة لله والتي خفيت عن الحكماء والعقلاء فلم يروا منها بعد تفتيشهم الطويل سوى شعاع ضئيل . اما انا فعن غير استحقاق قد نلتها وعاينتها وجهاً لوجه

« ترددت هذه الافكار في ذهني برهة ثم نظرت الى مصباحي بعين الوجل فاذا بنوره قد ازداد تألقاً واشراقاً »



الفصل الثامن

معرفة يسوع عن طريق الاختبار

ان الديانة هي حياة الله في نفس الانسان متمثلة في ملكوت الله على الارض · وهي قبل كل شيء « حياة الله في النفس » اي اختبار نفسيٌّ او شعور في النفس وان لم تكن ذلك تصبح طقوساً خارجية ميتة لا غير · لم يكن للتلاميذ الاولين من الطقوس ما يذكر ولكنهم كانوا اقوياء اغنياء في الاختبار · وقد خرجوا الى العالم لا حاملين في اذهانهم ذكرى المسيح فحسب بل متحققين ومحققين شخصيتهُ في حياتهم · ولم يقتصروا على اعادة ذكره في اذهانهم بل كانوا يناجونهُ في اعماق نفوسهم · ولم يكن المسيح في حياتهم قصة جميلة يذكرونها بالشكر بل كان شخصية حية فادية فعالة حاضرة في المكان والزمان اللذين عاشوا فيهما · وقد برزوا الى العالم ولسان حالهم يقول بفرح وابتهاج « المسيح يحيا فيّ » ان يسوع التاريخ قد اصبح مسيح الاختبار ولهذا كانوا ذوي قوة لا تصد لانهم واجهوا عالماً من الشكوك والريب وهم متسلحون بسلاح اليقين · قال بلينيوس الاكبر « ليس في العالم شيء اكيد الا عدم التاكيد » وكان افلاطون فيلسوف اليونان الكبير

يتوق الى « كلمة اكيدة من عند الله » لتكون بمثابة طوف يعوم عليهِ فوق بحار الوجود التي تتلاطم فيها امواج الشكوك — اما الرسل فاتوا الى العالم بهذا التاكيد الذي كان العالم يتوق اليهِ

يرتئي بعض الباحثين ان المسيحيين الاولين غلبوا العالم الوثني لانهم فاقوا الوثنيين في افكارهم وفي حياتهم وفي موتهم . ولكن هذا لم يكن كافياً لاحرازهم الغلبة بل كان سببها انهم فاقوهم في الاختبار ولولاه لكان تفوقهم ناقص الجوهر واذا اصبحت كلمة المسيح يوماً ما صاحبة المنزلة العليا في الهند، كما نرجو ، فلا يكون ذلك الا لان اتباعهُ يفوقون غيرهم في اختبارهم الروحي . لما وقف ايليا على جبل الكرمل اعلن لكهنة البعل ان الاله الذي يجيب بارسال النار هو الاله الحقيقي . اما الان فاننا نقول ان الاله الحقيقي هو الذي يبرهن على ذاتهِ بشفاء النفس من امراضها ويمنحها السرور والابتهاج . والنغمة التي تحتاج بلاد الهند الى ترددها في ارجائها انما هي نغمة اليقين — لا نغمة التمسك بتعاليم او عقائد معينة بل نغمة الاختبار المسيحي المقنع

ان اعظم الآثار الادبية التي تركها عظماء الكتّاب ليست الا تراجم لحياتهم لانهم عن غير قصد منهم وايًّا كان الموضوع الذي يطرقونهُ تشف كتاباتهم عن اخلاقهم وتبدي ثمار اختبارهم فكذلك يجب ان يكون كل تبشير للعالم غير المسيحي وكل نداء موجه اليهِ لقبول

المسيح ضرباً من تادية الشهادة · اي ان المبشر يتكلم عما عرفهُ هو في دائرة اختباره الشخصي

يروى عن «درمند» انه لم ينطق في عظاتهِ الا بما يكون قد اجتاز دائرة اختباره اولاً ولهذا كان درمند اذا تكلم تكلم بقوة وكان لكلامهِ تأثير في النفوس

قال لي مرة الدكتور فار كهار في هذا الصدد « هنالك امران لا يكاد الفكر الهندي يستطيع مقاومتهما الان — وهما المسيح والاختبار المسيحي » · فوافقتهُ من كل قلبي على هذا الراي لان اختباري الشخصي قد ساقني الى هذه النتيجة وهي انهُ ينبغي ان « نترجم » المسيح للناس بلغة اختبارنا المسيحي

لكن الهندي لا يعتقد ان الاختبار مما يجوز ان ينادى به على السطوح بل يعد المجاهرة به ضرباً من الفظاظة او عدم اللياقة وانهما تنقص من رونقه وجماله · وان نتائج هذا الاختبار الشخصي يجب ان لا يصارح بها الا همساً لصديق او قريب · روى لي الدكتور تاغور عن رجل شاهده وكان قد حاز اختباراً روحياً عظيماً فسأله « الا تريد ان تخبر الناس عنهُ » قال « كلا — لانهُ ان كان اختباري خالصاً صحيحاً فالناس يقبلون اليَّ عفواً » اي ان نتيجة اختباره تظهر في حياتهِ بحيث يشاهدها الناس دون ان يحتاج هو الى اعلانها

قلت ذات يوم لرئيس علماء احد المعاهد الدينية الهندية اني رايت هندوسياً يدعي انهُ وجد الخلاص الحي . فاجاب ان كان « يقول » انهُ وجدهُ فلم يجده . واني اشارك الهندوس في ترددهم عن المجاهرة باختباراتهم النفسية واعتبارهم المجاهرة من قبيل عدم الحشمة

ولكن ميزة الاختبار المسيحي ومفخرتهُ هي انهُ ليس شيئاً نكسبهُ بسعينا بل نعمة توهب لنا عن غير استحقاق . فاذا نالها الواحد يزول من ذهنهِ كل فكر عن ذاتهِ بشأنها و يتوجه فكرهُ بكليتهِ الى المنعم واذا جاهر بحصوله على هذه النعمة فما ذلك من قبيل المباهاة والافتخار بل من قبيل تادية الشهادة او الاعتراف بالنعمة والرغبة في مشاركة الاخرين معنا فيما حصلنا عليهِ فهي شهادة ليست لانفسنا بل لآخر هو مانح النعمة

وكاني بالمسيح وهو سائر على طريق الهند بين الجماهير المزدحمة يقول « من لمسني » وحيث اننا نعرف ما هو معنى الشفاء الذي نلناه فاقل ما نستطيع ان نعملهُ هو الاعتراف باننا لمسناهُ وان لمسنا اياهُ منحنا الحياة

وهذا الدرس الذي يعلمنا وجوب الشهادة للمسيح انطبع في ذهني في بدء خدمتي المسيحية بكيفية اليمة لا يمكن ان يزول اثرها

من ذاكرتي . فاني لما شرعت في خدمتي كان يجول في ذهني ان مهمتي مهمة محامٍ يتولى الدفاع عن قضية المسيح دفاعاً باهراً ولما اخبرت راعي كنيستي عن فكرتي طلب مني ان اعظ عظتي الاولى في كنيستهِ مساء احد ايام الآحاد . فاستعددت للعظة استعداداً تاماً وكنت شديد الرغبة والطموح الى ان اترك اثراً حسناً في اذهان السامعين وكان الجمهور تلك الليلة غفيراً وكلهم مملوءٌ عطفاً عليَّ وشوقاً الى سماع كلامي . فبدأت خطبتي بعبارات منمقة وافكار سامية . ولكنني لم اسر في الكلام شوطاً بعيداً حتى بدرت مني عبارة فلسفية عويصة لم تكن مألوفة الا لدى المتعمقين في الفلسفة فلحظت على وجه آنسة من متخرجات احدى الكليات ابتسامة تشف عن الازدراء بهذه الحذلقة . فازعجتني هذه الابتسامة الى حد اطار من ذاكرتي كليةً بقية الكلام الذي كنت اعددتهُ ولا اعلم كم من الوقت مضى وانا واقف افرك يداً بيد صامتاً لا استطيع ان اتذكر كلمة واحدة من عظتي . واخيراً قلت « ايها الاصدقاء اني شديد الاسف لاني كما ارى قد نسيت عظتي » قلت هذا ونزلت عن المنبر في اشد الخجل والارتباك . وقد كاد يعلوني اليأس لزعمي ان فاتحة خدمتي كانت على هذه الصورة فشلاً محزناً معيباً وفيما انا منحدر عن المنبر شعرت كأن صوتاً يقول لي « ألم افعل شيئاً لاجلك ؟ » فاجبت في قلبي « نعم انك قد صنعت

لي كل شيء» فاجاب الصوت «ألا تستطيع ان تقول ذلك؟» فاجبت «اظن اني استطيع»

ولهذا فعوضاً عن اعود الى مقعدي في الكنيسة عدت الى امام المنبر ووقفت وقفة الذليل شاعراً انه لم يكن لي حق في اعتلاء اعواد المنابر بل غاية ما يحق لي هو ان اقف صاغراً امامها ثم قلت:

«ايها الاحباء اني لا استطيع ان اعظ ولكني احب يسوع المسيح وانتم تعلمون كيف كانت حياتي في هذه البلدة — حياة شاب طائش عديم التروي — وتعرفون كيف اصبحت حياتي الان. وتعلمون ان المسيح قد جدد حياتي ومع اني لا استطيع ان اعظ فانا عازم عزماً اكيداً على السير في محبته وخدمته»

وفي ختام ذلك الاجتماع تقدم اليّ احد الشبان وقال «ياستانلي اني اتمنى من كل قلبي ان اجد ما وجدته انت» وشكراً لله انه وجده في ذلك الحين وفي ذلك المكان وهو الان عضو في تلك الكنيسة ومن افضل الرجال المسيحيين. لم يهنئني احد بعظتي تلك الليلة ولكني بعد ان زال الالم الذي تركته لسعة الخزي صرت اهنئ نفسي ولا ازال اهنئها حتى الان فان الرب اخزاني في تلك الليلة لكي يعلمني درساً لن انساه وهو اني في خدمتي لله لست محامياً عنه بل انا شاهد وهذا يقتضي ان اكون على اتصال حي بالمسيح لكي يكون لديّ دائماً شهادة

استطيع نقلها الى الاخرين ومنذ ذلك اليوم صرت اجتهد في ان اودي الشهادة امام الكبير والصغير والعالي والوضيع عما صنعهُ المسيح لحياة عديمة الاهلية

ان ما تريد الهند معرفتهُ هو هذا : « ماذا وجدتم ؟ » سألني تلامذة احدى كليات الهندوس ان اذهب واخاطبهم في كليتهم واقترحوا ان يكون موضوع كلامي تبيان اختباري الديني الشخصي وكنت في كل مكان القي فيه سلسلة من المواعظ اخصص الليلة الاخيرة منها لسرد اختباري الشخصي . وقد كانوا ينسون كثيراً من حججي وبراهيني ان لم تكن كلها . ولكن ما اقولهُ عن اختباري الشخصي لم يكونوا ينسونهُ بل كان يرسخ في اذهانهم

كنت مرة اروي خبر تجددي في احدى مدن الهند فلاحظت بين الحضور استاذاً في احدى كليات الهندوس يحني راسهُ مراراً علامة استحسانهِ لكلامي وموافقتهِ عليهِ . وفي نهاية الخطاب تقدم اليّ وصافحني وقال «هذا هو الحق ان ما نحتاج اليهِ هو الولادة الجديدة» وفي اليوم التالي اراني كتاباً مدرسياً الفهُ بقصد اعتماده في كليات الحكومة وكان الكتاب شرحاً او تعليقاً على تاريخ انكلتره للمورخ الانكليزي ما كولي . وقد عاب ما كولي في تاريخهِ على «البيوريتان» – وهم المصلحون الانجيليون الذين كانوا شديدي التمسك بالعقائد الانجيلية – انهم

في مدة سيادتهم السياسية كانوا يوجبون على تلامذة المدارس — بدلاً من درس اللغات القديمة وآدابها — اجتياز امتحان يجيبون فيهِ عن الوقت والكيفية والظروف التي تم فيها تجديدهم الروحي. ولكن صديقي الاستاذ الهندي غير المسيحي لم يوافق ما كولي في انتقاده . وكتب تعليقاً على انتقاد ما كولي ما ياتي : « مما يؤسف له ان ما كولي ذاتهُ لم يفهم معنى الولادة الجديدة » — ثم روى قصة نيقوديموس بكاملها وختمها بقوله « يا للاسف ان نيقوديموسي هذا العصر لا يفهمون هذه الامور »

أوَ ليس من الغريب ان استاذاً غير مسيحي ينتقد مورخاً مسيحياً ويعيب عليهِ عدم فهمهِ معنى الولادة الثانية ؟ ان شئنــا ان نرشد الى الايمان رجلاً ذا نفسية كهذا الاستاذ فيجب ان يكون فينا شيء حقيقي حيوي

كنت ذات يوم راكباً في القطار الحديدي مع محامٍ هندوسي فجرت بيننا مناقشة ادت الى مجادلة دامت ثلاث ساعات عن الفلسفة والمقابلة بين العقائد الهندية والمسيحية ولما رايت اننا لم نصل الى نتيجة قلت لمناظري اريد ان اشرح لك شيئاً عما صنعهُ المسيح لي فاجاب معرباً عن رغبتهِ في ذلك فشرحت لهُ كيف اهتديت الى الايمان المسيحي ونلت نعمة التجديد وما جرى لي في السنوات التي تلت ذلك

وفيما انا اسرد له قصتي رايت الدموع تترقرق في عينيهِ · فقال لي: « يا مستر جونس · انك قد ادركت الغرض الاسمى وقد بلغت الطور الاخير من اطوار تجدد ولادتك وسوف لا تولد مرة ثانية في هذا العالم »

فاجبتهُ « ان ما تقولهُ صحيح لان الانسان لا يضطر الى اجتياز عدد كبير من الولادات المتكررة كما تعتقدون انتم لان الولادة الجديدة ممكنة لك الان وهي طريق قصيرة مستقيمة توصل توًّا الى الاب السماوي » فقال بلهجة التامل العميق « اتمنى لو كان لي ذلك » — وكأني سمعت بلاد الهند باسرها تنطق بفمهِ معربة عن شدة تمنيها للتخلص من تكرار تجديد الولادة الذي يتضمنهُ اعتقادها بالتناسخ او تقمص الارواح

كتب لي احد تلامذة الهندوس يقول: « بعدان سمعت خطبك اصبحت شديد الرغبة في ان اصير تابعاً للمسيح لاني ارى الان ان دياناتي طريقة طويلة متعرجة للوصول الى ملكوت الله » — نعم انها لطويلة ومتعرجة فهي تقضي بان يولد الانسان احياناً ثمانية ملايين مرة قبل ان يصل · ولا عجب اذا انقبضت نفوسهم من هذه الفكرة ومن الحياة ذاتها · وانهُ من دواعي سرورنا ان نستطيع ارشادهم الى الولادة الثانية الروحية التي تنقذهم من كابوس هذه الاعتقادات

وهنا كتاب ورد لي من احد تلامذة طائفة الجاينية * وهو يشف عن نفس تتوق بملئها الى الحرية الروحية « اني شديد الايمان بديني واعتقد بصحتهِ اعتقاداً تاماً ولكني لا اخجل من الاعتراف لك بانهُ يفرض واجبات صارمة ولا يعرف الرحمة وهو صحيح من الوجهة الفلسفية وبموجبهِ نستطيع الاعتقـاد ان القوة التي وراء الكون هي قوة فائقة في عدلها وعدم محاباتها. ولكننا نضل ونخطىء دون ان نعلم سبباً لذلك ونحمل على تيارات الخطية والضلال وهنالك قوات اعظم من ان تستطيع طبيعتنا الضعيفة مقاومتها واتمنى لو وجد اله يعطف عليَّ ويشعر بضعفي وينقذني من اشراك الخطية والتجربة »

أنستطيع ان نأتي الى شاب كهذا ببرهان جدلي فقط او بنص تعليمي او بكتاب اسمى من كتبه ؟ ان لم يكن في استطاعتنا ان نجعل ذلك الشاب شريكاً لنا في خلاصنا وانتصارنا فالافضل ان لا نحاول ارشاده . هل للمسيح جواب على كتاب كهذا ؟ هنا عقدة العقد اعنده جواب ام ليس عنده ؟ بعضنا وهم الذين كانوا في نفس الحالة التي وجد فيها ذلك الشاب وانتقلوا منها الى حالة الثقة الاكيدة بالخلاص يعتقدون ان عند المسيح الجواب الشافي

---

* الجاينية بدعة من الديانة البرهمية ينكر اصحابها وحي كتب الفيدا ويكرمون القديسين والاولياء فوق تكريمهم لبعض الالهة

واستميح القاري، عذراً اذا قلت ان معظم عمل التبشير في هذه الايام ضعيف في هذه النقطة فان ذلك الشاب لم يكن في حاجة الى المسيح كمثال يحتذيهِ ومعلم يرشده فقط. لم يكن في حاجة الى فيلسوف او حكيم بل الى مخلص . لا الى مثال ادبي بل الى منقذٍ ادبي . لا الى مرشد بل الى مجدد . لا الى حقائق بل الى حياة

كنت مرة اخاطب فريقاً من الطلبة الهندوس والمسلمين في احدى المدارس فوقف احد الطلبة وقال « يا سيد اريد ان تخبرنا ما هو العامل الذي اثر في حياتك حتى اصبحت كما هي الان ؟ »

كان وقع هذا السؤال عليَّ مفاجئاً حتى اني حرت لاول وهلة في اجابتهِ وخصوصاً لانهُ لم يكن قد سبقهُ ما مهد الطريق اليهِ ولكنهُ كان سؤالاً صادراً عن اخلاص حقيقي فما استطعت الا اجابتهُ فقطعت سياق كلامي الاول وسردت ما صنعهُ المسيح من اجلي وكيف انهُ منذ عشرين سنة تملك حياتي الواهية التافهة وجعلها صحيحة سليمة وجعل نفسي تترنم باناشيد السرور

ولما اتممت سرد قصتي وقف احد اولئك الطلبة وقال : « اننا سعيدون الان يا سيد فهذا ما كنا نريد ان نسمعهُ » وبعد انتهاء المحاضرة جاء بعضهم الى غرفتي فقعدنا وتكلمنا بضع ساعات عن هذا الموضوع وفي عصر ذلك اليوم طلبت اليَّ بعض الاوانس ان اعقد اجتماعاً معهنَّ

ولما سألتهنّ عن الموضوع الذي يردنَ ان نتكلم عنهُ اجبنَ «ان ما قلتهُ في في هذا الصباح عن اختبارك الشخصي قد وقع في نفوسنا موقعاً كبيراً ونريد ان شئت ان تزيدنا شرحاً عنهُ»

فجلسنا على ارض تلك الغرفة وقتاً طويلاً ونحن شاعرون ان يد المسيح الحي قد لمست كلاً منا · وكانت قلوبنا تضطرم في داخلنا حين تكلمنا عنهُ وتحدثنا معهُ

ان اهالي الهند شديدو التأثر بالفواعل الروحية كما تتأثر الابرة المغناطيسية بجاذبية القطب وقد طلبت مني لجنة من الهندوس في مكان القيت فيهِ خطبة ان لا اعطي مجالاً لالقاء الاسئلة في ختام الاجتماع لان ذلك يبدد جمال الجو الروحي الذي يحيط بالاجتماعات· ورايت مرة ان استاذاً هندوسياً خرج من قاعة الاجتماع حالما ابتدات الاسئلة ولما انتهت الاسئلة وطلبت من الحضور ان نختم الاجتماع بالصلاة رايتهُ داخلاً الى القاعة ثانية من فرندة البناء وبعد انتهاء الصلاة تقدم اليّ وشكرني على خطبتي ثم قال: «اني خرجت بعد خطبتك ووقفت على الفرندة حتى تنتهي الاسئلة لانك في خطبتك رفعت نفوسنا الى الله ولم اشأ ان ذاك الشعور الذي اختلج في قلبي تبددهُ الاسئلة ولهذا انتظرت خارجاً الى حين الصلاة لانك في صلاتك ايضاً تجعلنا نتحقق

حضور الله معنـا » الا يشعر المرء برهبة امام شعور روحي جميل كهذا ؟

جاءني ليلة احد الهندوس بعد الصلاة وقال « ان خطبتك جميلة ولكن لماذا لا تفتتح اجتماعاتك بالصلاة » . فقبلت الاقتراح ووعدته بان افعل ذلك في الليلة التالية . ولكني لشدة اهتمامي بموضوع كلامي اغفلت ما وعدت بهِ وبدات الخطبة دون ان اصلي صلاة جمهورية (بالطبع لا يستطيع المرء ان يقدم على موقف كهذا الموقف توزن فيهِ كل كلمة يتلفظ بها وكل فكرة يبديها وتعرض للانتقاد الدقيق دون ان يصرف ساعة او اكثر في الصلاة الانفرادية ولكني لم اصلِّ صلاة جمهورية) . وبعد ان شرعت في الكلام رايت شخصاً تقدم الى رئيس الحفلة وناولهُ رقعة فناولني اياها الرئيس ففضضتها واذا بهذه الجملة مكتوبة عليها « ياسيد لقد نسيت ان تفتتح اجتماعك بالصلاة كما وعدت » . فتوقفت عن الكلام واعترفت بخطإي ثم صليت وبعدئذٍ استأنفت الكلام ولكني لن انسى ما دلت عليهِ تلك الحادثة البسيطة من وجود تيار من الاشتياق الروحي الخفي

حدث ذات يوم بعد ان جرى لي حديث طويل مع احد الهندوس وكان على وشك الانصراف اني سألتهُ هل يريد ان نصلي معاً . فاجاب « نعم اريد بمزيد السرور بشرط ان لا تقتصر صلاتك على طلب اشياء

من الله بل تكون طلباً لله ذاته » فاجبتهُ الى طلبهِ • وهل يستطيع احد ان يجتاز ساعة كهذه دون ان يشعر شعوراً عميقاً بالحاجة الى اختبار حقيقي وبالسرور الناشيء عن التقرب من الله ؟ فمسألة تبشيرنا الامم بالمسيح عن طريق الاختبار ليست مسألة اختيارية بل الزامية اذ لا طريق سواها تودي الى الغرض والا فكرازتنا لا تكون فعالة ولا تصل الى داخل القلب • اننا لا نستطيع ان نقتصر على مخاطبة الهند عن المسيح بل علينا ان نأتي بالمسيح اليها وان نمثلهُ كحقيقة حية فعالة اقرب الينا من اجسامنا ونفوسنا — يجب ان يكون الواحد منا خريستوفراً حقيقياً اي « حاملاً للمسيح »

ويجب ان يكون هذا الشعور الالهي تاماً شاملاً • عرف هذه الحقيقة محامٍ هندوسي فقال لي ذات يوم « ان ما تحتاجون اليهِ انتم ايها المسيحيون اليوم وما تحتاج اليه كنيستكم هو عنصرة جديدة » وقد فهمت ما اراده فانهُ اراد اننا في حاجة الى انسكاب الروح القدس علينا بغزارة لتكون مسيحيتنا كبئر ماء حي ينبع الى حياة ابدية

وقال احد الاساتذة اليونيتاريين بوجوب اعادة الديانة المسيحية الى تألقها السابق • وانهُ من الغريب ان يكون احد الهندوس واحد اليونيتاريين متفقين في الحث على ابتغاء حياة مسيحية مشبعة بالروح القدس شبيهة بحالة الكنيسة حين حلول الروح عليها يوم الخمسين ولكن

ايًا كان القائل فالقول صحيح والحالة التي يحثون الكنيسة على ابتغائها هي الحالة الطبيعية التي يجب ان تكون المسيحية عليها · اما الكنيسة في حالتها الحاضرة فهي في حالة دون الطبيعية او هي مصابة بضعف يشبه فقر الدم · وان كان البعض تطرفوا وعملوا اشياء شاذة غير معقولة لزعمهم ان روح المسيح الحي ملأ ارواحهم فليس هذا بسبب كافٍ لان يخيف الباقين منا فنبقى متمسكين بمسيحية واهنة ضعيفة ان المسيح الذي قال « مغفورة لك خطاياك » هو المسيح الذي يقول « اقبلوا الروح القدس »

كان احد اصدقائي يعظ في احدى الاسواق في شمالي الهند فاتى اليه هندوسي وقال : « اريد ان أُلقي عليك سوالاً لا بقصد الانتقاد بل بقصد الاستفادة · قد قرات العهد الجديد ووقع سفر الاعمال في نفسي وقعاً خاصاً اذ ظهر لي منهُ ان اولئك الرجال كانت لهم قوة روحية مدهشة وحياة ملآنة · فاخبرني يا سيدي هل وجدت ما وجدوهُ » فوقف صديقي صامتاً لا يستطيع ان ينطق ببنت شفة فمع انهُ كان خريج جامعة كبيرة ومرسلاً عرف انهُ في اعماق نفسهِ لم يكن حائزاً على ما وجدهُ اولئك التلاميذ الاقدمون فذهب الى منزلهِ وجثا على ركبتيهِ وسلم ذاتهُ بكليتهِ للمسيح فوجد ضالتهُ المنشودة · واصبحت حياتهُ منذ ذلك الحين اوفر غنى روحياً وابهى جمالاً مما

اتيح لي مشاهدتهُ من قبل. ولما توفي منذ بضع سنوات قال لي احد القسوس الهنود «انهُ من حسن الحظ ان فلاناً لم يمت في بلاد الهند لانهُ لو مات في بلادنا لكنا اقترفنا خطية عبادة قبره»

ان الهند تقرأ الكتاب المقدس وتريد ان تعرف هل مسيحيتنا منطبقة على ما فيهِ — قيل عن الرسل الاولين انهم كانوا «يشهدون ويكرزون» فكرازتهم كانت سداها ولحمتها الشهادة ولما كانت صادرة عن القلب وصلت الى القلب

عقدت سلسلة اجتماعات في جنوب الهند وفي اخر ليلة منها تكلمت عن «المسيح واليقين» وقبل ختام الاجتماع خطر لي ان اقول ما يأتي: «ان هنا الان عدداً ليس بقليل من المسيحيين واني اود لو كنتم تفصحون امام اصدقائكم غير المسيحيين بعبارات وجيزة عما وجدتموهُ في المسيحية او ماذا صنعهُ المسيح لاجلكم». فوقف اول الكل احد ابناء الطبقات الاجتماعية الحقيرة من الهندوس وشرح ماذا صنعهُ المسيح لاجلهِ. وكانت شهادته احرى شهادة بان تفتتح بها تلك الشهادات لان الله يتخذ ضعفاء هذا العالم ليخزي الاقوياء — في الهند كما في غيرها من بلدان العالم. ووقف على اثر هذا الرجل الوضيع احد المتنصرين وكان قبلاً هندوسياً من طبقة البراهمة اسمى الطبقات الاجتماعية. فشرح ماذا لقيهُ في المسيحية. ثم شدّ ما كانت دهشتنا

حين وقف اكبر موظف بريطاني في تلك المقاطعة وقال « قبل سبع سنوات لم اكن استطيع القول اني وجدت هذا الامر الذي نتكلم عنهُ الليلة ولكني منذ سبع سنوات اهتديت اليهِ بارشاد سيدة فاضلة متقدمة في السن اتفق ان كنت مسافراً واياها في الباخرة التي اقلتنا الى الهند» وقد كانت شهادة هذا الموظف الكبير شهادة عظيمة القيمة في حد ذاتها لما دلت عليهِ من شعور حي واختبار مسيحي عميق وقد سردها بعبارات بسيطة خالية من الكلفة وكان لها عظيم التاثير في سامعيهِ وخصوصاً لان كثيرين منهم كانوا تحت امرتهِ وادارتهِ . ثم وقف اكبر وجيه من الكاثوليك في تلك المدينة وشهد قائلاً « لم يسبق لي ان اتكلم في اجتماع كهذا من قبل ولكني لم استطع ان اجلس هنا وامتنع عن تأدية الشهادة امام اخواني غير المسيحيين عما صنعهُ المسيح لي فاني سمعتهُ يخاطبني ’تعالوا اليَّ ايها المتعبون والثقيلو الاحمال وانا اريحكم‘ فجئت اليهِ فاراحني»

فالان لنتأمل بقوة هذه الشهادات مجتمعة . فقد اداها الوضيع والرفيع ، الاميركي والانكليزي ، البروتستانتي والكاثوليكي — جميعهم شهدوا امام اصحابهم عما صنعهُ المسيح لهم . وفي ختام الاجتماع تقدم اليَّ رئيس الحفلة وهو من الهندوس وقال لي « اني استطيع رد جميع حججهم المنطقية ولكني لا اعلم ماذا اعمل تجاه هذه الشهادات »

وقد كان ذلك المشهد صورة مصغرة لما تستطيع الكنيسة عملهُ اذا ادت شهادة متحدة · ان العالم المسيحي يتكلم الان في وجهات مختلفة ولكن قسماً كبيراً من وقتهِ ينصرف الى الكلام ضد آخرين ممن يسمون ذواتهم مسيحيين ولا ينصرف الا قسم صغير من المجهودات الى الكلام عن الرب — ولو اتحد المسيحيون اجمع حول عرش الرب الواحد و بصوت واحد مشترك شهدوا لهُ فماذا كان ينتج من شهادتهم؟ تكون النتيجة قوة لا تستطاع مقاومتها كما قال ذلك الرئيس الهندي

وبمناسبة الكلام عن الشهادة الشفهية لا اريد ان اتغاضى عن الحقيقة الثابتة وهي ان الشهادة الشفهية يجب ان تكون مدعومة بشهادة الحياة · قال رئيس احد الاجتماعات الدينية مرة حين تقديمهِ الخطيب للحضور «ان هذا الرجل الذي يتكلم اليوم يؤيد في حياتهِ كل كلمة يقولها» · ولم يكن في استطاعتهِ ان يقول قولاً اجمل من هذا القول

ذهب مرة صديق لي الى دكان بائع احذية فوجد صاحبهُ الهندي في غم شديد وعلم انهُ فجع بابنهِ الوحيد · فقال لهُ صديقي معزياً «تذكر يا اخي في حزنك ان الله محبة» فابرقت اسرّة الهندي وقال «نعم اني اعلم ان الله محبة» فسألهُ صديقي كيف علم ذلك : قال الهندي «اني

اشتغلت مدة في كونبور عند فوي صاحب ولا احد يستطيع ان يشتغل عند « فوي صاحب» دون ان يعرف ان الله محبة ؟ » فهنا كان شاهد لله تؤيد حياته شهادته عاش في تلك البلاد اربعين سنة عيشة بارة جميلة فكانت حياته الان وسيلة لتعزية ذلك الهندي في ساعة حزنهِ

وخلاصة القول ان المسيح اذا بُشر بهِ اليوم عن طريق الاختبار الشخصي وكان الكلام مؤيداً بالحياة الطاهرة الجميلة فلا يمكن ان يقف شيء في سبيله لا في الهند ولا في غيرها من بلدان العالم



الفصل التاسع

"ماذا" او "من"؟

ان الروح المسيحي المنتشر هنا وهناك في قلوب عديدة في بلاد الهند لا بد من ان يتخذ شكل روابط منظمة بين المومنين تكون نتيجتها انشاء كنيسة هندية ٠ وعندئذٍ سنقدم للكنيسة المتكونة في الهند اختبارنا كغربيين في التنظيم والادارة ونقول لها : « خذي منهُ قدر ما ترينهُ نافعاً لاغراضك ٠ ولكن لا تنقلي نقلاً ولا تقلدي بل أظهري المسيح حسب فطرتكِ »

واني اعلم ان هذا السبيل لا يخلو من مخاطر وقد يكون اوفر سهولة ان نعلم المتنصرين من الهنود بطريقة ميكانيكية تجعلهم متماثلين كانهم مسبوكون في قالب واحد كما تفعل بعض ملاجىء الايتام ٠ تلك طريقة وافرة السهولة لكنها شديدة الضرر بل هي قتالة للروح ٠ وقد حاول هذه الطريقة بعض المرسلين مدفوعين بدافع الرغبة في التدقيق والاتقان فانهم يحشون اذهان الطلبة في مدارس اللاهوت بالحقائق اللاهوتية ثم يخرجونهم ليتولوا رعاية كنائس يغزلون فيها هذه الحقائق وينسجونها على نمطٍ واحد فتكون مواضيع الوعظ في جميع كنائس الارسالية

واحدة كل اسبوع وتقرأ الفصول عينها من الكتاب المقدس حتى ان المواعظ التي يلقيها الوعاظ تكون متماثلة ايضاً · وبهذه الكيفية يحيطون بدائرة الحقائق الدينية مرة في كل ثلاث سنوات · ثم يعيدون الكرة ثانية وهكذا — نظام لا عيب فيهِ حسب الظاهر ولكنهُ كلهُ عيب لانهُ ميكانيكي خالٍ من الحياة الشخصية

لكن يسوع لم يفعل ذلك بل اعطى ذاته للناس موقناً انهم متى حصلوا على الحياة فلا يستصعبون ان يصطنعوا لباساً موافقاً يكسونها بهِ « فالحياة اهم من اللباس »

ومع اننا لا نستطيع التنبوء عن نتيجة تمثيل المسيح على هذه الكيفية بواسطة المومنين بهِ في الهند فاننا نستطيع ان نرى من بعيد بعض الامور التي تجتنب وبعض الامور التي يمكن اكتسابها اذا صببنا كل همنا حول المسيح

فاذا ظلت الهند محافظة على جلاء هذه النظرية فانها تنجو من كثير مما وقعنا فيهِ من الانقسام على امور لا طائل تحتها مما كان سبباً كبيراً لما يشل مساعينا · لاننا واحد في مركز اختبارنا اي يسوع · فالمسيح هو الذي يوحدنا واما المعتقدات فهي التي تقسمنا · وقد اوضح ذلك بعضهم بقوله « لو سألت جماعة من المسيحيين بماذا تعتقدون ؟ » لاجابوك اجوبة متباينة متناقضة اذ لا يكاد يوجد اثنان يعتقدان

اعتقاداً واحداً في كل شيء ولكنك لو سالتهم «بمن تؤمنون» لاجمعت اجوبتهم على شخص واحد. فان كنا في نظرنا الى المسيحية نجعل سؤالنا الاهم «ماذا؟» فلا نلقى الا الانقسام والتفرق اما اذا جعلنا سؤالنا «من؟» فاننا نجد وحدة وارتباطاً تجمعنا حول الجاذب الاكبر. فالسؤال الاول يحتوي على قوة دافعة عن المركز والثاني على قوة جاذبة اليهِ. والمسيح هو المحور او جزع العجلة الذي تجتمع اليهِ اشعتها المتفرقة

لقد تمزقت الكنيسة في الصين بسبب المجادلات والمنازعات وقد تمكنت من ان اشاهد اسباب ذلك بعيني حين زرت بلاد الصين فقد لاحظت ان المرسلين بشروا اهل الصين بالمسيحية كتعليم صالح او معتقد صحيح او سياسة قومية حميدة وظهر لي ان التبشير بالمسيحية هناك كان ينقصهُ توحيد المجهودات حول شخصية المسيح — الامر الذي اهتدينا اليهِ في الهند مسوقين بارشاد الاختبار. وقد كان ينقص الكنيسة في الصين الحرارة المستمدة من لمس شخصية المسيح ليجعلها تتوقد حياة ونوراً. وحول هذه النار المركزية تستطيع الجماعات المنتثرة التي استولى عليها صقيع الشكوك والريب ان تتالب وتتدفأ وتشعر بحرارة الالفة

ولا مناص من ان يسود الانشقاق على المسيحية اذا جعل محورها التعاليم والعقائد. ولكن هذا الانشقاق يزول كلهُ او جلهُ اذا جعل محور

المسيحية شخصية المسيح · اذا سألنا ما هي الامور التي نشأ بسببها الانشقاق بين الفرق المسيحية نجد انها تنحصر في المسائل الآتية : المعمودية · حرية الانسان · الطقوس والفروض الكنسية · نظام الكنيسة · ملابس رجال الدين · طبقات الاكليروس · وهكذا نجد ان اسباب الاختلاف كانت دائماً من الامور التي يجاب بها عن السوال « ماذا » ولم تكن مما يجاب به عن السوال « من ؟ » الا مرة واحدة وذلك حين ظهرت فرقة اليونيتاريين الذين لا يعتقدون بالوهية المسيح · فهنا لم يكن بدٌّ من الانقسام لان السوءال « من هو المسيح ؟ » سوال حيوي فاصل يتوقف عليه كل شيء في الدين

وقد زج هذا السوءال في وسط كنيسة الهند في السنين الاخيرة · فان احد القسوس الهنديين اشبع ذهنهُ من طريقة البحث العلمي فادى بهِ الامر الى وقوفهِ موقف اليونيتاريين · وطرح هذه المسألة برمتها امام الكنيسة الهندية لتتناقش فيها · فاعترى البعض منا اشد الوجل حين شاهدنا ان نار الجدال ظلت تحتدم في احدى الصحف سنوات متوالية وقد وقف المرسلون خارج هذه المناقشة ليفسحوا المجال للكنيسة الوطنية الفتية حتى تتوصل بذاتها الى البتّ في من هو ربها وسيدها · وفي بدء المناقشة كان اخونا صاحب الاراء اليونيتارية قبلة الانظار · ولكن تغييراً محسوساً طرأ على سير الافكار ولما انتهت

المعمعة اصبح اخونا الموحد ، كالآله ، منبوذاً على جانب وعاد المسيح الاله قبلة الانظار ومحور الافكار · فانهُ بمجرد قوة شخصيتهِ السامية اشرق بنوره على ساحة النزال وجلاها وهكذا حاربت الكنيسة الهندية موقعتها الاولى واصبحت الان تعرف من هو سيدها ، لا بمجرد ما قاله لها المرسلون بل لانها توصلت الى حقيقتهِ بذاتها · وقد كان هذا الانتصار انتصاراً حياً وفي نهايتهِ جثت عند قدمي يسوع ونادته بفرح لم تشعر بهِ قبلاً قائلة « ربي والهي » وهذا النصر لم يأتِ عن طريق الاثبات التعليمي بل عن طريق البحث والاستقراء المقرونين بالصلاة والصبر والاهتمام

والمهم الان هو هذا انهُ عند نهاية المعمعة وجد اصحاب الاراء الحرة والمحافظون على التقليد انهم اصبحوا بجانب المسيح اقرب بعضهم من بعض مما كانوا قبلاً · وان المسيح قد ربط الفريقين · واذا جعلت الكنيسة الهندية المسيح محور حياتها واعتبرت كل ما سواه كحواشٍ فليس حل معضلة وحدتها ببعيد

وان كثيراً من المشاكل الاخرى التي تزعج افكار الغرب الان لا تزعجنا اذا تشبثنا بهذه الفكرة فكرة جعل شخص المسيح مركزاً لحياتنا المسيحية · ان المسيحية لا يمكن فهمها فهماً حقيقياً اذا وضعنا النبرة على العقيدة ولكنهُ يستطاع فهمها اذا وضعناها على الشخص · خذ مسألة

كون المسيحية فوق الطبيعة · فهي تدعي لنفسها هذه الدعوى · ولكن على نسبة اكتشاف عقول الناس لعالم النواميس الطبيعية يضعف تصديقهم بوجود نظام فوق النظام الطبيعي · حتى يتصل بهم الامر اخيراً الى تفسير كل هذا النظام الفائق الطبيعة تفسيراً منطبقاً على نواميس الطبيعة ثم الى تفسير العجائب تفسيراً ينطبق على هذا الناموس ولكننا في المسيحية لا ننظر الى العجائب في نور الناموس الطبيعي بل في نور شخصية يسوع — وهذا كل الفرق · وهو فرق عظيم — والمسالة هي أيمكن حدوث عجائب حول شخصية كشخصية يسوع ؟

كنا فيما مضى نحاول البرهان على ذلك على هذا النمط : نقول ان يسوع ولد بطريقة خارقة للطبيعة وانهُ عمل اعمالاً خارقة للطبيعة وقام من الاموات قيامة خارقة للطبيعة · فهو اذاً شخص خارق للطبيعة — اي اننا نستدل من عجائب يسوع المسيح على الوهيتهِ ونحاول التوصل من « ماذا » الى «من» · وهذا القياس ضعيف ضعفاً واضحاً لانهُ يعود باذهان الناس الى العقائد التي يختلفون عليها ولا يتوصل الا عرضاً الى الشخصية ولو كنا اوفر حكمة لكنا نطلب الى الناس ان يطرحوا جانباً مسألة ولادة المسيح وعجائبهِ برهة حتى يصبحوا تحت سلطة شخصيتهِ اي حتى يفهموا جلياً قوة ذلك الفكر وذلك الروح الذي لم يدخلهُ اقل فساد ولا شوهتهُ خطية متى شعروا يد المسيح تمس نفوسهم

ثم فكروا في مسألة العجائب فلا يرونها امراً يصعب تصديقهُ في نور شخصيتهِ العجيبة · اذا نُظر اليها في نور الناموس الطبيعي فلا ننكر انها تظهر غير معقولة او غير قابلة التصديق ولكنها في نور شخصية يسوع تظهر امراً طبيعياً معقولاً قابلاً للتصديق

سالت مرة الاستاذ درَيش العالم والفيلسوف الالماني الكبير هذا السوال : « حين نتوصل في ابحاثك العلمية الى نوع من الاحياء ارقى مما قبلهُ ألا نتوقع ان نراه محفوفاً بمظاهر اسمى من مظاهر النوع الادنى منهُ » · فاجاب بالايجاب · فسالتهُ : « فان كان يسوع يمثل نوعاً من الوجود ارقى منا افلا تضطر الى ان توسع في ذهنك مجالاً لهذه الفكرة وهي ان ذلك الوجود السامي يجب ان تظهر منه اعمال اسمى من اعمالنا نراها نحن على مستوانا الواطىء انها عجيبة ؟ »

فاجاب : « نعم ان كان يسوع يمثل نوعاً من الكائنات اعلى منا فاني اجد في ذهني متسعاً لفكرة استطاعتهِ ان يعمل ما يظهر لنا على مستوانا المنحط انهُ عجيب · ولكن ذلك يجب ان يجتاز طريقة البحث العلمي اولاً »

وهذا ما نسلم بهِ ونريد ان نضع كل شيء على هذا الاساس وهو هل يمثل يسوع نوعاً من الوجود اسمى منا ام لا ؟ وليس هنـالك الا

طريقة واحدة للفصل فيهِ وهي ان نقف امام يسوع وجهاً لوجه بواسطة التسليم والطاعة لهُ ونرى هل من نحن واقفون امامهُ انسان ذو طبيعة بشرية اعتيادية ام لا فان كان ذا طبيعة بشرية اعتيادية فاذا نحن لسنا بشراً بل نحن مخلوقات دون البشر لان يسوع يفوق في طبيعتهِ كل البشر، الخاطئ والقديس على السواء. وهاك ما قالهُ الاستاذ هوج الذي قضى سنوات عديدة في خدمة المسيح في الهند: «حين ننظر الى محياه كمتفرجين ونرى ملامحهُ كلاً على حدة لا يظهر لنا ان فيها شيئاً يختلف عن البشر او على الاقل لا نرى شيئاً يختلف عما قصد الله ان يدرجهُ ضمن الطبيعة البشرية. الا اننا اذا تقدمنا الى الامام ونظرنا اليهِ بحيث تقع اعيننا على عينهِ وبحيث تخترق شخصيتهُ وجداننا بنظرة تصطدم بها نفوسنا بمحبتهِ الحارة وشفقتهِ وحنانه وطهارتهِ وشمول نعمته ونختبر طمانينة ناشئة عن فدى شامل وتقرباً خالياً من التكلف والتصنع، عندئذٍ لا يبقى فينا اثر للرغبة في المقابلة بينهُ وبين البشر بل نعرف اننا ماثلون امام شخص فريد لا مثيل لهُ يفرض علينا عبادتهُ ولا يعرض علينا ذاتهُ لنبجلهُ فقط. انظر نظراً مجرداً الى يسوع تجده انساناً قابلة وجهاً الى وجه في مناجاتك لهُ واطاعتك اياهُ وفي احتياج ضعفك وغنى اغاثتهِ الملكية فتعرف انك امام شخصية الهية — امام الله ذاتهِ» ومن اختبر اختبار الاستاذ هوج يشعر هذا الشعور الذي وصفهُ ابلغ وصف

وهنا العجيبة الكبرى التي عليها مدار المسيحية وهي :

ليست العجيبة الكبرى قيامة المسيح من الاموات ولا ولادته البتولية ولا هي عجيبة بعينها من العجائب التي صنعها ولكن العجيبة هي شخصهُ الذي يتمثل مرتفعاً فوق الحياة ببهائهِ الطاهر الخالي من كل خطية — هو شذوذ الحياة الفريد الخالي من الخطية فهو لذلك معجزة . واذا ادرنا نظرنا الان من تلك العجيبة المركزية الكبرى الى هذه العجائب الصغرى فلا يعود تصديقها صعباً في نور شخصهِ . واذا رسخ في ذهننا من هو وما هو فلا يعود يدهشنا لو انهُ لمس عيني الاعمى ففتحهما او منح المقعد قوة للمشي بل كان يدهشنا لو لم يفعل مثل ذلك . ان هذه العجائب تنطبق على عجيبة شخصه الاساسية . فبما انهُ هو عجيبة فيكون من العجب لو لم يصنع عجائب . فالعجائب لا تبرهن على يسوع بل هو يبرهن على صحتها اما اذا اعتبرت العجائب خارجة عن شخصهِ فانها مما يوقع في الارتباك والحيرة

ولنتقدم الان الى معضلة ولادتهِ البتولية . فالبحث في هذا الموضوع بالنسبة الى شخص غير يسوع امر غير معقول لا يقبل التصديق ولكننا اذا نظرنا اليها في علاقتها بهِ تصبح امراً قابلاً للتصديق منطبقاً على مجموع شخصيتهِ . وهنا اقول اني لا ابني اعتقادي بالوهيتهِ على طريقة ولادتهِ . فلو قيل انه ولد بالطريقة الطبيعية و كنت ارى

فيهِ ما اراه الان لظللت اعتقد بالوهيتهِ فالامر الجوهري ليس كيفية مجيئهِ الى العالم بل ماهية صفاته وقد وجد فيهِ · وفي نور شخصيته لا ارى صعوبة البتة في الاعتقاد بولادتهِ من عذراء · وبما انهُ ارتفع الى ما فوق الحياة في عظمته الطاهرة من الخطية فقد اصبح من الممكن الاعتقاد بانهُ كان ارفع من ان يولد بالطريقة الطبيعية · قال احدهم «ان حياة المسيح الخالية من الدنس تسهل الاعتقاد بانهُ حبل به بلا دنس» سالني احد علماء الهنود «أتستطيع ان تورد في التاريخ البشري مثالاً واحداً آخر على ولادة بتولية ؟» فاجبتهُ كلا لانهُ لا يوجد شخص آخر يشبه يسوع المسيح فهو كان فريداً فذّاً ولهذا تفرد في صفاته واعماله واحواله

كان احد اليهود المتنصرين يخاطب يهودياً غير متنصر فسالهُ هذا «افرض انهُ ولد لامراة ابن وانهُ ولد ولادة بتولية فهل تصدق ذلك ؟» فاجابهُ الآخر «اصدقهُ ان كان ذلك الابن مثل يسوع» وهذه هي النقطة الجوهرية فان شخص يسوع هو الذي يسهل الاعتقاد بالوهية يسوع

واما من جهة القيامة فهنالك الحقيقة عينها فان سمو يسوع فوق الحياة يجعل سموه على الموت امراً سهل التصديق · ان هنالك قوتين تتسلطان علينا جميعاً وهما الخطية والموت · فالمسيح تغلب على الاولى

كما يشهد بذلك وجداننا الداخلي الادبي افلا يتغلب على الثانية ؟ لو لم يتغلب عليها لكان ذلك مدهشاً · واقول بكل احترام لو لم يقم من الاموات لكان يجب ان يقوم · والا فلو ظل تحت سلطة القبر لكان كل شيء خطأً وعبثاً

حين اندفع التلاميذ في صباح يوم القيامة يهمس واحدهم للاخر « هوذا قد قام » وقد اشرق ابتهاج الامل على قلوبهم التي سحقها الحزن واليأس انما كانوا يرددون ما فعلهُ المسيح كل حياته · فقد كانت حياتهُ كلها قيامة من الموت · وحيث يوجد ملء الحياة فلا عجب اذا وجد القبر فارغاً · فالمسيح هو الذي يؤيد القيامة

ان الديانة المسيحية لا يتم معناها الا حين نرى يسوع فالذي لا يقبل التصديق يصبح امراً واقعاً والمستحيل يصبح ممكناً بل ظاهراً

ارجو ان لا يخطىء احد فهم ما اقصده فان للعقائد في الديانة المسيحية مكانها من الاهمية ولا بد من تكوُّن مجموعة من المعتقدات حول شخص المسيح · ولا نستطيع الاستغناء عن العقيدة · ولكني لشدة رغبتي في ان تكون العقائد نقية طاهرة اريد ان يكون وضعها في نور شخصيته الساطع وقابلاً للتصحيح الدائم تحت تاثير فكره الحي · والمكان الوحيد الذي نستطيع ان نحفظ فيهِ عقيدتنا نقية صافية هو في نور طلعته · فهنا فقط يظهر ما في عقائدنا من نقص او عيب

ولكن لا يرحنَّ من فكرنا ان لا عقيدة مهما كانت حقيقية ولا نصٌ مهما كان صحيحاً ولا تعليم مهما كان نقياً يستطيع ان يخلص انساناً. اننا لا ننال الخلاص الا عن يدِ شخص ولا نعرف شخصاً الا واحداً ينيل الخلاص والحياة لا ينهضها الا الحياة

كان طبيب ملقى على فراش النزع وقد جلس بجانب سريره طبيب آخر مسيحي يحثه على تسليم ذاته للمسيح والايمان بهِ. فاصغى اليهِ الطبيب المائت بدهشة وقد اشرق عليهِ نور ثم قال لهُ فرحاً « قد كان يزعجني كل حياتي الاهتمام في « ماذا » اعتقد به والان ارى ان المهم هو ان اعرف « بمن » اعتقد»

وفوق ذلك كلهِ سوف نرى اننا كلما اقتربنا منهُ نقترب بعضنا من بعض في الاعتقاد. لنفرض ان جوهر المسيحية هو في التعبد التامّ ليسوع وان اتباعه اتباعاً حقيقياً هو محكّ التلمذة لهُ. افلا تلبس عقيدة كعقيدة الولادة الجديدة معنى جديداً ؟ وان كنت اتبع شخصاً مثلهُ فيجب ان اولد ثانية او ان أُولد شخصاً جديداً. والولادة الجديدة ضرورية لابتداء هذه الحياة الجديدة. واما عقيدتا التقديس والامتلاء من الروح القدس فاذا اعتبرتا منفصلتين عنهُ تصبحان لغواً فارغاً. ولكن اذا اعتبرتا في علاقتهما باتباع يسوع تصبحان، لا حدًّا اعلى لما يمكن ان تبلغهُ الحياة المسيحية، بل حدًّا ادنى لما يجب ان تبلغهُ. ان شئت ان اتبعهُ

فهو يطلب مني كل ما املكه ُ وانا لا اريد ان اعطيهُ اقل من ذلك ·
لقد تكرر وعظ الواعظين عن القداسة ولكن كثيرين منهم اضاعوا معناها لسبب فصلها عن شخص يسوع · وكان الاجدر بهم ان يقللوا الكلام عن القداسة ويكثروا من الكلام عن المسيح الذي يمنحها · وكذلك لا يصعب الاعتقاد بالكفارة حين نفتكر بالمسيح · أيمكن ان محبة فائقة كمحبتهِ تتركنا وشأننا ? ألا يعمل كل ما يمكن عملهُ لاجلنا ? دع كلمة «الكفارة» تشمل كل ما يمكن ان تتضمنهُ وهي تظل قاصرة عن ان تبين ما عملهُ المسيح للبشر

واما الاعتقاد بوحي الكتاب فانهُ يتخذ من المسيح معنى يزيده رسوخاً فاذا بحثنا كيفيتهُ بصرف النظر عن يسوع ينحط بحثنا الى مماحكة جدلية ولكن اذا بحثناه وانظارنا متجهة الى المسيح نجد انه امر ضروري اذ لا يتصور العقل ان شخصاً كيسوع يمكن ان يبرز من كتاب اعتيادي بشري غير موحى به من الله · فان ما يتضمنه من الافكار والتصورات عن شخص يسوع لاسمى من ان يكون قد ابتكره عقل بشري مهما كانت درجة رقيهِ · وكما ان يسوع اوجد العجائب حوله في الطبيعة الانسانية وفي العالم المادي فكذلك قد نشأت اعجوبة في العقل البشري اذ ظهر للعالم تحت سلطة تلك الشخصية السامية «ما لم ترَهُ عين ولا سمعته اذن ولا خطر على بال انسان»

وهنا استدرك امراً قد يفهم على غير حقيقته مما سبق · فان يسوع لم يصدر من الكتاب المقدس بل الكتاب صدر منه · لم يوجده الكتاب بل هو اوجد الكتاب

ولما كانت الاثار الادبية لا تسمو على الحياة، لان الحياة تضع لها معنى وجوهراً ، فكذلك لا نستطيع ان نجد كتاباً افضل من كتاب الوحي الا اذا وجدنا حياة افضل من حياة يسوع · واقوى وسيلة للتمسك بوحي الكتاب المقدس هي التمسك بشخص يسوع

فعلينا ان ندعو الناس لا الى الولاء لايمان او معتقد بل الى الولاء لشخص فقد نكون صادقي الولاء لمعتقدنا ولكننا قد نكون في الوقت نفسهِ موتى موتاً وروحياً لكننا اذا كنا صادقي الولاء لهذا الشخص فلا بد من ان نكون احياء حياة روحية فهو الذي يخلق الايمان وهو نفسهُ اعظم مومن وفي نور ايمانه الساطع لا نستطيع الا ان نؤمن · ولكننا لا نتوصل الى يسوع من معتقداتنا بل نتوصل الى معتقداتنا من يسوع ومن الضروري ان تبقى هذه المعتقدات تابعة لارشاد فكره وروحهِ لتصحيحها

وان كان احد يخاف مما قد يحدث لو ارشدنا الهند الى يسوع دون ان نربطها بقيود من النصوص الفكرية والانظمة الكنسية لئلا تفسد كلها · فلتتبدد مخاوفنا ولتطمئن افكارنا فيسوع قادر ان يعتني

بذاتهِ قد اظهر ثقة بتلاميذه الاولين الذين لم يكونوا ارقى ولا احط من شعب الهند فانهم لما تمسكوا بهِ خرجوا الى العالم حاملين اسمهُ ومتشحين بقوتهِ واذ لم يكن لهم الا القليل من النظام الكنسي ومن العقائد التعليمية خلقوا لها اشكالاً اوحاها لهم وافر محبتهم للمسيح وهذه الاشكال كانت صحيحة لانها صدرت عن حرارة محبتهم فجاءَت معبرة عن الحياة . اننا نعتقد ان الهند ستحب المسيح اذا ظهر كأنهُ وطني فيها وتلك المحبة ستتحول الى الخضوع لهُ بفرح كالمخلص والسيد وعن هذا الخضوع المقترن بالمحبة سينشأُ تمثيل المسيح في مظهر جديد في افكار الهند وحياتها

انا نحن الذين نظن ان من واجبنا ان ندير دفة حياة الهند الدينية يجب علينا ان نتذكر ان يسوع يستطيع ان يعتني بشؤُونهِ حتى في اشد ساعات الخطر . وقع بايدي اعدائهِ اليهود فصلبوه ولكن النتيجة كانت عمل الفداء والقيامة المجيدة . انخاف من ان ندعهُ يقع بين ايدي اصدقائهِ الهنود . هل يبتلعونهُ ? لا باس فقد ابتلعتهُ الهاوية مرة ولكنه عاد فقام منتصراً . وقد يُبتلع ثانية ولكنهُ لا بد من ان ينتصر . وكل ما اعرفه هو انه منذ دخل يسوع الى فكر الهند وحياتها اخذت الاشياء القديمة تتصدع والصور الميتة تتحطم . ومن هذا يظهر لنا ان هنالك قيامة جارية بالفعل الان

وليس هنالك خطر حقيقي من ان يضيع يسوع كواحد من كثيرين بين آلهة الهند او ان يوضع كاحد آلهة بانثيون الهندوس. حاولت ذلك قديماً بلاد اليونان وروميه ولكن الهيا كل التي وضع يسوع بين آلهتها قد زالت من الوجود ويسوع لا يزال حياً. فهو قوة فعالة متفجرة تشقق صروح الضلال. وكما تشقق صغار جذور النبات آثار مفاخر الانسان، اذ تتغلل بينها، كذلك هو متغلل في حنايا افكار الناس فلا يمضي طويل الا وقد تضعضعت وتحطمت قوالبها وعاداتها القديمة. انخشى ان تربة الهند تبتلعهُ؟ لا نخشى ذلك اكثر مما نخشى ان التربة الخصيبة التي جادتها السماء بالغيث المدرار تبتلع البذار الذي نودعهُ فيها؟

قال لي احد الهندوس ذات يوم. «اعطنا يسوع ويسوع فقط ولا تخف من اننا نعده انساناً مجرداً فان الوهيتهُ ستشرق من تلقاء ذاتها»

وبكل حال لم توجد حالة لم يكن فيها يسوع هو السيد ويصدق هذا بنوع خاص حين كان على الصليب حتى وفي داخل القبر. وهو سيكون السيد على طريق الهند وفي تقاطع طرق الهند حيث تتصادم المعتقدات والاديان تصادم المزاحمة والعداء

الفصل العاشر

المسيح والاديان الاخرى

اذا واجه المسيح بلاد الهند وماضيها فماذا يطلب منها؟ حين دخل الاسلام تلك البلاد واصطدم بديانة الهنود القدماء فرض عليها التسليم التام" اي ان تمحو صحيفة الماضي باسرها وتسطر في مكانها تعاليم نبي" الاسلام. فلا عجب ان وقفت الهندوسية في وجه الاسلام وقفة المقاوم المدافع ولا تزال على ذلك حتى الان ذلك لانها لم تشأ ان يضمحل ماضيها وحياتها القومية فباحتفاظ الهند بهما احتفظت بديانتها القديمة ايضاً

فهل يكون موقف المسيحية تجاه الهند كموقف الاسلام؟ وهل يطلب يسوع نفس المطاليب التي طلبها محمد. وهل يصرّ على ان تمحى صحيفة الماضي باسرها؟

نعترف بان موقف المرسلين المسيحيين ودعايتهم كانا في الغالب يرميان الى مثل هذا المرمى. ولكننا اذا دعونا الهنود الى قبول المسيحية كنظام مرتبط ارتباطاً متلازماً بالمدنية الغربية وكنظام كنسي لا يتغير او كتعليم لاهوتي موضوع في قوالب جامدة فعندئذٍ يصبح

موقفنا تجاه الهند كموقف الاسلام اي اننا نطلب منها محو الماضي برمتهِ لنرسم مكانهُ تعاليمنا اللاهوتية وانظمتنا الكنسية ومدنيتنا الحديثة اما اذا كان موضوع كرازتنا المسيح والمسيح وحده فتلك النتيجة لا تتبع بالضرورة. اذاً ما المانع من ان يأتي المسيح الى الهند ويقول كما قال في اليهودية: «ما جئت لانقض بل لاكمل». وكما انهُ جمع في حياتهِ كل ما هو سامٍ وجميل في تعاليم اليهودية وماضيها وكساها حلة بهاء جديدة فهو يفعل الشيء عينه في الهند وكما ينطبق قولهُ «ما جئت لانقض بل لاكمل» على الناموس والانبياء ينطبق على الحقيقة اين وجدت

مما لا ريب فيهِ ان الهنود المتعبدين يرون في دينهم كثيراً مما هو جميل ويستحق الاحتفاظ بهِ. ويقلقون لما يرونهُ من انحلال ديانتهم ويحارون فيما سيكون مصيرهم في المستقبل. يرى الهنود انفسهم هذا الانحلال ويعترفون به بصراحة مقترنة بالالم قال احد نوابغهم وهو محرر احدى الصحف الهندية: «انني اشعر بغصة من الالم اذ ارى الهندوسية تنحل وتموت. ولكني اعرف ما هو شعور الطبقة المنبوذة لاني صرت منها». وذلك انه على اثر عودتهِ الى بلاده من اوربا حيث تلقى العلوم الحديثة اصبح منبوذاً من الطبقات العليا فقال ما قاله عن تألم مرّ

وقد ذكر مأمور الاحصاء في ولاية بارودا (وهو من الهندوس ايضاً) في تقريره عن سنة ١٩٢١ ما يأتي : « انه يظهر على الهندوسية اكثر مما يظهر على كل دين سواها من ادلة الانحلال في الوجهتين الاجتماعية والدينية »

نشرت جريدة « البلاغ الهندي » وهي صحيفة تنطق بلسان الفئة الارثوذكسية من الهندوس ، اي المتمسكة بالتعاليم القديمة ، كتاباً مفتوحاً وجهته الى احد اعضاء المجلس التشريعي وكان قد عرض على المجلس مشروع قانون يتعلق بكيفية استخدام اموال اوقاف الهياكل قال الكاتب : « اني انتمي الى الفئة الارثوذكسية من الهندوسية واعتقد انه غير خافٍ عليك ان الفئة الارثوذكسية وان تكن الاكثر عدداً بين فئات الهندوسية فهي ضعيفة مختلة النظام لا يكاد يسمع لها صوت وهي آئلة الى الاضمحلال السريع · وقد لا يمضي جيل واحد او جيلان الا وقد اضمحلت بالكلية فيتمهد السبيل اذ ذاك للمصلحين اشباه حضرتك لادراك غاياتكم المنشودة · ولهذا يجدر بكم ان تبدوا شيئاً من الرافة نحو الفئة الارثوذكسية وتتركوها لتقضي نحبها دون ان تقاسي الم النزاع · لان الشهامة لا تقوم بالاجهاز على خصم صريع · وفي لائحتكم الجديدة التي اصبحت قانوناً نافذ المفعول لم تتركوا مخصصات للكفاءة الدينية بل اقتصرتم على اظهار الشفقة على المرأة نظراً لحالتها

التي اعتبرتموها موجبة للاسى وذرفتم دموع الرياء · فساعدتم بذلك على تقويض صرح المنشآت الهندية القديمة · ان الارثوذكسي وان يكن ضعيفاً فله الحق ان يعيش في هذا العالم وما دام حياً فلا بد لهُ من الجهاد في سبيل الحياة · » وهذه الرسالة لا تحتاج الى تعليق لتبيان مدلولها من جهة ما يشعر بهِ الهنود انفسهم عن مصير ديانتهم وان كنا لا نتعرض لموضوع القضية التي كتب هذا الكتاب دفاعاً عنها

وهنا اروي حادثة اخرى تدل نفس الدلالة على داخلية الحال في الهند · كنت مسافراً ذات يوم في القطار فسمعت مناقشة دائرة بين اثنين من اعضاء مجلس مدراس التشريعي احدهما برهمي والآخر من طبقة اخرى ولكن كليهما من ذوي المقدرة وكان كلامهما احياناً موجهاً اليَّ واحياناً من الواحد الى الاخر · فبقيت ملتزماً الحياد · وفي اثناء الكلام قال غير البرهمي « نعم لقد مضى زمن كنا فيهِ نغسل ارجلكم المقدسة ونشرب ماءها لنطهر ذواتنا بهِ · ولكن عيوننا قد انفتحت الان ونبذناكم »

فاجابهُ البرهمي « انكم بعملكم هذا قد نبذتم ديانتكم ايضاً »

فقال الاخر « لا باس فان كانت تلك هي الديانة فلعنة الله عليها »

وليس ثمت ريب في ان البرهمية ، كديانة مرتكزة على البرهمي ، آخذة في انحلال بطيء – بل سريع كما يظن البعض – وهذا الشعور

هو الذي بعث البراهمة على مقاومة غاندي لانهُ يبث آراء لا تتفق مع امتيازاتهم

وقد عبر احد اذكياء الهندوس في مسمعي عن هذه الحالة بعبارة موجزة بليغة وان تكن خشنة اذ قال : «ان المسيحية في نموّ والهندوسية في حالة نزع · لعنة الله عليها »

اما قولهُ ان الهندوسية في حالة نزع فهو يحتاج الى بعض التعديل لانهُ وان تكن بعض العادات الهندوسية الخارجية اخذت تموت موتاً تدريجياً الا ان وراء هذه العادات الخارجية عقائد راسخة هي روح حياة الهندوسية التي جعلتها تحيا كل هذه القرون الطويلة فنظام الطبقات الاجتماعية وعبادة الاصنام سيزولان ولكنهُ سيبقى ما يمكن اعتباره لب لباب الميراث الهندي · وهو امر يستحق الاحتفاظ بهِ · ان احدى سيدات بلتيمور وجدت بعض البزور في يدي مومياء مصرية فزرعتها واذا بازهار مجد الصباح نبتت منها· وفي ايدي مومياء عادات الهندوسية وتقاليدها خمس بزرات اعتقد انها تستحق البقاء وهي : (١) ان الروح هي الحقيقة القصوى (٢) ان فكرة الوحدة تتخلل جميع الكائنات (٣) ان العدل مستقرّ في قلب الكون (٤) عاطفة ميل شديد للحرية (٥) ما تقتضيهِ الحياة الدينية من تضحية ومجاهدة

واني لا اظن ان العالم يستطيع الاستغناء عن هذه المبادىء الخمسة المنطبعة في فكر الهند وفي حياتها

وانهُ من الامور العظيمة الاهمية ان يكون الاعتقاد بان الحقيقة القصوى هي الروح اعتقاداً راسخاً في عقلية الهند

قال برنارد لوكاس «انما نحن ابناء الغرب تثبت المادي كقضية مسلم بها ثم نستنتج منهُ الروحي استنتاجاً ولكن الهند تثبت الروحي اولاً ثم تستنتج المادي منهُ» . ان الهند موقنة ان الروحيات حقيقية ولكنها ليست على نفس اليقين بان الماديات حقيقية . اوَ ليس هذا الرأي في الحياة مما يمكن ان تكون العناية الالهية قد اذخرته لتظهره للعالم في زمن بلغت فيه الماديات اقصى درجات السيادة على افكار الناس ؟ اوَ ليس الاعتقاد بوحدة الكائنات من الاعتقادات الجديرة بان يحتفظ بها ؟ ان الهند قد تطرفت في هذا الاعتقاد حتى سقطت في هوة البانثيزم (اعتقاد ان كل شيء هو الله) . ولكن هذا الاعتقاد سوف يصحح ويتحول الى اعتقاد بالبانأنثيزم (اي ان كل شيء في الله) . ومن هذا نتدرج الى الشعور بوحدة الحياة كلها . وهذا يجعل الكون اوفر امتلاء بمعنى الوجود والعطف والمحبة

اوَ ليس كذلك من الامور العظيمة الاهمية ان الهندية تعتقد ان هنالك في قلب هذا الكون عدلاً لا يعتريه وهن ولا خلل سائداً

عليهِ ؟ ان اعتقاد الهنود بوجود هذا العدل المطلق هو الذي يجعلهم يتحملون اشد اصناف العذاب الوحشية تكفيراً عن خطاياهم . ولكن هذه المظاهر القاسية الهمجية سوف تُتلطف ثم تزول . اما الفكرة الاساسية وهي ان العدل يجب ان يأخذ مجراه فستبقى وقد تكون واسطة لتقويم اهوائنا التي تحملنا احيانًا على الجنوح الى طلب غفران سهل

ثم ان شدة التعطش الى الحرية النفسية، والشوق الى كسر قيود الامور الخارجية الظاهرة ، لعاطفةٌ جميلة استولت على نفس الهند واذا تعدلت باقترانها برغبة شديدة في ترك الحرية للغير فستكون ربحًا قيماً لحياتنا الاجتماعية

وفوق ذلك فان اعتقاد الهند ان الحياة الدينية يجب ان تكون عظيمة الثمن وان الديانة تطلب كل شيء وتحتفظ بكل شيء. كل هذا سيصحح كثيراً من ميلنا الى فصل الدين عن غيره من شؤون الحياة كأن لكل منها مخدعاً خاصاً في النفس ويحثنا على ان نجعل الدين الكل في الكل في حياتنا

ان قشرة الهندوسية تتحطم وتزول وستترك لنا هذه المتروكات النفيسة . فكيف يمكن الاحتفاظ بها؟ هذا امر عظيم الاهمية للشرق وللغرب على السواء

واني لا اظن انهُ في الامكان الاحتفاظ بها في اشكالها او قوالبها القديمة لان هذه تتناثر وتسقط ولا يمكن تجديد حياتها بل يجب تهيئة قوالب جديدة لتحل محلها او كما قال ما كيفر (مشيراً الى امر اخر ولكن كلامه ينطبق على هذا الموضوع) «ان مركز السلطة يجب ان يكون جديداً . فمتى زالت السلطات الخارجية ولم تعد لها سيطرة فعالة على سلوك الناس فلا فائدة من تقييد الناس بها والسعي في تقديم بواعث جديدة لهم على العمل بل يجب ان يبلغوا وحدة جديدة في الحياة لانهم لا يستطيعون استرجاع الوحدة القديمة» . فاين توجد وحدة الحياة الجديدة هذه ؟

لقد بدأ الهندوس انفسهم يتبينون اين توجد . تامل في الحادثة الاتية ومدلولها وسل ذلك السؤال :

في مدينة . . . . تولى البرهميون انفسهم ادارة اجتماعاتنا بكليتها فهم وزعوا الاعلانات عنها بواسطة سعاة الحكومة . وهم قرروا ان تعقد الاجتماعات ضمن حديقة احد الهياكل الهندية — مكان لم يسمع من قبل بانعقاد اجتماع مسيحي في مثلهِ . وكان المكان مزداناً بالرايات المختلفة الالوان احتفاءً بالاجتماع . وتولى افراد من الهندوس استقبال الجماهير وارشادهم الى اماكنهم وترأس الاجتماعات اكبر وجهاء الهندوس في المدينة . وحيث انه لم يوجد مترجم مسيحي يترجم خطبتي قدموا لي

مترجماً هندوسياً وهو رجل حاد الذهن ذو صفات جميلة . كان في الليلة الاولى يترجم بكل رزانة وقد امسك عصاهُ امامهُ بكلتا يديهِ ولم يكن يحركها . ولكنهُ في الليلة الثانية دب فيهِ الحمس فكان يؤشر كما كنت انا أؤشر

وحدث في الليلة الاولى حين كنت في منتصف خطبتي ان اجراس الهيكل ابتدات تقرع والابواق تنفخ استعداداً للصلاة المسائية فاضطررت الى التوقف عن الكلام متحيراً فوقف احد اعيان الهندوس وقال لي « تفضل يا سيدي واقعد هنيهة لان قرع الاجراس لا يستغرق الا بضع دقائق . وسنبقى نحن هنا وننتظر اتمام خطبتك » فقعدت ولم يدخل الهيكل من كل الجمهور الذي كان مجتمعاً لسماع خطبتي سوى نحو ستة اشخاص ولما انتهى قرع الاجراس استأنفت الكلام كأن لم يحدث شيء وفي الليلة التالية كان موضوع كلامي « يسوع للجميع » وفي ختام الخطبة وقف محامٍ هندوسي وسألني هذا السؤال: « ألا تظن ان الهندوسية سوف تتطور تدريجياً وتتحول الى المسيحية دون ان تخسر صفاتها الطيبة ؟ » . فاكدت لهُ اني اعتقد ان ذلك جارٍ فعلاً . شاهد هذا الرجل المفكر ان هنالك تحولاً مستمراً عن القديم وكان شديد الرغبة في حفظ ميزات القديم الصالحة . فاكدت لهُ من قلبي ان يسوع لم يأتِ لينقض ذلك الصالح بل ليحفظه . أليست

وحدة الحياة الجديدة التي لا بد للهند من الحصول عليها هي في المسيح؟ لا ريب في ان المسيح هو الذي تتم في شخصهِ هذه الوحدة

اعرب احد كبار المحامين الهندوس في مدراس عن اعتقاده بصحة هذا الاستنتاج بقولهِ : «ان اعادة الحياة الى الهندوسية لا يمكن الا بواسطة روح المسيح» . وقد اعرب عنها احد قضاة المحكمة العليا وهو هندوسي ايضاً بقولهِ : «ان المسيح هو رجاء الهندوسية الوحيد»

فهل تتجدد حياة تلك المبادىء التي يتكون منها اجمل ما في ماضي الهند اذا ماتت ودفنت في المسيحية ؟ وهل تعود فتتمثل في طريقة جديدة حية ؟ وهل يكون المسيح هو شكلها الجديد ومحركها الجديد؟

اني اعتقد كما قال احد الكتاب «ان تلك الافكار الالهية التي ظلت تتنقل في العالم حتى نسيت مصدرها الالهي ستعود فتكتسي لحماً ودماً اذ يجتمع الفكر بالحقيقة و يقترنان اقتراناً ابدياً لا انفصال بعده» واعتقد ان يسوع هو اللحم والدم الذي لبستهُ الافكار الالهية — هو الحقيقة التي تجد فيها تلك الافكار تعبيرها الحي

ان دور معظم المعتقدات القديمة دور يسهل تمثيلهُ ولكن دور من يجمع في نفسه كل ما هو ذو قيمة روحية وادبية تستحق الحفظ لهو دور اصعب من ذاك بما لا يقدر واعظم منهُ قيمة . ولهذا فاننا نستطيع ان نذهب الى الشرق شاكرين لله ما نجده هناك من الامور الجميلة

لاعتقادنا بانها «آثار وقع خطى» الله وادلة على انهُ كان هنالك قبل ان ذهبنا نحن وليقيننا بانهُ في كل مكان وجدت فيه نوافذ عقل الانسان مفتوحة فان نور الله قد اشرق عليهِ من تلك النوافذ · ان ذلك النور المتفرق الذي انار كل انسان اتى الى العالم قد تجمع في بوُرة واحدة هي شخصية يسوع · «فيه كانت الحياة والحياة كانت نور الناس»

ولكي نرى كيف ان يسوع جاء متمماً لاجل ما توصل اليهِ الشرق والغرب في جهادهما النفسي علينا ان ننظر الى غايات الحياة كما فهمها اليونان والى تلك الغايات كما فهمها الهنود والى الاعلان الذي اعلنهُ يسوع عن نفسهِ · فقد كان اليونانيون دماغ اوربا المفكر وهم وضعوا لها فلسفتها وكان الهنود دماغ آسيا المفكر ووضعوا لها فلسفتها · قال اليونان ان غايات الحياة ثلاث وهي : الفضيلة والحقيقة والجمال وقال الهنود ان غايات الحياة ثلاث وهي : غيانا وبهاكتي وكارما · ولكن الفرق بين الهنود واليونان هو ان الهنود اشد تديناً من اليونان ولهذا جعلوا هذه الغايات الثلاث في دورها وسائل فقط تودي الى الغاية القصوى وهي برهمه وطرق الوصول اليه ثلاث سموها : غيانا مارغا اي طريق المعرفة وبهاكتي مارغا اي طريق العبادة او العواطف وكارما مارغا اي طريق الاعمال

اما يسوع فوقف بين اليونان والهنود متوسطاً بين الشرق

والغرب واعلن عن ذاتهِ قائلاً : « انا هو الطريق والحق والحياة » — فكأنهُ التفت الى اليونان وقال « انا هو الطريق » اي أُسلوب العمل او الفضيلة « وانا هو الحق » اي الحقيقة التي نشدها فلاسفتهم « وانا هو الحياة » — اي الجمال لان الحياة هي الجمال مع ما يختص بهِ من مكملات . ثم التفت يسوع الى الهنود « وقال انا هو الطريق » اي كارما مارغا — طريق الاعمال « وانا هو الحق » اي غيانا مارغا — طريق المعرفة « وانا هو طريق الحياة » — اي « بها كتي مارغا » — طريق العواطف لان الحياة هي العواطف مع ما يكملها

فالمسيح قال عن ذاتهِ : « انا هو الصلاح والجمال والحقيقة — وانا هو الغيانا والبهاكتي والكارما — وذلك لاني انا هو الطريق والحق والحياة »

لم تكن غايات اليونان سوى افكار او مُثل جميلة قبل ان صيرها المسيح حقيقة — قالت الكاتبة الانكليزية جورج اليوت

« ان الافكار ليست سوى خيالات حقيرة ما لم تتجسد » . فاذ تجسدت ترمقنا بعيون الاسى وتلمسنا بايدي القوة وتصبح هي قوة . والكلمة لم يستطع ان يمسَّ قلوبنا الا حين صار جسداً . لا استطيع ان ارى الجمال الكلي ما لم يخلق صورة جميلة منظورة ولا استطيع ان اتعشق الصلاح الكلي ما لم بعمل عملاً صالحاً ولا ان افهم الحقيقة

الكلية ما لم تتمثل في حياة فرد. فيسوع هو ذلك الجمال الكلي متمثلاً في صورة منظورة وهو ذلك الصلاح الكلي متمثلاً في عمل محسوس وهو ذلك الحق الكلي متمثلاً في حياة شخصية بل هو الذات الكلية

فالغيانا مارغا في اعتقاد الهنود هي التعبد لفكرة والكارما مارغا التعبد لقانون والبها كتي مارغا التعبد لشخص. ولكن يسوع هو تلك الفكرة متحولة الى حقيقة وذلك القانون متحولاً الى سجية وذلك الشخص متحولاً الى اسمى شخص — الى المثل الاعلى

ولا يوجه يسوع خطابهُ الى اليونان والهنود فقط بل يوجههُ الى الشخصية البشرية في كل مكان ويتممها. ان المفكر الحديث يحلل الشخصية الى عناصر ثلاث وهي العقل والحس والارادة. ويقول يسوع «انا هو الطريق» — الذي تسير فيهِ الارادة والحق — الذي ينشده العقل والحياة — التي يندفع اليها الشعور. فالمسيح هو الجواب الايجابي — «الآمين والنعم» — للشخصية البشرية وهو اتمامها لانهُ الشخص الاسمى

وفوق ذلك فهو يواجه افكار عصور العالم اجمع وتهذيبها ويقول «انا الطريق» (اي الاخلاق) والحق (اي الفلسفة) والحياة (اي الدين) فالمسيح هو كل هذه لانهُ الحياة والحياة تشمل

هذه المظاهر وتزيد عنها ٠ وهو الكلمة التي تجمل فيها كل الكلمات الاخرى

ولقد يعترض معترض ان هذه الامور كلها كانت موجودة قبلهُ ٠ ولم يكن فيهِ شيٌ جديد — يروى ان احد علماء الآثار القديمة كان يشرح لاحد اصدقائهِ عن فن النحت عند اليونانيين ويبين ان مميزاتهِ الرئيسية قد سبقهم اليها الاشوريون والحثيون والمصريون واحدة فواحدة ثم ختم شرحهُ بقولهِ ان اليونانيين في الحقيقة لم يخترعوا شيئاً جديداً فاجاب صديقهُ «لا شيء ما عدا تمثيل الجمال وكفى» وهل يستطيع قائل ان يقول ان يسوع لم يوجد شيئاً جديداً ؟ ان يسوع نفسهُ هو ذلك الجديد !



الفصل الحادي عشر

مسيح الحقيقة

ان الهند موطن الصوفية وجوها الفكري مشبع منها حتى انها تكاد تلمس باليد. ونريد بالصوفية في معناها الفلسفي مذهب القائلين بان مبادىء المعرفة والاعتقاد القصوى تدرك مباشرة عن طريق الشعور او الايمان لا عن سبيل الاستدلال والتفكير. وفي معناها الديني هي مذهب القائلين بامكان وجود علاقة مباشرة بين الانسان والحق سبحانه وتعالى يصل بها الانسان الى معرفة الله والامور الروحية مباشرة عن غير طريق العقل الطبيعي و بكيفية لا يستطاع تحليلها او ايضاحها. واذا اعتبرنا الصوفية بانقى معانيها نجد ان يسوع قد كان اعظم المتصوفين فقد كان العالم غير المنظور حقيقياً لديهِ كان يقضي ليلهُ في الصلاة ومناجاة الاب السماوي. وكان يحيا في الله والله يحيا فيهِ. فاذا قال « انا والاب واحد » لا يسعنا الا الشعور بصحة قوله ولهذا نجد في الهند وطن الصوفية ميلاً الى قبول يسوع الذي تنطبق حياتهُ على اراء الصوفية. الا ان يسوع لم يكن خيالياً ولا كان في تعليمهِ يدعو الى اتباع الاوهام بل كان يتمسك بالحقائق المحسوسة التي يمكن العمل

بها. جاء الى جوٍّ مشبع من النظريات والمجادلات الكلامية كان أُناسه كما قيل فيهم « كثيراً ما يسكرون بخمر ثرثرتهم » ففاجأ ذلك المحيط بالحقائق الراهنة . علم الناس ولكنهُ لم يُضع جهوده في المباحثات النظرية العقيمة . ولم يستعمل الفاظاً تدل على ارتيابهِ او تردده فيما علمهُ فلم يقل « لعل » او « ربما » او « اظن » او « يمكن » بل كان لكلامهِ رنة اليقين فكان يقع في النفوس موقع التاكيد

فهو لم يبحث بحثاً نظرياً في قداسة الامومة ولكنهُ رضع ثديي امهِ كطفل و بذلك قدس الامومة مدى الدهر

ولم يجادل عما اذا كانت الحياة نموًّا ام خلقاً كاملاً والسجايا شيئاً مكتسباً ام غريزياً . ولكننا نقرأُ عنه « انهُ كان ينمو و يتقدم في الحكمة والقامة والنعمة عند الله والناس » ولم يكن « يتفلسف » ليبين سبب وجود التجارب في هذا العالم ولكنه واجه التجربة وبعد ان حاربها اربعين يوماً في البرية انتصر عليها ورجع « بقوة الروح الى الجليل »

ولم يناقش في شرف العمل اليدوي ولكنهُ كان يشتغل على بنك النجار بصنع الانيار والمحاريث وغيرها من الادوات الخشبية البسيطة حتى قست انامله وخشنت كفاه و بعملهِ هذا شرَّف العمل اليدوي و كرَّمهُ

ولم نجده مرة يبحث في واجب الانسان نحو اهله وليثبت انه يجب عليهِ ان يدع نورهُ يشرق في منزلهِ و بين ذوي قرباه واصدقائهِ ولكننا نجد انهُ اعلن افتتاح عمله العظيم — عمل انهاض الناس وشفاء امراضهم — في الناصرة وطنهِ وأن الذين سمعوه « تعجبوا من كلمات النعمة الخارجة من فمهِ »

ولما حل بين الناس لم يحاول ان يبرهن لهم على وجود الله بل جاء بهِ اليهم · فانهُ عاش في الله وكان الناس اذا نظروا الى وجههِ لا يعودون يستطيعون الشك في وجود الله

وهو لم يكن يحاول اقامة البرهان على خلود النفس كما فعل سقراط ولكنهُ احيا الموتى · ولم يحاول تفسير عقيدة التثليث او اقامة البرهان عليها ولكنهُ قال « ان كنت انا بروح الله اخرج الشياطين فملكوت الله قد اقترب منكم » — وفي كلامهِ هذا نرى ان الثالوث — « انا » « بروح الله » « الله » — لم يكن شيئاً يتطلب اقامة البحث الفلسفي عنه بل كان قوة عاملة للفدى — لاخراج الشياطين ومجيء ملكوت الله

ولم يبين بطريقة تعليمية عظم قيمة الاولاد في عيني الله ولكنهُ وضع يديهِ عليهم وباركهم واقام ولداً منهم في الوسط وقال « لمثل هولاء ملكوت الله » ·

ولم يقم الحجة على ان الله يستجيب الصلاة ولكنهُ كان احياناً يصلي الليل بطوله · وفي الصباح كانت تظهر قوة الله فيهِ للشفاء

ولم يصور بالوان ساطعة او يصف بعبارات منمقة جمال الصداقة وحاجة الانسان الى عطف اخيهِ الانسان ولكنهُ بكى على صديقهِ لعازر

ولم يجادل عن قيمة المراة وضرورة منحها حقوقاً مساوية للرجل ولكنه كان يعامل النساء بمنتهى الاحترام ويلقي عليهنَّ اسمى تعاليمهِ وحين قام من الاموات كان اول ظهوره لامراة

ولم يكن تعليمه عن التواضع تعليماً مدرسياً ولكنهُ ائتزر بمنشفة وغسل ارجل تلاميذه ومسحها

ولم يناقش · يباحث لتبيان اهمية الفرد او الشخصية كما نفعل نحن اليوم ولكنهُ احب الافراد وخدمهم · ولا القى خطاباً عن المساواة بين الافراد ولكنهُ خالط المساكين والفقراء والمنبوذين وآكلهم وشاربهم

ولم يبرهن ان وجود الالم والحزن في هذا الكون لا ينقض محبة الله ولكنهُ اتخذ على نفسهِ في الصليب كل ما يناقض ظاهره محبة الله وفي آلامهِ اظهر محبة الله ذاتها

ولم يشرح عن امكان اتخاذ اضعف المواد البشرية وتحويلها بحيث

نقوم بقسطٍ من تحسين احوال المجتمع ولكنهُ دعا جماعة من الرجال الضعفاء كصيادي الجليل وارسلهم الى العالم ليشرعوا في اعظم حركة لانهاض العالم وافتدائهِ

وهو لم ينشئ كتباً ولا روي لنا عنهُ انهُ كتب الا مرة واحدة حين كتب في الرمل ولكنهُ كتب على قلوب الناس وضمائرهم رُقماً هي اجل ما كتب في العالم

ولم يصور لتلاميذه عالمًا خياليًا جميلاً بعيداً غير قابل التحقق بل اعلن ان ملكوت الله فينا وانهُ قريب ويمكن تحقيقهُ هنا والآن

ارسل يوحنا اليهِ من السجن رسلاً يسألونه عما اذا كان هو الاتي ام ينتظرون اخر ؟ فلم يبحث يسوع في ذلك السؤال مع تلاميذ يوحنا بل قال لهم ببساطة وهدوء « اذهبوا واخبروا يوحنا ماذا ترون العمي يبصرون والصم يسمعون والعرج يمشون والمساكين يكرز لهم بالانجيل » . فكانت حجة الحقائق المشاهدة والملموسة

ولم يبحث متفلسفاً في جمال المحبة ولكنهُ احبّ

ولا نراه يجادل عن وجوب تغلب الحياة الروحية على المادة ولكنهُ مشى على الماء وقد شعر بشدة الحاجة المادية التي شعر بها الناس حوله فلم يقتصر على التشفع بهم لدى غيره بل اطعم خمسة الاف منهم من خمسة ارغفة وسمكتين

جاءُوه برجل ذي مرض مزدوج ، كان مريضـاً في جسمهِ ومريضاً في ضميره بسبب الخطيئة ، فعالج يسوع المرض الخفي اذ قال للرجل « مغفورة لك خطاياك ». ولما اعترض الشعب على قوله اجابهم اي ايسر ان يقال مغفورة لك خطاياك ام قم واحمل سريرك وامشِ ولكن لكي تعلموا ان لابن الانسان سلطة على الارض لمغفرة الخطايا قال للمفلوج « قم واحمل سريرك وامشِ » فكانت العجيبة الظاهرة الواقعة ضمن دائرة الحس عربوناً على العجيبة الداخلية

قد دُعي يسوع ابن الحقيقة . ونجد امثلة مدهشة عن تمسكه بالحقيقة في وصفهِ للدينونة . فانهُ لا يقول للذين عن يمينه « انكم آمنتم بي وبتعاليمي فادخلوا الى ملكوتي » بل يقول لهم « كنت عطشـاناً فسقيتموني كنت مريضاً فزرتموني مسجوناً فاتيتم اليَّ غريباً فآويتموني عرياناً فكسوتموني » ولكن اتباعهُ الحقيقيين هولاء ابناء الحقيقة لا يشاءُون ان ينالوا السماء بطريقة يحتمل ان تكون خطـأً فيعترضون ويقولون « يا رب متى رايناك جائعاً فاطعمناك او عطشاناً فسقيناك او مريضاً فزرناك » فيقول لهم الرب « بما انكم فعلتموه باحد هولاء الاصاغر فبي فعلتم » . اي انه كان يطلب من تابعيهِ ان يبغوا مثلهُ الامور الحقيقية لا النظرية

وقد علَّمنا ان نفس الانسان ترجح قيمتها العالم المادي باسره . فانهُ

لما اجتاز البحيرة المضطربة الامواج في طريقه الى انقاذ نفس بشرية مضطربة لتسلط الشياطين عليها لم يحجم عن تضحية الفي خنزير لانقاذ انسان واحد هالك

وهو لم يجادل في امكان الطهارة من الخطية ولكنه اظهر نفسهُ للناس وقال « من منكم يبكتني بخطية » ؟

ولم يقتصر في تعليمهِ على ان يفرض على الناس ان يدير الواحد منهم خده الايسر اذا ضرب على الايمن وان يذهب ميلين اذا طلب منهُ ان يسير ميلاً واحداً وان يتنازل عن ردائه اذا طولب بالثوب وان يحب اعداءه ويباركهم. ولكنه هو نفسه عمل ذلك. ضربهُ خادم رئيس الكهنة على احد خديهِ فادار الآخر صفعهُ الجنود واكرهوه على المسير معهم ميلاً واحداً من بستان جسثيماني الى دار الولاية فذهب معهم اثنين—الى الجلجثة. اخذوا ثوبه في دار الولاية فاعطاهم قميصه على الصليب. وحين كان يتألم بآلام الصليب وعذابهِ المر كان يصلي من اجل اعدائهِ قائلاً « يا ابتاه اغفر لهم لانهم لا يعلمون ماذا يعملون »

ولم يكتفِ بان يقول لنا ان الموت لا يجب ان يرعبنا . بل قام هو من الاموات فاشرق القبر من ظلمتهِ بالنور

قد حاول كثيرون من معلمي العالم ان يفسروا كل شيء فلم يغيروا الا

قليلاً او لم يغيروا شيئاً واما يسوع فلم يشرح الا قليلاً ولكنهُ غيّر كل شيء

حاول كثيرون من المعلمين ان يشخصوا مرض البشرية ولكن يسوع شفاه ، ابان لنا كثيرون من معلمي العالم سبب مرض العليل واشاروا بوجوب تحملهِ العلة بالصبر ولكن يسوع امر المريض ان يحمل سريره ويمشي

تفلسف كثيرون من الفلاسفة في كيفية دخول الشرّ الى العالم ولكن يسوع اعلن انهُ هو الطريقة التي بواسطتها يخرج الشرّ من العالم

لم يطل الشرح عن الطريق الى الله و كيفية الاهتداء اليهِ ولكنهُ قال للناس فقط « انا هو الطريق »

فكر الكثيرون وتساءلوا كما تساءل بيلاطس « ما هو الحق » ؟ ولكن يسوع اعلن ذاتهُ قائلاً « انا هو الحق »

اجهد سبنسر فكرهُ في تعريف الحياة الطبيعية وشرحها ولكن يسوع عرّف الحياة تعريفاً بسيطاً اذ قال « انا هو الحياة » وكل من نظر اليهِ نظراً حقيقياً يعرف في اعماق نفسهِ انهُ انما ينظر الى الحياة عينها

ليس في الهند ولا في العالم اجمالاً اليوم حاجة اشد مساساً من الحاجة الى هذه الصوفية العملية التي جاء بها يسوع حلاً شافياً

لمعضلات الحياة . قال احد المفكرين ليس في العالم انسان قوي الا وهو ينطوي في داخلهِ على متناقضات صريحة فالانسان المتصوف تصوفاً مجرداً انما هو ضعيف والانسان الذي يقتصر على الامور العملية ضعيف ايضاً ولكن يسوع المتصوف العملي الذي يتألق مجداً مع الله ومع ذلك يتنازل ليخدم الانسان خدمة المحبة هو القوة متجسمة

فلا عجب ان تلتفت الهند عن غير انتباه بعد ان سئمت الفلسفة العقيمة الى يسوع الذي جمع في شخصه اسمى ما تحتويه الصوفية مع الخدمة الفعلية العملية للجميع



الفصل الثاني عشر

كيف تفسر الهند شخصية يسوع وتعاليمه

لو سأل سائل : كيف تفسر العقلية الهندية شخص يسوع المسيح وتعاليمهُ وبمَ تمتاز في ذلك عن باقي الشعوب ، لما استطعنا اجابة هذا السؤال جواباً اكيداً · لان جواباً كهذا يقتضي ان يصدر من الهند نفسها · وجل ما نستطيع ان نقولهُ عن يقين هو انهُ لا بد من ان يكون للهند تفسير خاص بها

فان الكنيسة المسيحية في كل حين سادها فيهِ التعقل والشعور الروحي الحي كانت تجعل شخص يسوع محور الديانة وجوهرها الحقيقي الا ان تعاليم يسوع وحياتهُ كانت تتلون بلون حياة الشعوب التي تقبلها

اشار بولس الرسول الى الانجيل بقوله «انجيلنا» او «انجيلي» وقصد بذلك بشارة الانجيل كما عبر عنها هو بعد ان اجتازت عقليتهُ المشبعة من الافكار اليهودية · فقد كان بولس يسبك كنوز ذلك الانجيل الثمينة في قوالب متخذة من اسلوبه الفكري الخاص · ولهذا حق لبولس ان يقول عن الانجيل انهُ « انجيله » لانهُ لم يكن لاحد غير بولس ان يعبر عن المسيحية بنفس التعبير الذي عبر بهِ عنها بولس اذ لم يكن

لاحد سواه ما كان لهُ من الميراث القومي والاجتماعي ليتهيأ لهُ بواسطتهِ ذلك

ولما انتشرت المسيحية ولامست العقل الاوربي في بلاد اليونان اتخذت قالباً آخر من التعبير . اي انها تلونت بلون الفلسفة اليونانية والشريعة الرومانية . كان اليونان قادة الافكار في اوربا حين وضعت قوانين الايمان المسيحي فلهذا كانت نشأة تلك القوانين في جوّ يوناني . وقد اشار احد الكتاب الى هذا بقولهِ « انهُ في عيد الخمسين حين حلول الروح القدس كان كل واحد من الحاضرين يسمع الانجيل بلغتهِ الخاصة . الا ان الصوت الذي سمع في المجمع النيقوي كان صوتاً يونانياً لا غير » . اننا ننظر الى تلك القوانين نظرة ملؤُها الشكر لانها حفظت الديانة المسيحية من التطوح والتحول الى فلسفة دينية او الى ثيوصوفية فارغة عديمة المعنى . عيَّر كارليل المسيحية انها انشقت بسبب عبارة بسيطة ولكنهُ اعترف بعدئذٍ بان المسيحية باسرها كانت قائمة على تلك العبارة . وحقاً ان دقة الفكر والتعبير التي امتازت بها العقلية اليونانية حفظت الديانة المسيحية من التهور في الخطإِ الاعتقادي الا ان تلك الدقة عينها كانت سبباً لحصر المسيحية في قوالب فكرية مخصوصة

ثم ان المسيحية لما تسلطت على عقلية الشعب الروماني برزت

منها وقد اتخذت كثيراً من الاراء المتعلقة بالكفارة منقولة عن وضعيات الشرع الروماني · حتى انهُ يخيل الينا حين نقرأ بعض الابحاث الجدلية في موضوع الكفارة اننا في محيط قضائي · فانها ترى ان الله قاض وان البشر ليسوا سوى رعايا محكومين وان للكون قانوناً مدوّناً وان العلاقة بين الله والبشر علاقة قضائية محضة · لا ينكر انهُ من المفيد ان ننظر الى الكون كوجود منتظم مؤسس على قواعد الشرائع الثابتة · لكنه على رغم ما جنتهُ المسيحية من الفوائد من هذه الوجهة النظرية فان تقيدها بنصوص مستعارة من الشرع الروماني قد غلَّ ايديها وشلَّ حركتها · لان الله ليس شريعة او ناموساً فقط بل هو محبة تتمثل في الناموس · والعالم ليس محكمة قضائية بل عائلة · والعلاقة بين الله والانسان ليست علاقة قضائية فحسب كعلاقة الحاكم بالمحكوم بل هي علاقة ابوية كالعلاقة بين الاب والابن · ومع ان ما ورثناه عن اليونان والرومان قد عاد بفوائد جزيلة فقد وقف حائلاً كبيراً في سبيل التقدم الروحي

ثم ان الميراث الانجلوسكسوني قد ترك اثراً عميقاً في المسيحية - فان اسلاف الشعب الانجلوسكسوني (وهم النورس او السكنديناڤيون) كانوا يقطنون شواطئ نروج الوعرة · وكان جلّ معاشهم مكتسباً من البحر · ولكن ما كانوا يجنونه من البحر لم يكن يكفي للقيام

بحاجاتهم فاضطروا الى حراثة منحدرات تلك الجبال القاحلة . وكانت معيشتهم شظفة وبلادهم لا تحمل الا عدداً قليلاً من السكان . فلما كثر انسالهم اضطروا الى مغادرة اوطانهم والمغامرة لانفسهم معتمدين على كدّهم وسعيهم فقصدوا الى بلدان بعيدة افتتحوها واستوطنوها . ومن هذا الميراث الاجتماعي نشأت صفات ثلاث امتاز بها الجنس السكسوني وهي الاعتماد على الذات والاقدام طلباً للتوسع وتعشق الحرية الفردية . فكانت كل أسرة من أسره مكتفية بذاتها ولم تعد تستند الى المجتمع الا قليلاً — ولا تزال هذه الصفات الثلاث ملازمة للانجلوسكسون الى اليوم . ولما اعتنق الانجلوسكسون الدين المسيحي كانت مسيحيتهم متصفة بصفاتهم القومية وظهرت فيها مزايا الاعتماد على الذات والاقدام والحرية الشخصية . قال احد الانكليز في خطاب القاه امام جمهور من الهنود « اني انكليزي مسيحي ولكنني لا انسى انني انكليزي وان حياتي قد صيغت في قوالب العهد الجديد تحت مؤثرات المجتمع الانكليزي الحديث »

وعليهِ نرى ان المسيحية في البلدان الانجلوسكسونية قد ظهرت في الغالب بمظاهر السعي الفردي وحب التوسع وهذا ارث عاد على المسيحية عامة بفوائد جمة ولكنهُ لم يكن الا تمثيلاً جزئياً للمسيحية تنقصهُ معانيها الاجتماعية العميقة التي هي جوهر المسيحية . وقد زهت

البروتستانتية في الجو الانجلوسكسوني لتمسكها بالحرية الفردية ولكن البروتستانتية في قضائها على فكرة الكنيسة الواحدة الجامعة المنظورة كادت تقضي على فكرة الوحدة البشرية . ونحن الان نحاول مقاومة هذا التاثير السيء بواسطة تطبيق الانجيل على احوال المجتمع

وقد امتاز شكل المسيحية الذي نشأ في اميركا بحب الحركة والعمل والنشاط . وكان لمشكلة الزنوج في اميركا تأثير في تكييف بعض مظاهر المسيحية فيها . اقيم اجتماع ديني في احد الاماكن في اميركا اشترك فيهِ البيض مع الزنوج وعند ختام الاجتماع قالت احدى السيدات « ان هذا كلهُ حسن وجميل ومطابق لروح المسيحية ولكن ان كنا نسير طبقاً لهذا الروح في كنائسنا فالى اي حد نحن واصلون ؟ »

أفلا نرى في هذه الحادثة البسيطة شاهداً على القيود التي ورثتها المسيحية عن احوال المجتمع الذي نشأت فيهِ حتى انها حين تحاول التملص منها مدفوعة بروح الاخاء البشري الذي يشمل جميع الشعوب والجنسيات تتصدى لها قيود ميراثها الاجتماعي فتحول دون ذلك ؟

ان الشعب الهندي اغنى الشعوب في مواهبهِ الدينية وان تكن الصور التي ظهرت فيها هذه المواهب في الغالب متطرفة وفي بعض الاحيان متصفة بالقساوة والانحطاط . وهذه الصور الخارجية آخذة في الاضمحلال وسوف يقضى عليها اما الروح فباقٍ ولا بد من ان

يظهر في صور اخرى . فاذا سبكت هذه المواهب الروحية في قوالب مسيحية نتج من ذلك زيادة غنى المسيحية ولكن لا بد للتوصل الى هذه النتيجة من ان يبقى الهندي هندياً . فعليهِ ان يقف في وسط تيار الحياة الهندية والثقافة الهندية ويدع ذلك التيار بقوتهِ يجتاز في نفسهِ ثم ينبعث منها مشبعاً من روح المسيحية فتكون المسيحية التي تظهر اذ ذاك مسيحية شرقية لا غربية في جوهرياتها . ولا يراد بهذا الكلام ان المسيحية الهندية تحرم من افضل ما تتضمنهُ فكرية الغرب وحياتهُ لانها بعد ان تستقر قدمها في تربتها الاصلية تمد يديها لتلتقط ما تستطيع الوصول اليهِ من ثمار العالم الغريب عنها . ولكن لا بد لها من ان تبتدئ بالتخصيص قبل ان تتوصل الى التعميم وبهذه الكيفية لا سواها تستطيع ان تكون مبتكرة لا مقلدة ويكون صوتها صوتاً اصلياً لا صدى عن صوت آخر

كتب لي احدهم في هذا الموضوع فقال : «اول ما يلزم لادراك هذه الغاية هو ان يوجد هنديٌّ حيٌّ» . واراد بذلك شخصاً ذا شعور حي بماضيهِ وبمقدّرتهِ وبمواهبهِ الدينية . فاذا وجد مثل هذا الروح فلا بدّ للمسيحية الهندية من ان تتوصل الى تكوين صور وقوالب خاصة تظهر فيها

والسبب الذي حال دون تادية مسيحيي الهند قسطاً من المساعدة

في تكوين علم اللاهوت المسيحي هو انهم حتى الان كانوا يحاولون ان يفتكروا في قوالب الفكر الغربية فوجدوا ذواتهم فيها كالسمك خارج الماء · اما الآن وقد استيقظت الهند وثاب اليها وجدانها ولم تعد سائرة في سبيل الخروج عن قوميتها ، صار يحق لنا ان نتوقع ان ذكاءها ينهض الى العمل · وليس لنا الا ان نثق بان الهندي سيقوم بما ينتظر منهُ

وليس من الانصاف ان نجعل شطط الهنود في الماضي سبباً يضعف ثقتنا بمقدرة الذكاء الهندي على فهم الديانة المسيحية فهماً صحيحاً الا اذا جاز لنا ان نرتاب بمقدرة العقل الغربي على فهم المسيحية لان ديانة الدرويد القدماء في انكلترا كانت تتطلب ضحايا بشرية او لان قدماء الاسكتلنديين كانوا من اكلة لحوم البشر

ان لكل امة قسطاً خاصاً بها تستطيع تأديتهُ في سبيل فهم المسيحية وتفسيرها وان ابن الانسان اكبر من ان ينحصر تمثيلهُ في فئة واحدة من الجنس البشري · ويحتمل ان ابعد الناس عنا في الجنسية يقدمون لنا اكبر مساعدة في تفسير مسيحيتنا

وهاك شاهداً من شعور وطنيّ سلافي عن نصيب شعبهِ في هذه المساعدة · ورد الى الاستاذ ملر قبل الحرب الكبرى بسنة كتاب من استاذ بوهيمي ظل ثلاثين سنة يعلم اللغة الالمانية في احدى كليات

المانيا · باح هذا الاستاذ في كتابهِ بما يجول في صدره من الاماني عن مستقبل شعبه فقال: «اني لست متشائماً الى حد يجعلني ايأس من ان تكون العناية الالهية قد اذخرت خيراً جزيلاً للشعوب السلافية ومما يحيي آمالي في هذا الصدد اعتقادي ان الجنس البشري قد يحتاج يوماً ما الى شعار جديد يتخذه فيأتي اذ ذاك دورنا · ارى ان العالم الان تحت سلطة كلمة هي شعار المانيا وهي «القوة» · ولكن الاشعرة تتغير من حين الى حين فمن المحتمل ان ينبذ الشعار الحالي فيتاح اذ ذاك للسلاف ان ينادوا بكلمة اخرى تجعل شعاراً للبشرية واتمنى ان تكون تلك الكلمة 'المحبة'»

والهند كذلك تؤمل ان يأتي يوم يحتاج فيهِ العالم الى شعار جديد ولديها كلمة مهيأة تصلح لان تكون ذلك الشعار وهي «أتما» — اي الروح — فان هذه الكلمة يتردد صداها في كل أرجاء الهند · لهذا يرجى ان اتباع المسيح في تلك البلاد يظهرون معنى الحياة الروحية الحقيقي فيظهرون استخفافاً بالاشياء المادية ويندفعون بكليتهم وراء الروحيات

وسيصحب هذا التطور تولد الشعور بالوحدة والانتظام اللذين يتخللان جميع ما في الكون · قال لي احد الهندوس «ألا تظن ان معنى الكفارة قريب من معنى الانتظام الموسيقي — اي اتفاق

الاصوات وتناسبها في النغم ؟ » (وقد خطرت لهُ هذه الفكرة من التقارب بين لفظتي atonement ومعناها الكفارة وattunement ومعناها « الدَوْزنة ») ومع انهُ لا علاقة الاّ سطحية في الاشتقاق بين هاتين اللفظتين فالفكرة جميلة وتدل على ان هذا الرجل شعر ان حياته كاجراس ، صوت كلّ ٍ منها على حدة جميل ، الا انها تقرع في غير تناسب (او دون دَوْزَنة) بسبب الخطية والشر الكامنين في النفس فتحدث اصواتاً تنفر منها الاسماع فتاقت نفسه الى السلام الداخلي اي الى حدوث تناسب ترتاح اليهِ النفس كما ترتاح الاذن الى سماع الانغام الموسيقية المنتظمة ورأى ان هذه الحالة المنشودة لا تحصل الا الا بحصول الكفارة

ولا عجب فان السلام هو اعظم فكر يجول في ذهن الهند وتتوق اليهِ نفسها · وحدة الطبع تعتبر في نظر الهنود امراً لا يتفق مع الحياة الدينية الحقيقية · قال لي احد القرويين ذات يوم : « اعرف اني لم انل الخلاص بعد لاني على رغم تغلبي على كل شيء لم اتغلب بعد على الغضب » وفي هذا ما يؤَملنا ان اتباع المسيح في بلاد الهند سيكونون متصفين بالسكينة والسلام والدعة كثيري التامل والتفكير يرون في الدين تحقيقاً لامانيهم وفي الله رابطة الوحدة والتناسب بين الجميع

ثم ان اتباع المسيح في الهند سيعرفون معنى الصليب لان الهند

تعتقد بان التدين يكلف الانسان كثيراً وسيكون انكار الذات امراً حقيقياً في نظرهم لان الهند تفهم بفطرتها معنى قول المسيح . « من يهلك نفسهُ من اجلي يجدها » وستشاهد لطخ الدم في آثار كثيرين من اتباعه السائرين في طريق الهند فيكونون « رسل الاقدام الدامية» اي رسل التضحية ،ويفهمون جلياً ما هو معنى كونهم اتباعاً مصلوبين للرب المصلوب

في لغة الهنود لفظة تجمع مجمل هذه الافكار وتعطيها تعبيراً حياً ، لفظة منغرسة في فكرة الهند واعمالها وهي لفظة « بهاكتي » ومعناها الايمان او هي تعني اكثر من الايمان اذ يراد بها العبادة والتكريس او اتباع شخص وتسليم النفس بالكلية لهُ الى حد ان يصبح ذلك الشخص حياة لحياتنا ومحوراً لوجودنا . فتتحول الحياة الحاضرة الى صورة خلقية وروحية منعكسة عن الشخص الذي هو موضوع تعبدها المستمدة منهُ حياتها بل يزول الفارق بين المدرِك والمدرَك — التابع والمتبوع — اذ تسكب حياة الواحد في الاخر

كان هذا بلا ريب راي بولس في الايمان ولكن هذه الكلمة فقدت كثيراً من معناها الاصلي فصارت تستعمل بمعنى التصديق او الثقة . ولم يعد تسليم الذات اهم ما يتضمنهُ معناها كما كان اولاً . ولكن الهند ستعيد اليها هذا المعنى . فاذا اقتبست المسيحية لفظة « بهاكتي »

من الهند تجعل معناها اوفر اتساعاً مما هو · الهند تضع مركز «بهاكتي» في العواطف ولكنها في المسيح تشمل الانسان كلهُ لان المسيح يمنح الحياة للحياة كلها

انّا نعتقد ان الله اله شخصي ولا نعني الهاً جسديّاً بل الهاً شخصياً وهذه الشخصية تتضمن ثلاثة امور موسسة على امر رابع وهي العقل والحس والارادة واساسها الوجدان · فنحن اشخاص ولنا هذه القوى الثلاث · والديانة بمثابة صدى شخصية الفرد تلبية لشخصية الله فمعنى الديانة اذاً اني افتكر افكار الله واشعر بشعوره واريد ما يريده حتى تصبح شخصيتي مماثلة لشخصيته ولكني خارج المسيح لا اعرف الا قليلاً عن الله ولهذا تصبح الديانة في نظري ان افتكر افكار المسيح وان اشعر بشعور المسيح وان اريد ما يريده المسيح وان اصير مثلهُ

فالمسيحية تستخدم الطقوس ولكنها ليست طقساً ولها اعتقادات ولكنها ليست اعتقاداً ولها منشآات ولكنها ليست منشأة بل هي في اجل معانيها : شخص يسلم ذاته لشخص اخر وحياة تخضع لحياة

قال يسوع ان الايمان (بهاكتي) يجب ان يشمل الانسان كلهُ : « تحب الرب الهك من كل قلبك (اي قواك الحساسة) ومن كل فكرك (اي قواك العاقلة) » ومن كل نفسك (قوى ارادتك) ومن كل

قوتك (قواك الطبيعية) . اي ان كل الانسان بما في ذلك الانسان الطبيعي يجب ان يدخل تحت سلطة الله

كثيرون يحبون الله بطريقة غير متوازنة وغير منتظمة ولذلك يحبونهُ حباً ضعيفاً ناقصاً فبعضهم يحبونهُ بقوة الشعور مع ضعف في القوى المفكرة : هذه ديانة التأثر والانفعال . والبعض يحبونهُ بقوة العواطف مع ضعف في الارادة وهذه ديانة العقل المجرد . والبعض يحبونهُ بقوة الارادة مع ضعف في العواطف وهذه ديانة الآداب الصارمة الخالية من المحبة فلا تحِبّ ولا تحَبّ . ولكن المسيحي القوي الحقيقي هو الذي يحب بكل قوى عقله وعواطفهِ وارادتهِ اي بكل قوى شخصيته ، هو الذي تشمل محبتهُ للمسيح وتسليمه ذاته لهُ كل وجوده . وكما ان المسيح جاء بكل شيء للانسان فهو يطلب منه كل شيء

والمؤمن المسيحي لا يمارس التقشف او الزهد في فكره ولا في عواطفهِ ولا في ارادته ولكنهُ يمارس التضحية فهو لا يضعف ذاتهُ ولا يجفف ينابيع حياتهِ النفسية بل يقويها و يرقيها و يقفها لله . فتصبح النفس اذ ذاك كسفينة شراعية منتظمة السير — الارادة تتولى ادارة دفتهـا والعواطف كالقلوع تدفعها اذ تمتلىء من نسمات السماء والحياة كلها تسير متقدمة الى الامام

ان «بها كتي» لفظة جميلة غزيرة المعنى واذا اكسبتها المسيحية توسعاً في معناها فهي تزيد غنى مسيحيتنا

حين افتكر بمثال يمثل لنا هذه الحقائق بصورة اجمالية ويجلي لنا انموذجاً من المسيحية الهندية الحقيقية يخطر ببالي الزاهد سوندر سنغ . فان من يشاهده منتعلاً نعليهِ المكشوفتين ومرتدياً ثوبهُ الطويل الاصفر، خاوي الوفاض من ممتلكات هذه الدنيا يسير وطلعتهُ الهادئة تتهلل بشراً ، يخاله شخصاً برز من صفحات العهد الجديد ففيهِ تتمثل المسيحية في روح هندية حقيقية فيصغي العالم ليلتقط انغام موسيقاها الجميلة . حين يذهب هذا الرجل الى اوربا تضيق النوادي والكنائس عن ان تسع الجماهير التي تزدحم لسماعه وخصوصاً في مقارّ الجامعات الكبرى . وحين يصغون الى كلامهِ يسمعون على رغم ضجيج مدنيتنا المرتبكة انغام حياة جديدة ، حياة ادركت سرّ سيادة الروح وحقيقتها وعرفت معنى الانتظام والسلام وسلمت ذاتها بكليتها الى المسيح — مسيح الهند

واختم هذا الفصل بنقل كلمة قالها احد الذين طرقوا باب البحث في هذا الموضوع وهي : «لا يمكن ان يكتب التفسير النهائي للعهد الجديد حتى تعتنق بلاد الهند الدين المسيحي»

الفصل الثالث عشر

المسيح في طريق الهند

منذ عهد غير بعيد وجه اليَّ احد المرسلين في الهند انتقاداً لطيفاً صدراً عن اخلاص وحسن نية لاني على قوله اكرز « بمسيح حيّ بدلاً من ان اكرز بالمسيح الذي مات » . وقد ادركت ما كان يرمي اليهِ وهو اني في كرازتي لم اكن افيض في تبيان عمل الفدى الذي اتمهُ المسيح عن البشر مرة واحدة ، معبراً عنهُ بالنصوص التي وضعتها الكنيسة . فاعترفت لذلك الاخ بان ملاحظته كانت في محلها . غير اني لم اكن اقل منهُ تمسكاً بالايمان بما فعلهُ المسيح من اجلنا على الصليب . فاني اومن ايماناً قلبياً انهُ مات من اجلي . ومهما شئت ان اقرأ في هذه الكلمات من المعاني الجليلة او من عواطف القلب البشري المفعم بالشكر ارى الالفاظ قاصرة عن استيعاب معناها الكامل ومهما استطعت ان ابتكر من التعابير اجد انها تعجز عن الاحاطة بهذا المعنى السامي . فان « الكلمة » الذي صار جسداً اعظم من ان تستوعب معناه كلماتي — اني اومن بذلك الماضي وبان يسوع هو هو امس واليوم والى الابد . وباننا اذا فصلنا الماضي التاريخي عن الحاضر الاختباري فلا يبقى من

هذا الاختباري شيء لانهُ لا تقوم لهُ قائمة بدون الماضي

ومع ذلك فالمسيح حي اليوم . ولم يكتفِ بما اتمهُ لنا من عمل الخلاص في الماضي بل هو يصحبهُ ويرعاه فينا في الحاضر . وليس هو قوة انصرفت وتبددت بل هو قوة فعالة حاضرة الان . ولقد اصاب ستودرد كندي اذ قال : «اننا لا نعرف ما هو الذي يزعجنا في عالمنا الحديث الا اذا كان سببهُ ان المسيح قد استولى على نفوسنا فلم نعد راضين بذواتنا ولا باحوالنا كما كنا في الماضي . وذلك اننا لا نستطيع ان نحمل ذواتنا على اطاعتهِ طاعة مطلقة ولا على الامتناع عن اطاعتهِ كلية . وهو مستولٍ علينا في بلاد الشرق وفي بلاد الغرب على حدٍ سواء»

واني اجده في اماكن لم اكن احلم بان القاهُ فيها . وهو حيث حلّ يحدث تطوراً وتغييراً في احوال المجتمع بتاثيره في الناس تأثيراً يجعلهم يشعرون بحضوره فيما بينهم

عدّد الاصلاحات التي تمت في الهند سواء اكانت اقتصادية ام اجتماعية — ادبية ام دينية — تجد انها كلها متجهة اتجاهاً واحداً نحو فكر المسيح وليس هنالك حركة اصلاح حقيقي تسير في جهة الابتعاد عنهُ (يستثنى من ذلك ما يعد حركة اصلاح في الظاهر وهو في الحقيقة حركة رجعية)

سمعت مرة من صديق لي وصفاً للسر جورج غبريال ستوكس مكتشف علم السبكتروسكوبيا وصاحب نظرية تموّج النور . روى لي عنهُ انهُ كان رجلاً رقيق الشعور حيياً خجولاً . وكان فوق حيائهِ المفرط متخلقاً باخلاق قديس حقيقي فلم يكن يكترث للشهرة والمجد العالمي ولا كان يهمهُ أعلم الناس ام لم يعلموا انهُ هو صاحب تلك الاكتشافات العظيمة وكان دائماً يختبئ وراء كلفن وطمسن وغيرهما من كبار رجال العلم فيدفعهم الى الامام دون ان يظهر ذاتهُ . اي انهُ كان يجعل الفضل لهم في كثير مما كان هو احق بان يعزى اليهِ الفضل فيهِ . وختم صديقي وصفهُ لهذا العالم الكبير بقولهِ انهُ لا يستطيع تعداد جميع الامور والمشروعات التي كان السر جورج ستوكس القوة الخفية العاملة وراءها

واذ جلسنا نتكلم عن هذا العالِم تدرج الحديث بنا الى الكلام عن الرب يسوع المسيح والى تعداد المشاريع العديدة العظيمة التي يحق القول انهُ هو القوة العاملة فيها وان كان ذلك في غالب الاحيان غير بادٍ للعيان

سئل احد وزراء اليابان «الى مَ تعزو زيادة اضطراب العمال منذ نهاية الحرب العظمى؟» فبدلاً من ان ينسب ذلك الى البلشفية قال «انها المسيحية تعمل بين طبقات الشعب . فالعامل يريد ان يمتحن تعاليم

المسيح عن الحياة والحرية » وقد عبر عن المعنى عينهِ احد العمال غير المسيحيين بقوله لاحد مرسلينا : « اننا نحن العمال نفهم المسيح فهماً جلياً لانهُ كان عاملاً مثلنا وحمل صليباً وكل عامل يفهم ما هو الصليب لانهُ مضطر الى حمل الصليب » . وهكذا نرى ان روح يسوع الحي يمكن الشعور بهِ في خلال كثير من حركات الاصلاح في الشرق

كان لآخر سلاطين سلطنة « عود » المسلمين ثلاثمئة وخمس وستون زوجة . وقد تحول قصره الان الى دار للمجلس التشريعي . جلست مرة في قاعة من قاعات هذا القصر ، وكانت سابقاً تابعة لدار الحريم ، لاسمع مناقشة دارت في المجلس بشان منح النساء حقوق الاقتراع . وكان في شُرَف القاعة عدد من السيدات من خريجات احدى كليات البنات المسيحية وقد اشار اليهنّ الخطباء تكراراً وكان تأثير اولئك السيدات المتهذبات تهذيباً مسيحياً راقياً من جملة العوامل التي حملت اعضاء المجلس التشريعي — الهنود منهم والمسلمين — على اصدار قرارهم بالاجماع على اجازة ذلك القانون

تعد ولاية ترافنكور من اشد ولايات الهند تعصباً وتمسكاً بنظام الطبقات الاجتماعية وعلى رغم ذلك فقد حضرت مرة فيها مأدبة جمعت بين مختلف الطبقات الاجتماعية فكان فيها نحو مئة من الهندوس من

ابناء الطبقات العليا ومئة من الطبقات السفلى المنبوذة ومئة من الهنود المسيحيين و بعض من المسلمين ومن ابناء قومنا الغربيين وكان الجالسون مختلطين اختلاطاً تاماً هنا ترى احد ابناء الطبقات العليا وبجانبهِ احد افراد الطبقات المنبوذة و بجانب هذا مسلماً ثم واحداً منا وهكذا. وقد كنت جالساً بين مسلم الى الجانب الواحد ومنبوذ الى الجانب الاخر. ولما جلست التفت اليَّ المسلم وقال: «الحمد لله لقد اجتمعنا اخيراً على رغم اختلافنا». واذ جلست اتفرس في وجوه الحاضرين ولاحظت علامات الدهشة على وجوه اولئك المنبوذين، التي ارتسمت عليها امارات الذل المنطبعة منذ قرون عديدة خيل اليَّ اني ارى وراءهم شخص يسوع يقول «كنت محبوساً فزرتموني». فها ان اغلال القرون قد تحطمت امام قوة ابن الانسان وتاثير روحه في ضمائر الناس

وهكذا نرى ان تأثير يسوع المسيح يشعر بهِ بصورة خفية في كل مكان بما يحدثهُ من التغيير في نفوس الناس واحوال المجتمع وهنالك نهضات فكرية تنشأ وفي كثير منها لا يعترف القائمون بها او لا يعرفون ان روح المسيح المحيي وراءها. قال لي احد الهندوس الاذكياء مشيراً الى جماعة من الهندوس العاملين في سبيل انهاض اخوانهم وتحسين شؤونهم الاجتماعية: «انظر الى هولاء الهندوس المسيحيين». فكأنه اعترف بقوله هذا انهم وان كانوا غير متدينين

بالمسيحية فقد اظهروا روحها في عملهم المبرور

وعليهِ يحق لنا القول ان المسيح يجول الان في طرق الهند كما كان منذ الف وتسعمئة سنة يجول في طرق اليهودية والجليل . واذا رآه شعب الهند بعين الخيال جالساً على جانب الطرق ليستريح تدرك نفوسهم القوية الشعور انهُ يفهم معنى التعب والالم والحزن ويستطيع الدخول الى داخلية حياتهم ومشاركتهم في شعورهم . وقد اعرب احد كبار مفكري الهندوس من اهالي شمالي الهند عن هذه الحقيقة في خطبة موجزة القاها بعد ختام احدى خطبي بقوله :

« ان ما يدهشني في المسيح اكثر من كل امر آخر هو قوة عطفهِ وخيالهِ . فقد اخترق اعماق اختبار الناس واحس معهم بكل ما يحسون بهِ فاستطاع الشعور بظلمة العمى مع الكفيف وبرص الابرص وبوحشة الغني وعزلتهِ وحطة الفقير وذلتهِ وذنب الخاطىء . فماذا نقول عنهُ ؟ من هو ؟ قد سمى ذاتهُ ابن الانسان وسمى ذاتهُ ابن الله . وما علينا الا ان نترك الامر لهُ ونقبل الاسمين »

حقاً ان هذا الاستاذ قد عبر اجمل تعبير عما اصبح جمهور كبير من الناس في بلاده يشعرون بهِ وان يكن شعورهم لا يزال غير جلي

ان يسوع لم يقف امام الاعمى والابرص والفقير والخاطىء ويتفلسف لهم عن سبب وجودهم في تلك الحالة . ولكنهُ كان يضع يديهِ

المملوءتين عطفاً وحناناً عليهم ويشفيهم · وهو لا يزال اليوم يفعل مثل ذلك عن ايدي خدامهِ · فهو يمس باصبعهِ ضمير الفريسي العصري المعتزّ بقوتهِ وجاههِ ويؤنبهُ بلطف ويسألهُ لماذا يسمح بوجود مثل ذلك الشقاء بين اخوانه في البشرية · ومتى قرع مثل هذا السؤال مسمع الانسان يشعر لاول مرة في حياتهِ انهُ في الحقيقة « حارس لاخيه » وان شقاء الفقراء والمرضى والبوساء ليس دليلاً على انهم اخطأوا في دور وجود سابق بل هو دليل على خطيئة الاغنياء في دور الوجود الحاضر لانهم لم يتلافوه · ان النهضات الكونية تنشأ من افكار كهذه ومثل هذه الافكار مستمد من المسيح وان وقف في الغالب على جانب دون ان ينتبه الناس لوجوده

الا ان البعض يدركون حقيقة ما هو جارٍ · قال لي استاذ التاريخ الحديث في احدى كليات الهند الجنوبية وهو من الهندوس : « ان درسي للتاريخ الحديث قد اوضح لي ان للعالم اليوم قطباً ادبياً تدور حولهُ افضل حياة الناس ، الشرق والغرب كليهما ، وذلك القطب هو شخص يسوع المسيح »

وانهُ من اللاذّ والمدهش ان نراقب كيف تتطور افكار الناس ونفوسهم حين يدخلون ضمن دائرة تأثيره اذ تتصل بهم جاذبية شخصيتهِ فتبدأُ حياتهم تدور حول حياتهِ · وهذه هي دائرة التأثير التي

نرقبها بمنتهى الاهتمام لجميع دوائر النفوذ الاخرى في الشرق التي خلقت لغايات الاستغلال الاقتصادي والدسائس السياسية ليست الا بؤراً يتولد فيها التحاسد والنزاع ولكن دائرة تاثير يسوع هذه ليس فيها الا الشفاء والتآلف والخلاص

وهاكم شهادة احد كبار فلاسفة الهند وهو متضلع من فلسفة الشرق وفلسفة الغرب . القيت عليهِ سوالاً وكنت مستعداً في داخلي لمواجهة صدمة انتقاده سالته « ما تظن يا استاذ بيسوع المسيح؟» فاجاب : « قد كانت لنا افكار سامية عن الله قبل مجيء يسوع ولكن يسوع هو اسمى تعبير عن الله شاهدناه ُ وهو يتغلب علينا ضد ارادتنا بمجرد قوة شخصيتهِ » . ومعنى هذا القول ان يسوع ينتصر لا بسبب حيلة دينية او مهارة جدلية بل لانهُ جذاب يختلب الالباب والنفوس وهو يتغلب لا بواسطة استعمال سلطة قيصر — اي السلطة الزمنية — بل لان شخصيتهُ متغلبة وهو مخلّص لان الناس يجدون فيهِ ما يجب ان يوجد في المخلص ويجذب العالم اليهِ برفعهِ العالم الى مستواه السامي

القى محامٍ هندي نابغة خطاباً كنت احد سامعيهِ وكان موضوعهُ : « المسيح الذي لا مفرّ منهُ » . فقال في خطابهِ : « اننا لم نستطع ان نفرّ من المسيح . مرّ وقت كانت فيهِ قلوبنا مملوءة مرارة وبغضاً لهُ ولكنهُ اذابها بواسطة خلابتهِ وانهُ ببطء وتأكيد يدخل حياة جميع الناس

في الهند» · كان الفكر الوحيد الذي تردد في ذهني وانا اسمع هذا الخطاب هو قول المسيح «لي خراف اخر ليست من هذه الحظيرة ينبغي ان آتي بتلك ايضاً فتسمع صوتي» — فكيف يمكن بعد هذا ان توضع حدود للملكوت؟ ان المسيح يتخطاها فنقف منذهلين ووجلين كما وقف الفريسون قديماً لا ندري الى اين يصل مدفوعاً بحرارة عطفهِ على الناس وادراكهِ لحاجاتهم· فهو ياكل مع العشارين والخطاة ومع الهندوس ايضاً · فلا عجب ان كان الكاتب الشهير ولز مؤلف كتاب « معالم التاريخ العام » قد اجمل تأثير يسوع في التاريخ البشري بقوله : «ان الجليلي قد كان اكبر بما لا يقاس من قلوبنا الصغيرة»

وحين كان ذلك الجليلي على الارض قال عن ايمان احد «الوثنيين» ما يأتي : «لم اجد ولا في اسرائيل ايماناً عظيماً كهذا» · وهو بلا ريب يقول نفس القول الان لان العالم «الخارجي» (اي الخارج عن نطاق الكنيسة المسيحية) يدهشنا

كنت ذات يوم اتكلم باللغة الهندية مع احد كهنة الهندوس فكم كانت دهشتي عظيمة حين طفق يتكلم بلهجة انكليزية فصحى ثم اخرج نسخة من العهد الجديد من تحت معطفهِ وقال لي « هذا هو طعامي وشرابي »

فقلت لهُ مندهشاً « ولكنك من كهنة هذا الهيكل فما شأنك وهذا الكتاب ؟ » فاجابني مكرراً القول ان العهد الجديد طعامهُ وشرابهُ . ولما سألتهُ عن رايهِ فيهِ اجاب : « ان جميع الاديان الاخرى آيلة الى الزوال عاجلاً ام آجلاً ولكن يسوع وحده سيبقى »

فهل يتحقق ايمان هذا الكاهن ؟ هل اخذت ظلمات الاديان الاخرى تزول وتتبدد وبدأ نور المسيح يملأ الافق ؟ اني اعلم انه يسهل في امر كهذا المبالغة في تفسير الصورة او قراءة ما يود الانسان ان يقرأه فيها وان لم يكن موجوداً فيها حقيقة . ولكني في ما رويتهُ في كتابي هذا قد جعلت شهادة الهنود انفسهم تروي روايتها فان كان فيها مبالغة او اغراق فمرجعها اليهم ولكن حقائق الواقع تؤكد لي ان ما قالهُ الكاهن الهندي صحيح

فان يسوع يوجد التغيير والانقلاب في كل مكان . وهو يقف غير متغير في كل هذه المعمعة ولم يتوصل يسوع الى مركزه في نفس الهند دون ان يجتاز جلجثة بل جلجثات من الطعن والتحقير وسوء التفاهم والاضطهاد وربما عقبها غيرها ايضاً — ولكنهُ ، على رغم تضارب الاراء والمُثُل ، لم يطلب منا الناس في الهند ان نغير رايا واحداً من آرائنا عن المسيح . هم يطلبون منا ان نغير مدنيتنا او كنيستنا او ذواتنا و كل شيء ما عدا يسوع قال لي رئيس هندوسي لاحدى

صحيح فهو امر يمكن تلافيهِ ومداواتهُ · فنحن نستطيع ان نداوي ونصلح كنيستنا ومدنيتنا وذواتنا ولكن لو قالوا ان ضربتكم في مسيحكم، اي لو كان المسيح موضوع طعنهم وانتقادهم من الوجهة الروحية او الادبية وكان ذلك الطعن والانتقاد مصيباً، لكانت الضربة قاضية علينا

ولكني لا اقول غير الحقيقة بحرفيتها حين اصرح ان الناس لا يعترضون على المسيح ولا يطلبون تغييره او تصحيحهُ او ابداله بل يطلبون منا ان نفسرهُ لهم تفسيراً صحيحاً وان نقتدي بهِ قدوة حقيقية

ان يسوع يسير على طريق الهند ويقع تأثيرهُ على افكارها وحياتها · وحيثما يشعر الناس بذلك التأثير تتغير اراؤهم في قيم الامور النسبية ويشعرون بان في الجو شفاء من الاسقام وان حياة النفس تتجدد كما يجدد الربيع حياة الطبيعة فتتحطم صور الحياة القديمة المتجمدة وتذوب وتدب حياة جديدة في كل ما حولها وينبض فيها رجاء جديد · وما ذلك الا لدخول العامل المجدد للحياة

عمّدت جماعة من طبقة المنبوذين في الحي المختص بتلك الطبقة في قريتهم وعند ختام الخدمة تقدم اليّ رب المنزل الذي جرت المعمودية فيه واخذني بيدي وقال: « التمس منك يا سيدي ان تتمشى في فناء منزلي الحقير وفي غرفهِ فاذا فعلت ذلك تزول منهُ مفاسد ماضينا وخطاياه

ويصبح كل شيء طاهراً ونقياً » . فاستغربت هذا الايمان الساذج بي ونكصت هيبة مما تضمنهُ من وضعي في منزلة لست اهلاً لها . ولكني شكرت الله لاني اعرف شخصاً سامياً يسير في طرق الهند ويدخل افنية منازلها ورحابها واكواخها الحقيرة واسواقها وحيثما يمر ينشأ شعور جديد بالطهارة وبعظم قيمة الحياة وتتولد رغبة جديدة في الخدمة وبالاجمال تتجدد الحياة

قال لي احد كهنة الهنود وهو خارج من غرفتي بعد ان قضينا حصة نتحدث في الامور الروحية « لقد اجتمعنا مع المسيح اليوم . أليس كذلك ؟ » نعم اننا كلانا اجتمعنا معهُ . واليوم هو يوم اجتماع الهند مع المسيح ومقابلتها لهُ وهو يومنا نحن ايضاً لانهُ باجتماع الهند معهُ قد اجتمعنا نحن ايضاً معهُ

. . . . .

فيما انا اكتب ما اختبرتهُ في هذه السنوات السبع عشرة ما فتئت تتردد في ذهني ذكرى حادثتين بسيطتين رسخت ذكراهما في ذهني مع ان اقوال كثيرين من كبار القوم الذين كانوا يترأسون اجتماعاتي قد زالت من ذاكرتي كلية . واولى هاتين الحادثتين تتعلق بفتاة هندية صغيرة لا تزيد سنها عن السابعة كانت تلعب في فناء منزلنا مع ابنتنا الصغيرة وكنت انا جالساً على الفرندة اكتب وفيما الفتاتان تركضان

بالقرب مني وقفت الفتاة الهندية ثم اقتربت مني خجلة وامرت يدها بلطف على خدي وقالت : «ان وجهك عزيز اليّ» ولما ركضت مبتعدة عني مسحت عبرة سالت على خدي واستأنفت كتابتي . ولكني شعرت بعاطفة قوية تنبض في قلبي . وفيما انا اكتب كتابي هذا هنا في اميركا اشعر مراراً عديدة كان يد الهند الناعمة تلمس خدي فينبض لها قلبي بعاطفة الحب الشديد لان الهند اصبحت عزيزة اليّ . كما اني اجد في محبتي للهند الان صفة لم تكن لها في اوائل ايام اقامتي فيها . ذهبت الى الهند مدفوعاً بدافع الشفقة عليها واما الان فابقى فيها مدفوعاً بدافع الاحترام . احب الهند لانها تُحَبّ واحترمها لانها تستحق الاحترام وقد اصبحت عزيزة لديّ لان فيها صفات تكسبها هذا المقام

اما الحادثة الثانية التي ارويها فحدثت في شنتينكتان في مدرسة طاغور . جلست ذات يوم على طرف السلم واخذت اراقب خدمة الصلاة في الهيكل . وفي ختامها تقدم احد الطلبة واخذ زهرة من النيلوفر — وهي زهرة الهند الوطنية — من كاس على مائدة امامية ثم رجع وقدمها لي . ولما وقفت لاتناولها منهُ انحنى ولمس قدمي حسب عادة الطلبة في تكريم معلميهم . وقد عمل ذلك بمنتهى البساطة . اني جئتهم كغريب وكاجنبي واتيت مجاهراً بدين غير دينهم وكنت متحيراً في كيف يستقبلونني ولكن لما قدم لي هذا الطالب زهرة النيلوفر عرفت

انهم قبلوني كصديق وكاخ — وكمعلم · وقد كانت غاية آمالي ان يقبلوني كمعلم · ولكني شعرت عندئذٍ اني متعلم كما اني معلم · ما جئت الى الهند بقصد ان اتعلمَ شيئاً بل بقصد ان اعلم فقط · ولكني بقيت فيها لاتعلم ايضاً · واعتقد اني ازددت صلاحاً لاني لامست قلب الشرق الحنان

اني ارتاب فيما اذا كانت لفظة « معلم » اللفظة الصحيحة التي يجب ان تستعمل في هذه المناسبة واظن ان لفظة « معرّف » اصح · اي ان مهمتي ليست ان اعلم اولئك القوم علماً جديداً بل ان اعرّفهم الى المعلم الصالح · كنت ذات ليلة اتكلم مع تلميذ هندوسي بعد احد اجتماعاتي فسألتهُ الا تريد ان تعرف المسيح · فاجاب « نعم ولكني لا اعرف كيف اذهب اليهِ واحتاج الى من يعرفني اليهِ » فقلت لهُ اني اود من صميم فوءادي ان اعرفهُ الى سيدي وادركت عندئذٍ بصورة مبهمة ما اصبح الان امراً جلياً لديّ · وهو ان اعظم سرور اطمح اليهِ هو ان اعرّف الناس الى المسيح : مسيح الطريق الهندية

واذا شئت ان افعل ذلك فيجب ان اعرفهُ انا · وهذا امر خطير · سالني محامٍ هندي ذات يوم « هل رايت يسوع ؟ » فلم استطع ان اجيبهُ بطلاقة · ولكني اجبتهُ ببطء « نعم · اعتقد اني رايتهُ » · فاجاب « اذاً قد ادركت شيئاً لم ادركهُ بعد · ولا بد لي من ادراكه »

« ان اعرف يسوع وان اعرّف الناس اليهِ » هذه مهمتي

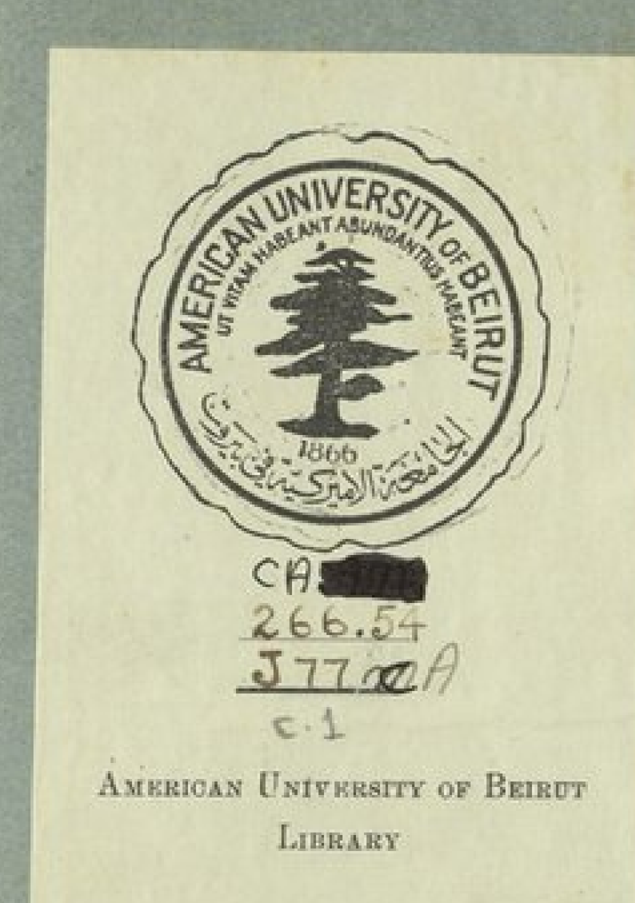
للهنود عادة جميلة في اعراسهم توضح بعض الايضاح مهمتنا في الهند كمرسلين اي الى اي حدّ يجب ان تتوصل اعمالنا . ففي حفلة العرس تذهب مع العروس صديقاتها ومعهنّ الموسيقى الى منزل العريس ثم يصحبنها الى حضرة العريس في مقصورتهِ وبعدئذٍ ينسحبنَ ويتركنها مع عريسها . ومهمتنا السعيدة في الهند هي شبيهة بمهمة صاحبات العروس الهندية — ان نوجد التعارف بين الناس والمسيح ثم ننسحب — لا اقصد انهُ يجب ان ننسحب بالمعنى الجغرافي (اي ان نغادر البلاد) ولكن ان نوكل الهند بالمسيح والمسيح بالهند . وهذا غاية ما علينا القيام بهِ وبعدئذٍ فالمسيح والهند يصطحبان في ما بقي

لقد بدات الهند تسير يداً بيدٍ مع المسيح في طريق الهند فما اعظم وما اعجب ذلك المسير !

اصلاح خطإٍ

صواب	خطأ	سطر	وجه
الآلهة	الآهة	١٢	٣
قال ليسوع	قال بسوع	٨	١٢
دخل اليها	وصل اليها	٨	١٤
تبشير	تبشيري	٤	١٩
عبارتهُ	عباراتهُ	١٢	٢٠
لتعاليمه	لتعليمه	١٣	٣٢
في طريق افكار الهند	في افكار طريق الهند	١٥	
اقول «لله»	اقول لله	٩	٤١
قلت	وقلت	٤	٤٦
يصيرون	تأثير يصيرون	٩	٦٢
وتأثير مبادئه	ومبادئه	١١	
شعوبهُ	«شعوبهُ	١٠	٦٩
ولكني لا اكرههُ	ولكني اكرههُ	١٥	١١١
الغرب	العرب	١٦	١٢٥
التودُّد الينا	التودُّد لنا	١٤	١٢٧
اليوم	يوم	١٠	١٤١
الحقيقية	الحقيقة	١١	١٤٥
وجه	اوجه	٩	١٦٤
كآرائه	كبآرائه	١	١٨٣




AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT
UT VITAM HABEANT ABUNDANTIUS HABEANT
1866
الجامعة الاميركية في بيروت

